تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بنى أمية

نص

المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية فى سنة ١٩١٠ — ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلو نالينو

اعتنت بنشرها

مريم نالينو

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١٩٥٤

مقدمة

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى ، قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التى تعرض للأدب العربى وغيره من الآداب الأخرى . ولكنى لم أقرأه بعقلى وحده ، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبى ، وإنما قرأته بعقلى وقلبى وشعورى وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التى تثور فى نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم فى عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شىء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع فى تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذى لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره فى النفس من المضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الأنس بتلك الآمال العذاب التى طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتى صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فملأت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط ، وأتاحت لكثير من المنى أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التى أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربى القديم . ولكنه بالقياس إلىّ وإلى نفر من رفاقى فى ذلك الجيل الذى مضى ، يتجه إلى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لوناً من ألوان تلك الحياة التى كنا نحياها فى أول هذا القرن ، والتى لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت

الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حين ما تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو إلى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحى قلوبنا وحياتنا فى أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هى ناحية الحب الرفيع النقى الكريم الذى لا تشو به نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التى تتعلق بحب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامح الطامع المتطلع للأستاذ الذى يرضى الطموح والطمع والتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صاد ، ولا يردها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التى تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها .

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى سمعناه فى أول شبابنا فى تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالى العظيم « كارلو نالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً .

فى ذلك الوقت كنت طالباً فى الأزهر أقيم فى ذلك الحى الذى وصفته فى كتاب الأيام ، والذى زرته منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لى من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحى فأراد أن يراه . فلم نكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان فى نفسى :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلالا أسائلها   عيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد ، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب فى هذا مذهب المجاز و إنما هو مذهب الحق الذى يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحى ورأوا فيه تلك الأطلال التى عبث بها الزمان ، وأهملها الإنسان وخلى بينها و بين البلى والخراب .

كنت أعيش فى ذلك الحى أخرج منه مصبحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصفى ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التى كنت أسمعها فى الأزهر حين يرتفع الضحى تردنى إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء فى مساجد البصرة والكوفة و بغداد . وكانت دروس الأدب التى كنت أسمعها فى الجامعة حين يقبل المساء تدفعنى إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات فى روما و باريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضى البعيد وجه النهار، وأعيش مع الحاضر الأوروبى الحديث آخر النهار ، وتشغلنى خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد، يسعدون حين يعودون إلى الماضى ، و يسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التى كانوا يتطلعون إليها ، و يشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب أن يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر فى أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدروا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة، وهذا الغرور الحلو البرىء الذى كان يمازج نفوسهم تلك الفضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر

البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم فى غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسى إلى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى فى تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقى عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شىء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ، وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة فى نفوسهم عواطف وأهواء وميولا أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم سئموه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرءون فى الكتب ، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم فى اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرأون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتيح لهؤلاء الأوروبيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير فى قلوبهم فنوناً من التمرد وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والجموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك

أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأى شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الذى هو الأساس المتين لكل تطور منتج فى الحياة العقلية والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعممين .

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .

أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين : سيد على المرصفى ، الذى كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذى كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته . وعلمنى الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألائم بينها ، وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال . وكل ما أتيح لى بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل فى مصر وفى خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقيته منهما فى ذلك الطور الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت فى قراءة كتب الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس، وحين أمعنت فى قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذن فى أن تكون حياتى كلها براً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا إلىّ من معروف وما أسديا إلىّ من جميل . وشهد الله ما قرأت فى كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة فى الأدب إلا ذكرت

أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسى تحية الحب والإعجاب والشكر والوفاء .

والذين يقرأون هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم إلى القراء المتأدبين يحسن بهم أن يقرأوا ما كانوا يدرس لشبابنا فى ذلك الوقت من أدب فى معاهدنا ومدارسنا على اختلافها ، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « نالينو » يلقى علينا فى الجامعة ، و بين ما كان يلقى علينا فى المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق فى تطور حياتنا العقلية وفى تطور تصورنا للأدب العربى قراءة وفهماً و إنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظماً ، وألقى فى روعنا أن الشعر العربى لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاء ونسيباً وتشبيباً فحسب ، و إنما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها وظروفه التى أحاطت به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائليه وفى سامعيه أيضاً . ولأول مرة ألقى فى روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة فى نشأة فنون مختلفة من الشعر العربى فى العصر الإسلامى أيام الخلفاء الراشدين وأيام بنى أمية .

ولأول مرة ألقى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدى وبين الشعر الذى استحدثته السياسة الإسلامية فى العراق ، وبين النسيب التقليدى القديم والغزل الذى استحدثه النظام الاجتماعى الإسلامى فى الحجاز ، و بين الغزل المحقق الذى نشأ فى حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ فى البادية العربية فى الحجاز ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه و بين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة

الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغى أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغى أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التى يذخر بها التاريخ والتى تؤثر فى حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا أن الآداب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها ، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التى سبقته فأثرت فى إنشائه ، والتى عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه ، والتى جاءت فى إثر عصره فتلقت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران إذن . مظهره الفردى لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذى أنتجه ، ومظهره الاجتماعى لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها . هو فى نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه فى تلك الدروس التى كان الأستاذ « نالينو » يلقيها علينا ، حين كان هذا القرن ، فى العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديراً بالقياس إلينا فى تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهريين منا بنوع خاص . فمن الطبيعى أن يحدث فى نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك فى أن حقائق التاريخ الأدبى العربى قد تغيرت منذ ذلك الوقت فى كثير من أنحائها وفى كثير من تفصيلها كذلك .

وليس من شك أيضاً فى أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم قد تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة فى حياة الأدب العربى أثناء القرون الأولى للهجرة ، وهم قد نشروا آثار قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفى من الحقائق . وهم بعد ذلك

قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة فى الدراسات العالمية لأدبنا العربى القديم .

كل هذا شىء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى فى هذه الكتب القديمة التى نشرت، وفى هذه الكتب الجديدة التى ألفت، وفى الدروس الأدبية التى تلقى فى جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة، وفى إنتاجنا الأدبى الخالص الذى شغلت بدرسه وعنيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية فى غرب أوروبا وشرقها وفى شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً، وهو أن دروس الأستاذ «نالينو» فى الجامعة المصرية القديمة كانت هى الموجّه الأول لنهضتنا العلمية فى دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه، ثم وجهت أجيالا من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرؤا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث فى تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ «نالينو» نظيراً فى التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ «سنتلانا» الذى أحدث فى مصر نهضة خطيرة فى دراسة الفلسفة الإسلامية ، وفى الصلة بين هذه الفلسفة و بين الفلسفة اليونانية القديمة .

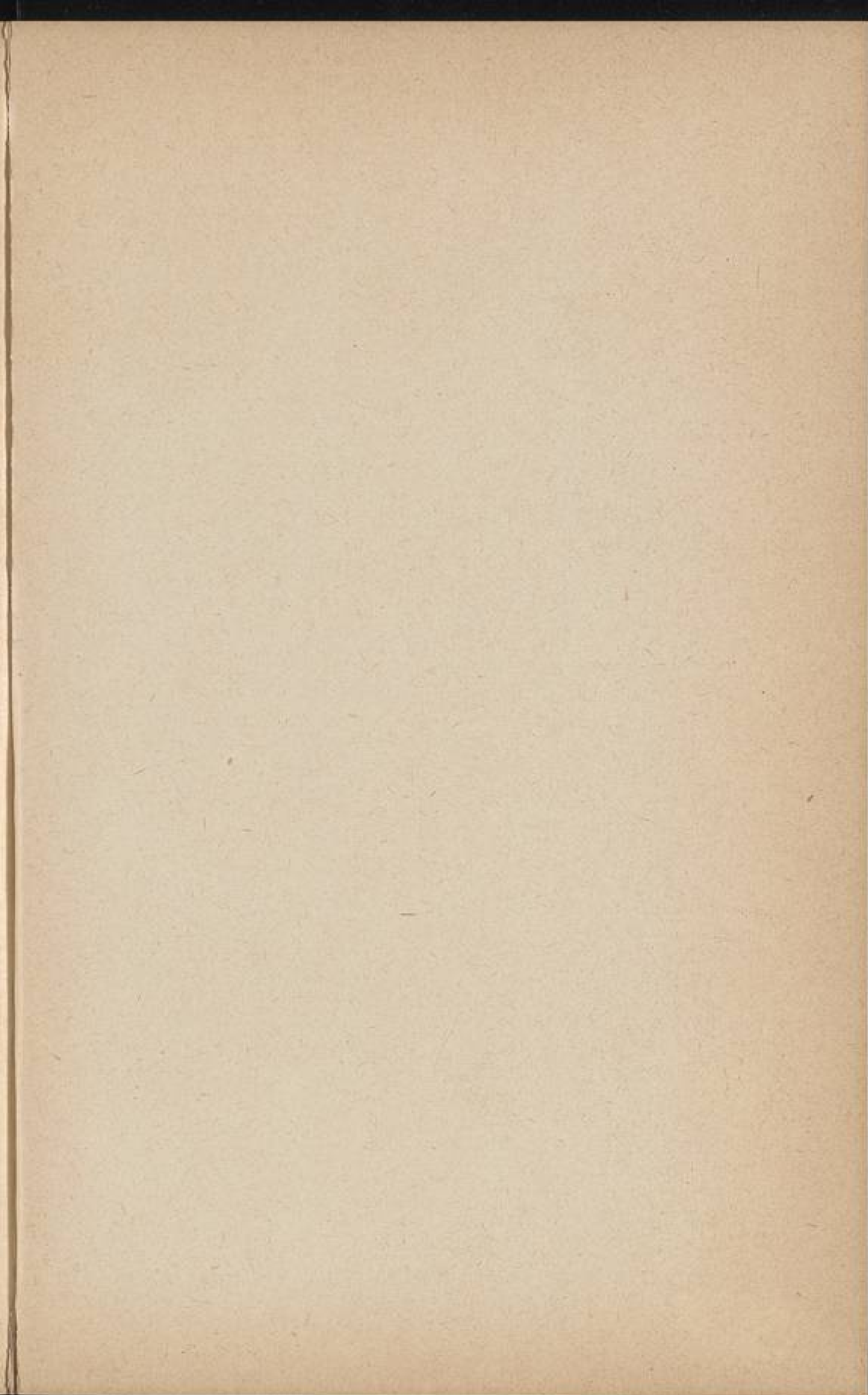
وقد أتيح للأستاذ «نالينو» من البرّ به بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل فى نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شىء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الآنسة «ماريا نالينو» . فهى التى حفظت آثار والدها العظيم وجدّت فى إعدادها للنشر ، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار فى إيطاليا ، فأهدت للعلم وللعلماء كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة ، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدّت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً و إنما وفت لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللأستاذة « ماريا نالينو » فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهيأتا لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ، والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برّى بأستاذى العظيم ، وشكرى لابنته الكريمة ولدار المعارف على ما أتاحتا لى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى فى طور من أطوار الشباب .

طه حسين

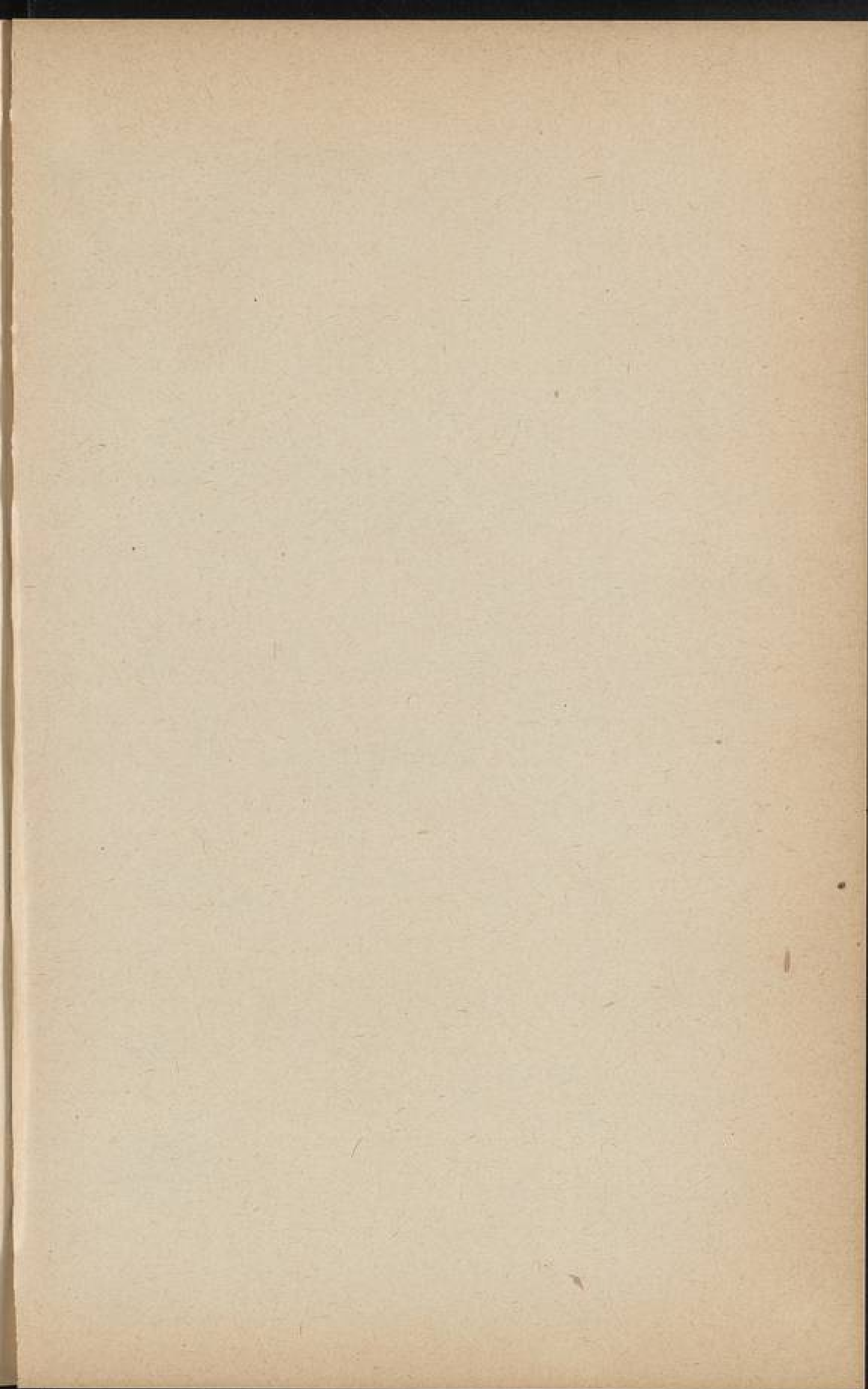


تنبيـــه

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التى ألقاها المرحوم الأستاذ كرلو نلينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ — ١٩١١ دراسية فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشى بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار، فاعتنيتُ بنقل الحواشى إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة فى بعض الكتب التى طُبعتْ بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصفى مستطيل [ ] .

ومن الواجبات علىّ أن أشكر الدكتور طه بك حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسّس ذكرى للمحبة الخالصة بينه و بين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن .

مريم نلينو



مقدمة

لمّا افتتحتُ دروسى فى السنة الفائتة كان أوّلُ كلامى إبداء شكر خالص حميم صادر عن خفايا قلبى للقائمين بالجامعة المصريّة على ما شرّفونى به بالدعوة إلى إلقاء محاضرات فى هذا المعهد العلمىّ الذى على حداثة عهده أضحى قبلةَ آمال المُجدّين فى ترقية هذه الديار الشريفة ومركزاً تحوم حوله قلوب الآخذين بأيدى الأمّة المصريّة فى سبيل الفوز والتقدّم . وكذلك فى هذه السنة ليس لتدريسى افتتاحٌ أولى ولا ابتداء أحرى من إعادة جزيل الشكر على ما أظهره لى دولة الأمير أحمد باشا فؤاد ومجلس إدارة الجامعة من حُسْن الظنّ بى واستحسان عملى السابق حيث تكرّموا علىّ بتكرار الدعوة فى هذا العام وإن عجِز لسانى عن توفية ما يقتضيه مثل هذا الشرف من عبارات الشكر والعرفان .

والذى حملنى على تلبية الدعوة مع معرفة قلّة علمى وضَعْف قُواى بالنسبة إلى خطر الموضوع وجلالته وغلب فى نفسى على المخافة من النقصان عن نَهْض أعباء هذا المنصب والتقصير عن إحسان القيام بمثل هذا التدريس الصعب الوعر أنّ الجامعة المصريّة تُدْخل هذه السنة فى دَوْر جديد وطور مجيد يُرْجَى منه فضلاً عن ترقية العلم إصلاحُ أحوال التعليم بالقطر المصرىّ فى المستقبَل غير البعيد وتجهيزُ المعلّمين الأكفاء لتحسين جميع المدارس الوطنيّة وجعلها أهلاً لغايتها تلك العليا التى مَرامُ أولى الأفكار السامية والأميال العالية أعنى تكوينَ القرائح وتثقيف العقول وتربيةَ النفوس وبثّ روح الجدّ والعمل وإيجادَ الرجال الخادمين لوطنهم بهمّة وصدق واستقلال . وإنّ الأفاضلَ الكرامَ المعتنين بأمور الجامعة هم كفلاء النجاح وزعماء الفلاح .

فلذلك سُرِرت أىّ سرور وحسبت أنى قد نلت أسمى المنى بوقوفى اليوم بين

أيديكم مشتركاً وإن لم أكن كُفوءاً فى هذا الأمر الجليل والعمل الخطير الذى هو أشرف ما يمتدّ إليه أعناق الهمم وأعظم ما يتنافس فيه نبال الأمم .

قد سبقت أمّتى الايطاليّةُ أىّ سبْق جميع الأمم الإفرنجية الأخرى إلى عقد العهود وتثبيت روابط المحبّة والوئام بينها وبين الديار المصريّة فكانت فى القرون الوسطى تجار البندقيّة وجَنْوة وغيرهما من المدن الإيطاليّة قاصدين مصر أفواجاً مقتحمين لجج البحر مُفْرِغين الجهد فى توسيع نطاق التجارة فأصبحوا فى أثناء أمد مديد بل أجيال متوالية متفرّدين بالاتجار فى الشرق مستبدّين بعلاقات الودّ والسلم بهذه الأراضى الشريفة . وربّما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص وحكايات سمعوها من القصّاصين المصريّين وأشاعوها فى الأنحاء الإيطالية حتى اشتهرت فيها فألبسها أدباء أمّتى ثوباً قشيباً فى مؤلّفاتهم المنظومة والمنثورة . وكذلك بعض المصوّرين المشهورين من بنى جِلْدتى فى القرن الخامس والسادس عشر ربّما فى تصاويرهم المحفوظة الآن فى المتاحف رسموا أشعرة الأمراء والسلاطين من دولة المماليك أو صوّروا رجالًا عليهم الحللُ المحلاةُ بكتابات عربيّة منقولةٍ ممّا رأوه منقوشاً فى الصوانى والقناديل وما أشبهها من المصنوعات المصريّة . وإن تصفّحتم الكتب العربيّة فى صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقىّ الدين عبد الرحمن من علماء القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبْح الأعْشى للقلقشندىّ المتوفى سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) وجدتم فيها قوانين رسم مكاتبة سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات أىْ الحكومات الإيطاليّة . وعلى تمادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطنى موقوفة على محض المحبّة والمسالمة فلا كدّرتها أبداً شرُّ العداوة أو سوء الطمع والغصب ولم يصل أبداً مركبٌ إيطالىٌّ إلى مرافئ القطر المصرىّ إلاّ بصفة صديق يزور الصديق . فأحسَبُ من أحسن التفاؤل لتوثيق علائق الارتباط بين الأمّتيْن إنْ بعضَنا الإيطاليّين دُعينا إلى الاشتراك فى هذه النهضة العلميّة الجديدة التى تعود على بلادكم بالفائدة العظمى وتكون سبباً فى

زيادة رفعة القطر وعزّة الشعب . فأتمنّى كلّ التمنّى ازدياد المؤالفة والاتّفاق وتبادل المحبّة والصداقة على الدوام .

إنّ الموادّ التى ستدور دروسى عليها هذه السنة ليست فى كتاب واحد موضّحة أو فى كتب قليلة مدوّنة بل هى فى جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة فى لغات شتّى شرقيّة وغربية متفرّقة فضلاً عمّا يكون من مبتكرات أفكارى . فلذلك أرى من المناسب أن أكرّر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء السنة الدراسيّة السابقة أعنى أن أحثّكم كلّ الحثّ على أخذ مذكّرات فى أثناء الدرس ثمّ على تقييدها وترتيبها فى منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلاّ تنسوا ما سمعتم ولا تحفظوا شيئاً من المسموع إلاّ فهمتم معناه واستقصيتم فحواه . وأنتم تعلمون أنّ التعلم بشيئين حُسْن الحفظ وإدمان الفكر فى المحفوظ فإن قل أحدهما قلّ ونقص المتعلَّم . وذلك خصوصاً فى المدارس الجامعات التى منتهى ما يُرجى منها ليس كما فى المدارس الثانويّة محض إفادة الطلبة ما سينفعهم فى الحياة العاديّة من المعارف بل هو هداية الطلاّب فى طريق النبوغ فى الفنون وتمرينهم على آداب البحث العلمىّ باستقلال الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمَثَلُ المدرّس بالجامعات كمَثَل دليل رافقَ السائحين مدّة ما فلمّا رآهم قادرين على تذليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من التجهّز لباقى السفر والتحرّز من أخطار السَّيْر ودعهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر الميمون ونيل المرام متمنّياً أن يسعهم اكتشاف طُرق جديدة وسلوكُ مسالك لم يدخُلْها أحدٌ قبلهم وقطع بقاع لم يسبقْ إليها غيرهم . كذلك الأستاذ بجامعة يختار كلّ سنة قطعة صغيرة من فنّه ويتبحّر فيها أثناء دروسه ليعرّف الطلبة أساليب البحث الدقيق والفحص العميق التى لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حَلْبة المعارف . فقُصارى القول أنّ غاية الجامعات ليست فقط أن يُصبِح الطالب واعياً لما تلقّاه عن أستاذه من الفوائد والأخبار بل هى خاصّة تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد فيما وعاه ليُضحِى بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرُّج فى مراتب الارتقاء العلمىّ باستقلال

الفكر قادراً على سدّ الخلل الذى ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختصّ به من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانويّة الاقتناع بما دوّنه و بيّنه المدرّس أو بمضمون الكتب القليلة الابتدائيّة المقرّرة لتلك المدارس لكون مقصد التعليم الثانوىّ أن يقتبس الشابُّ قدراً معيّناً من المعارف بفنون مخصوصة مناسباً لمقتضى القيام بأمور الحياة العاديّة العمليّة . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التى غايتها القصوى إنّما هو تأهيل أخيار الشُّبّان للتوصُّل إلى أعلى درجة من المهارة بالبحث العلمىّ المُبْدِع ولإتقان الوسائل والأسباب المبنىّ عليها سَيْرُ الوطن والعلم والاجتماع الإنسانىّ فى سبيل الرُّقىّ الدائم والتمدّن الزائد . إنّ عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزرّاع فى حقولهم لأنّ دروسنا ليست إلاّ بَذْر بِزْر صغير فى عقول المستمعين فلا يذُرّ ذلك البزرُ ولا ينبُت ولا يُمسِى شجرة وارقة مُثْمِرة إن لم يلقّحه المتعلّم بقوّة الحافظة ورياض العقل و إمعان النظر وسعة مطالعة جَمّ من مصنّفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النَّصَب والجِدّ والعَناء والجهد لأنّه كما قيل :

بقدر الكدّ تُكتَسب المعالى فمن طلب العُلَى سهِر الليالى

وحيث إنّ حفظ جميع ما سُمع مرّة واحدة لشىْءٌ مستحيلٌ (ولا يخفى على أحد صحّةُ المثل السائر أن كلّ علم ليس فى القرطاس ضاع) كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمعوه بالجامعة والاستفادةِ منه بعد ما رجعتم إلى منازلكم إن لم تكن لكم كراريسُ قيّدتم فيها خلاصةَ الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهّز لتأدية الامتحان فى آخر السنة إذ كان ما دُرّس بالجامعة أكثر المادّة التى ستُمتَحَنون فيها ؟ لا بدّ لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأورباويّة فى تقييد مذكّرات بسرعة أثناء درس الأستاذ ثمّ فى تكميلها واستخراج نخبتها وترتيبها مستعينين بمراجعة ما يتيسّر لكم من الكتب المشارِ إليها فى الدرس .

ثمّ أحرّضكم كلّ التحريض على الاتّساع فى المطالعة فإنّه ممّا لا غِنَى عنه لمن يريد الترقّىَ الرحْبَ فى أىّ علم . وهو أيضاً من أعظم الواجبات عليكم خصوصاً فى هذا

الفنّ الذى أتشرّف بتدريسه هذه السنة لأنّ شدّة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألةً علميّة بل خدمة جليلة لوطنكم يحقّ عليكم القيامُ بها . إنّ الذى يعيّن ويصون وحدة أمّةٍ هو بالأخصّ وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المُتوارثةِ منذ الزمان القديم دون انقطاع وانفصال فإن أُغْفِلَتْ صيانتُها لانحدرت الأمّة إلى ورطة انحطاطها بل إبطالِ وحدتها . وإن راجعتم كتب تواريخ الغرب ألفيتم إنّ بعض الأمم الإفرنجيّة قد تراكمت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرها العدوّ وجعلها فى حال شرّ العبوديّة سلمت من الفناء التامّ لتمسّكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر مآثر قدمائها العلميّة والأدبيّة . ورُبَّ أمّة قد ألقاها تقلّبات الأمور وصروف الدهور فى غاية الانحطاط السياسىّ أخذت تُصلح شأنها الذليل وتعود إلى ما كانت أوّلاً عليه من العمارة والصلاح السياسىّ والاستقلال لمّا صارت علماؤها مُفرِغين ِكنانة جُهْدهم فى البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفى إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم بعملهم هذا قد ألقوا روح الحياة فى جسم الأمّة المنهوك القريب من الموت — فويلٌ لكلّ أمّة غلب فيها الفتورُ عن صون كنوزها الأدبيّة وإبقاء ذكر مآثرها .

ستسمعونى يا سادةُ أسرُد فى أثناء دروسى عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيّين أم غربيّين فأنتقدُ أقوالهم وأبْدِى فكرى فيها بالحرّيّة التامّة مستحسناً تارةً لآرائهم ورادًّا تارةً عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحُجَج . وليس غرضى من ذلك الحطَّ من شان أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقونى فى هذه الأبحاث الخطيرة ومهّدوا السبيل لمن جاء إثْرهم وحذا حذْوَهم . كلا . وإنّما غرضى الانتفاع بأعمالهم العلميّة المهمّة وتقديرُ فضائلها حقّ القدر واقتداء مِثالهم فى المَسْعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدْرَ ما استطعتُ لأنّه بسبب قلّة الطبيعة البشريّة بالنسبة إلى جلالة أسرار الكائنات وعِظَم المخلوقات ربّما يعرِض للباحث القليل الشأن أن تمكّنهُ إضافةُ شىء ولو يسيرٍ إلى ما اكتشفه

واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إنّ مَثَل العلم الذى لا نهاية لسعته كمَثَلِ جبل شامخ ذى وعور هائلة وصخور مُرْعبة راسٍ فى وسط بقاع كادت تكون ممتنعةً لا تُقْطَع لِمَا فيها من الخُشونة والصَّلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء الجوّ ارتفاعاً لا يُحَدّ مقدارُهُ حتّى لا يمكن أحداً أن يرى قِمّته . وفى قديم الزمان تجاهد أجرأُ الناس وأقواهم فى التقرّب من سَفْح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب لا تُحْصَى ثمّ جاء ناسٌ أُخر جسورون مثلهم أُولو حزم وعزم وأخذوا فى السعْى إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تُسْلَك فى الأحجار والصخور فبعد المشاقّ المديدة والزّلات العديدة تمكّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ أُخر وانتفعوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه وربّما لم يتقدّموا إلا بعد ترك المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً لمشروعهم فترقّوْا شيئاً يسيرًا بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقلّلوا مسافة ما بينهم وبين القمّة المرغوب فيها — هذا مَثَلُ مَسْعانا إلى الحصول على الحقائق العلميّة الغامضة فإنّ الحقيقة التامّة المُطْلَقة هى القمّة المقصودة غير المدرَكة على تزايد تقرّبنا منها والأقدمون يفيدون المتأخّرين علماً ويمكّنونهم من التوصّل إلى ما هو أعلى من منزلتهم وكذلك من المرتقين فى مَرْقاة العلم مَنْ يعتبر ويشرح من مبحثٍ وجهاً ومَنْ يلاحظ ويبيّن منه وجهاً آخَرَ فنقتبس من بنات أفكارهما نورًا على نور .

ومن ذلك يتّضح جليّاً أنّ تقدُّم العلوم النظريّة العقليّة مرتبط بل متعلّق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقّة التمحيص والنظر فيجب علينا أن ننتقدَ أقوال السابقين لنا انتقادًا صحيحاً سالماً خالياً عن كلّ غرض دنىّ وميل شخصىّ . إنّ ذلك الانتقادَ المقرونَ بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذى يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقاً بها . راجعوا يا سادةُ تواريخ الأمم الشرقية وتأمّلوا فيها حقّ التأمّل تجدوا أنّ انحطاط علومهم وسياستهم إنّما ابتدأ لمّا انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقلّ فى العلوم واقتنعوا فى المباحث النظريّة

بالتقليد الذى كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحُجّة فعدلوا عن تأليف الكتب المُبْدِعة المطوّلة ملتجئين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشى اللاغية على المتون والشروح أو التقايد والتقارير الباطلة على ذات الحواشى . ليس لأمّة تمدّن صحيح ولا تقدّم إذا لم يكن فيها رجال مستقلّون بالعلوم النظريّة مترقّون عن رتبة تقليد من سبِقهم . فلذلك لا تقتصروا أيّها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها بل سرّحوا فيها أنظاركم وأعمِلوا فيها قوّة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يُقْنِعكم دليلهُ أو برهانهُ فعليكم أن تسألوا أستاذكم وتطلبوا منه شرحاً أوسع أوفى . وحيث إنّ العصمةَ لله وحده فلا يسلَم إنسان من الخطأ تماماً على جليل قدره وعلوّ منزلته ووَفْر علمه وعقله ليس من المستحيل أن يزِلّ الأستاذ أحياناً فى كلامه أم لا يُدْرِك غاية الوضوح فى بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القِناع عن الغوامض ورفْع الحجاب عن كلّ مُبْهَم مرتاب فيه .

البابُ الأوَّلُ

١ لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصلى وما تفرع منه من المعانى المتعددة المختلفة — ٢ تعريف تاريخ الآداب — ٣ كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية .

وهذا أوان الخوض فيما ستدور دروسى عليه

١ — يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدّم تعريفَ ذلك العلم وتعيينَ موضوعه فأبتدئُ أنا أيضاً بشرح اسم الفنّ الذى أختصُّ بتدريسه هذه السنة وهو تاريخ الآداب العربيّة .

إنّ اللغة لكائنٌ حىٌّ فعلى مثل كلّ حىّ تقبَل النموّ والتجدُّد والفساد . وكذلك الألفاظ المفردة فكثيراً ما يطرأ عليها من التغيّر والانتقال من معنًى إلى آخَر حسبما يقتضيه تغيُّر أحوال الأمّة الاجتماعيّة والسياسيّة والتقدّمُ أو التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربيّة التى كثُر فيها تغيُّر المعنى الأصلىّ على تمادى الزمان وتقلّبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب حتى إنّ أحداً من عرب الجاهليّة أو القرن الأوّل من الإسلام لو أُحْيِىَ الآن وسمع اسم الفنّ المعيَّنِ لى تدريسُهُ لما فهِم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلْنفحَصْ عن معنى لفظ الأدب الأصلىّ ثمّ عمّا عرَض له من الانحراف عن أصله والإطلاق والحَصْر مدّة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطوّلة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأنّ لغويّى العرب عند شغفهم وعنايتهم المحمودة بلمّ غريب الألفاظ كثيراً ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات المألوفة كأنّها غير حريّة بالذكر . فتجدون

مثلاً ان ابن منظور الإفريقيّ المتوفّى بمصر سنة ٧١١ هـ — ١٣١١ م لم يقيّدْ فى قاموسه العظيم الجسيم المترجَم بكتابْ لسان العرب لفظ « الحَرْف » بمعنى الكلمة مع أنّه قديم متداول ولا أحدٌ من علماء اللغة سجّل فى كتبه ذات ذلك اللفظ بمعنى الشىء اليسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أظرف الكتّاب منذ القرن الأوّل للهجرة النبويّة[١] . أمّا لفظ الأدب فأكثر اللغويّين اقتصروا على تعريفه هكذا : « الأدبُ الظَّرْفُ وحُسْن التناول » . وفى المصباح المنير[٢] لأحمد بن محمّد المُقرِىْ الفيّومىّ المتوفَّى سنة نيّف وسبعين وسبعمائة ما نصُّهُ : « أدبْته أدْباً من باب ضرَب علّمته رياضةَ النفس ومحاسنَ الأخلاق . قال أبو زيد الأنصارىّ[٣] الأَدَب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسانُ فى فضيلة من الفضائل . وقال الأزهرىّ[٤] نحوه » . وقال السيّد الشريف علىّ بن محمّد الجُرْجانىّ المتوفَّى سنة ٨١٦هـ — ١٤١٣م فى كتاب التعريفات[٥] : « الأدب عبارة عن معرفة ما يُحْتَرَز به عن جميع أنواع الخطأ — آداب البحث صناعة نظريّة يستفيدُ منها الإنسانُ كيفيّةَ المناظرة وشرائطَها صيانةً له عن الخَبْط فى البحث و إلزاماً للخصم و إفحامه . كذا فى قطب الكيلانى[٦] . آداب القاضى وهو التزامه لِما ندَب إليه الشرع من بَسْط العدل ورفع الظلم وترك الميل » — والذى توسّع فى بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيّد المرتضى الحسينىّ

---

(١) راجع J. WEISS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und d La'einer* فى المجلة الألمانيـة Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft (Z. D. M. G.) 64, 1910, p. 368-374.

(٢) المصباح المنير ج ١ ص ٦ من طبعة بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفى أبو زيد الأنصارى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى فى ربيع الثانى ٣٧٠ هـ و ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلانى هذا فى النصف الثانى من القرن الثامن (الرابع عشر ميلادية) وله شرح على رسالة فى آداب البحث لشمس لدين محمد السمرقندى .

الزبيدىّ المتوفَّى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ — ١٧٩١ م قال فى كتاب تاج العروس[١] الذى هو أوسع كتب اللغة العربيّة ألّفه بصفة شرح على القاموس للفيروزابادىّ[٢] : « (الأدب محرَّكة)[٣] الذى يتأدّب به الأديب من الناس سُمّى به لأنّه يؤدّب الناسَ إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا[٤] ناقلاً عن تقريرات شيوخه الأدبُ مَلَكة تعصِم من قامت به عمّا يَشِينه . وفى المصباح[٥] هو تعلُّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصارىّ[٦] الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل . ومثله فى التهذيب[٧] . وفى التوشيح هو استعمال ما يُحْمَد قولاً وفعلاً أو الأخْذُ أو الوقوفُ مع المستحسَنات أو تعظيمُ مَنْ فوقَك والرِفْق بمن دونك . ونقل الخَفاجىّ[٨] فى العناية عن الجواليقىّ[٩] فى شرح أدب الكاتب الأدبُ فى اللغة حُسْن الأخلاق وفعل المكارم وإطلاقُه على العلوم العربيّة مولَّد حدُث فى الإسلام . وقال ابن السِيد البَطَلْيَوْسىّ[١٠] الأدبُ أدب النفس والدرس . والأدب (الظَّرْف) بالفتح (وحُسْن التناول) وهذا القولُ شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنِّف » . ا هـ

---

(١) ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ — ١٤١٤ م .

(٣) ما بين القوسين هو متن القاموس .

(٤) و « شيخنا » يعنى أبا عبد الله محمد بن الطيّب الفاسى المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .

(٥) يعنى المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرئ الفيومى الذى قد تقدم ذكره .

(٦) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦

(٧) يعنى كتاب تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى الذى قد تقدم ذكره .

(٨) أحمد بن محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه « الشفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٩) توفى أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى سنة ٥٣٩ هـ — [وراجع شرحه على أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .

(١٠) ولد ابن السيد البطاليوسى سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيد فهو بكسر السين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة عدد ٣٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ٣٢٠ من الطبعات المصرية .

إنّ هذا النصّ على طوله ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلا وكيف تفرّعت منه المعانى المتعدّدة المشهورة التى ربّما لا تُرى بينها علاقةٌ بادئ نظر وذلك فضلاً عمّا فى شرح المؤلّف من الخَلَل والنقصان . فعلينا أن نستخرج من تأليفات العرب النظميّةِ والنثريةِ شواهدَ ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ أصلاً وفرْعاً ونوردها مرتّبةً ترتيباً تاريخيًا دون خَلْط القديم بالحديث لتجلوَ لنا حقيقةُ الأمر .

لا شكَّ فى أنَّ الأدب عند قدماءِ العرب إنّما كان السُّنَّةَ(١) أىْ طريقةَ العمل والتصرُّف التى سنّها (أىْ سار فيها) الأوائل فصارت مَسْلكاً لمن بعدهم أعنى جملة العوائد القديمة الواجبِ على الإنسان سيرُها على رأى عرب الجاهليّة . وأنتم تدرون انّ علم الأخلاق عندهم إنّما كان مراعاةَ سيرة أسلافهم فيما كانوا يفتخرون كما قال لبيدٌ فى معلّقته(٢) : (من بحر الكامل)

إنّا إذا التقتِ المجامعُ لم يَزَلْ ... منّا لِزازُ عظيمةٍ جَشّامُها
ومُقسّمٌ يُعْطِى العشيرةَ حقَّها ... ومُغَذْمِرٌ لحقوقِها هَضّامُها
من مَعْشرٍ سَنّتْ لهم آباؤهُمْ ... ولِكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

أو كما جاء فى شعر المتلمّس(٣) : (من بحر الطويل)

وقد كنْتَ ترجوأن أكونَ لعَقْبِكُمْ ... زَنيماً فما أُجرِرْتُ أنْ أتكلّما
لأُورِثَ بعدى سُنّةً يُقْتَدَى بها ... وأجْلُوَ عن ذى شُبْهَةٍ إن توهّما

(١) فى السنّة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de l'Arabie méridionale* Leiden 1901, II, p. 891-893; NOELDEKE, *Fünf mo'allaqât*, II, Wien 1900, p. 91-92; I. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, Halle 1888-1890, I p. 41; II p. 13.

(٢) لزاز الخشبة التى يشد بها الباب ولزاز عظيمة لازم لها موكل بها والجشام المتكلف للأمور القائم بها . مغذمر ؛ قال الأصمعى : المغذمر الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطى هذا . وقال أبو عبيدة هو الذى يُعصى ولا يُرد . هضام الهضام الذى ينقص قوماً ويُعطى قوماً بتدبير وقد وُثق به فى ذلك .

(٣) ديوان المتلمس المطبوع بليبسك سنة ١٩٠٣م عدد ١ بيت ١٥ — ١٦ وزنيم الملحق فى القوم ليس منهم . أجرَّ شق طرف لسان الفصيل أو الجدى لئلا يرتضع .

فعلى معنى السنَة والسيرة ورد لفظ الأدب فى قصيدة لسَهم بن حنظلة الغَنَوى[1] من الشعراء المخضرَمين الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام : (من بحر البسيط)

قد يعلمُ النـاسُ أنّى من خِيارِهِمُ ... فى الدِّين دِيناً وفى أحسابهم حَسَبَا

لا يمنع الناسُ منّي ما أردتُ ولا ... أُعْطِيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذا أَدَبَا

فظاهر أنّ الأدب هنا هو السيرة والطريقة .

وحيث انّ رُكْنَ التربية وتثقيفِ العقول كان عندهم تعليم سنَّة الأوائل أطلقوا الأدب والتأديب على حسْن الشِّيَم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب قول بعض الفَزاريّين رواه أبو تمّام الطائىّ فى حماسته[2] : (من بحر البسيط)

أُكْنِيهِ حين أُناديه لِأُكْرِمَهُ ... ولا أُلَقِّبُهُ والسَّـوْأَةَ اللَّقَبَا

كذاكَ أُدِّبْتُ حتى صار من خُلُقِى ... إنّى وجدتُ مِلاكَ الشِيمَةِ الأَدَبَا

(١) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت الثانى موجود أيضاً فى لسان العرب ج ١٦ ص ٢٦٩ .

(شرح البيتين) الدين السيرة . والحسب ما للانسان من الشرف والمجد بسبب كثرة آبائه المجيدين ومفاخرهم . وحسنَ من أفعال المدح أو الذم مثل حبَّ وبعدَ وسرُعَ ونعم وبئس ، واختلف اللغويون فى معنى البيت الأخير فهاكم ما جاء فى شرحه فى كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر ابن عمر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ھ ١٦٨٢ م بمصر (ج ١ ص ١٢٥) «قال التبريزى فى شرح إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيمنعهم ما يريدون منه ولا يمنعونه ما يريد منهم لعزته وجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبى محمد . وقال أبو العلاء فى معنى هذا البيت كأنه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم ويمنعهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وذا فاعل حسنَ وأدباً تمييز واراد حَسُنَ فخفف ونقل لأن هذا مذهب التعجب . وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن الناس يعطونه ويمنعهم ثم قال حسنَ ذا أدباً أى ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتهكم . انتهى» . اه

(٢) الحماسة ص ٥١٠ — ٥١١ من طبعة بُنّ ١٨٢٨ — ١٨٥١ أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق ١٢٩٦ .

(شرح البيتين) الألقاب أعلام تشعر بمدح شخص أو ذمه باعتبار معناها الأصلى فجاء فى القرآن الشريف فى سورة الحجرات : « ولا تَنابزُوا بالألقاب » . وفى شعر حريث بن عناب النبهانى من معاصرى الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط)

لا يَرتجى الجار خيراً فى بيوتهم ... ولا محالة من شَتْمٍ وألقاب

واختلفوا فى شرح « والسوأة » ومنهم من قال أنه مفعول مع اللقبا أى لا القبه اللقب مع السوأة ومنهم من قال أنه مفعول به كما يقال ما زلت وزيداً حتى فعل كذا أى ما زلت بزيد حتى فعل كذا ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد ولا القبه اللقب والسوأة . ومِلاك الأمر قوامه الذى يقوم به أى نظامه وعماده .

ومنه أيضاً قول امرأة من بنى هِزّان سُمّيت بأمّ الثواب فى ابن لها عقّها[1] :

(من بحر البسيط)

أنشأ يُمزّقُ أثوابى يؤدِّبُنى   أبَعْدَ شَيْبِىَ عندى يَبْتَغِى الأدَبَا

ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بنابغة بنى شَيْبان[2] من شعراء عصر الأمويّين : (من بحر البسيط)

إنّ الغلامَ مُطيعٌ من يُؤدِّبُهُ   ولا يُطيعُكَ ذو سِنٍّ لتأديبِ

ثمّ لضيق المعارف عند العرب القدماء (وتعلمون أنّ أغلبه العلم بسنّة آبائهم ومكارمهم ومفاخرهم) صارت كلمة الأدب عبارةً أيضاً عن المعرفة بشىء. والتأديبُ عبارةٌ عن الإخبار بشىء، والتعليم والأديبُ عبارةً عن المُخْبَر بأمر. ومن هذا الباب ما جاء فى الحديث النبوىّ[3] من قول علىّ بن أبى طالب حين سمع النبىّ يخاطب وفد بنى نَهْد «يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تُكلّمُ وفود العرب بما لا نفهمُ أكثرَهُ. فقال أدّبنى ربّى فأحسَنَ تأديبى ورُبِّيتُ فى بنى سَعْدٍ» .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العَبْدىّ رواه البُحْترىُّ فى حماسته[4] :

(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللّيالِى بُؤْسَها ونَعِيمَها   وحَنّكَنى صَرْفُ الزمان وأدّبَا

---

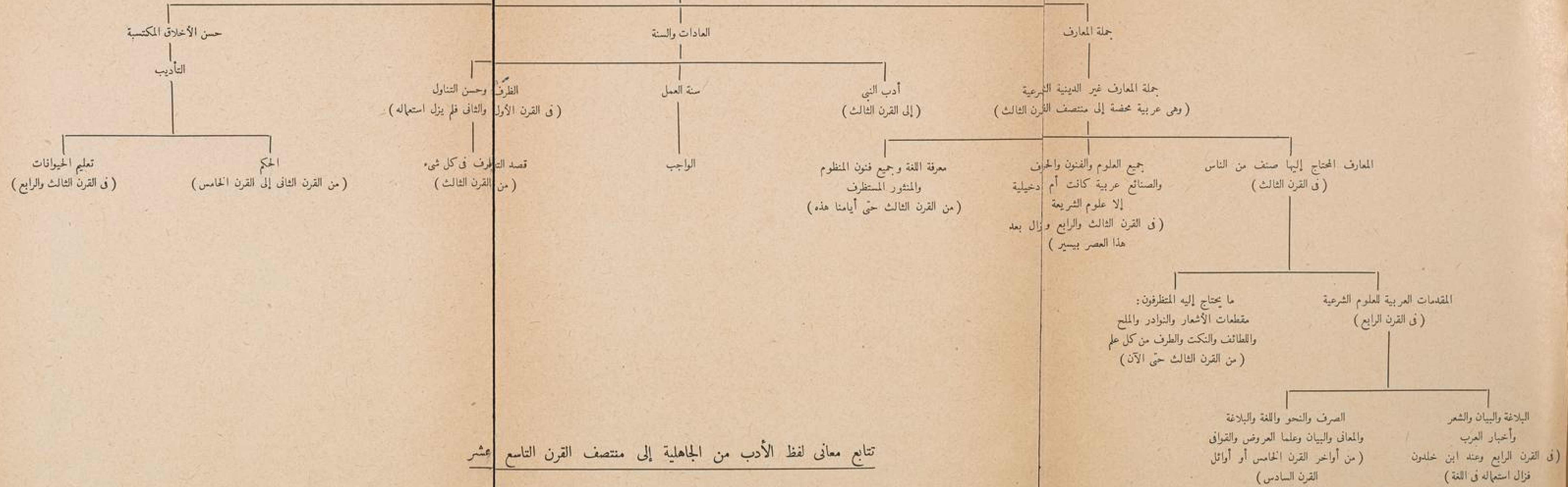
(١) كذا فى كتاب الحماسة لابى تمام ص ٣٥٦ من طبعة بُنّ أو ج ٢ ص ١٣٤ من طبعة بولاق. وفى الكامل للمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤

أنشأ يخرق أثوابى ويضربنى   أبعد ستين عندى تبتغى الأدبا

(٢) كتاب الحماسة للبحترى ص ٢٤٠ من طبعة ليدن [وديوان نابغة بنى شيبان ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٥١]

(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعه مصر ١٣١١ . وقال السيوطى فى كتابه الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ — ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧ بهامش الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى) ما نصه : «(حديث) أدبنى ربى فأحسن تأديبى أبو سعيد بن السمعانى فى أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والعسكرى فى الأمثال وابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال لا يصح وصححه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهرى عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك قال أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد انتهى»

(٤) الحماسة للبحترى ص ١٥٤ من طبعه ليدن — حنّكه هذّبه .



تتابع معانى لفظ الأدب من الجاهلية إلى منتصف القرن التاسع عشر



أى جعلنى ذا خِبْرة بالأمور . — ومنه قول أبى عَطاء أَفْلَح بن يسار السِّنْدىّ[١]
من شعراء أواخر الدولة الأمويّة : (من بحر الوافر)

إذا أرسلتَ فى أمرٍ رسولاً فأَفْهِمْهُ وأَرْسِلْهُ أديباً
وإن ضَيَّعْتَ ذاكَ فلا تَلُمْهُ على أن لم يكن عَلِمَ الغيوبَا

فجَلِىٌّ أنّ المرادَ بالأديب المُخْبَرُ بأمرٍ مخصوص .

هذه كانت معانى لفظ الأدب فى زمان الجاهليّة والقرن الأوّل للهجرة لا غير — فلسائل أن يسأل : ما لكلّ هذه الألفاظ والمعانى من العلاقة بسائر المفردات المشتقّة أيضاً من حروف أدب مثل الأَدْب وهو العَجَب والأُدْبة والمأْدُبة والمَأْدَبة التى هى طعامٌ صُنع لدعوة أو عِرْس ومثل أَدَبَ يأْدُبُ أَدْباً معناه عمِل مأْدُبة أو دعا فلاناً إلى الطعام ؟ إنّ علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم ذكره فى النصّ المنقول آنفاً من كتاب تاج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبى زكريّاء يحيى التبريزىّ فى شرحه على كتاب الحماسة لأبى تمّام[٢] : « والأدب اسم لما يفعله الإنسان فيتزيّن به فى الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنه » . وقال عبد القادر البغدادىّ فى كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ : « واشتقاقه من شيئين يجوز أن يكون من الأَدْب وهو العجب ومن الأَدْب مصدرِ قولك أَدُبَ فلانٌ القومَ يأدُبُهم إذا دعاهم قال طَرَفة[٣] : (من بحر الرمل)

نحن فى المَشْتاة ندْعُو الجَفَلَى لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .
(٢) الحماسة ص ٥١١ من طبعة بُنّ أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق .
(٣) البيت مروى فى الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (*The Divans of the six ancient Arabic poets* edited by Ahlwardt, p.62.) - الجفلى قال فى المصباح هى أن تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . انتقر اختار .

فإذا كان من الأدْب الذى هو العجب فكأنه الشىء الذى يُعْجَب منه لحُسْنه لأنّ صاحبه الرجل الذى يُعْجَب منه لفضله وإذا كان من الأدب الذى هو الدعاء فكأنه الشىء الذى يدعو الناس إلى المحامد والفضل فيَنْهاهم عن المقابح والجهل » .

بيْدَ أنّ هذا الاشتقاق ليس بعرىّ من الشكّ واللّبْس الشديد لما فيه من التكلُّف البعيد عن مقتضى قوانين نموّ اللغة الطبيعىّ وطريقةِ انتقال معانى المفردات إلى غيرها . ولكن إذا طلب أحدكم منّى إظهار رأيى فى حقيقة الأمر أجبتُ أنّى لا أستطيع إلاّ إبداء تخمين قد لمّح إليه عرضاً فى بعض تصانيفه الأستاذ فُلِرْس (Vollers)[1] المرحوم ناظر دار الكتب الخديويّة سابقاً . لا يخفى عليكم كثرةُ ورود لفظ الدَّأْب فى أشعار الجاهليّة وانّ معناه أى العادة والملازمة ليس بعيداً عن معنى السنّة والأدب . ومع أنّ جمعَهُ لا يُذْكَر فى كتب اللغة ليس من المحال أنّ العرب قد جمعوه على آداب أعنى على وزن أفْعال بتخفيف الهمزة ومدّ الألف الأولى كما يُجْمَع بِئْر على آبار وثَأْر على آثار ورَأْس على آرَاس ورَأْى على آراء . وحيث إنَّ حُسْن السيرة والأدب إنّما كان عند العرب بحفظ ما كانوا توارثوا عن أسْلافهم من العوائد المستحْسَنة لعلّهم استعملوا لفظ الآداب عبارةً عن تلك العوائد أى السنّة المحمودة . ثمّ على تمادى الزمان اشتقّوا من ذلك الجمع المتداولِ اصطلاحُهُ صيغة جديدة لمفرَدهِ أعنى الأدب كما اشتقّوا تَقِىَ والتُّقَى والتَّقْوَى من اتّقى أو تَخِذَ يَتْخَذُ تَخْذاً من اتّخذ أو تَلِهَ يَتْلَهُ تَلهاً (أى حار وذهِل) من اتْلَهَ وهلمّ جرًّا . فأصبح لفظا الأَدَب والأَدْب (أى الدعاء إلى الطعام) كأنّهما فرْعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقيّة بينهما كما اتّفق مثلاً للفظى الزّوْر والزُّور فأوّلها عربىّ محض معناه وَسَط الصدر وقوّة العَزْم والثانى فارسىّ الأصل معناه الكِذْب .

و إن التفتنا إلى ما سلِم من التّلَف ووصل إلينا من مصنَّفات القرن الثانى للهجرة

---

(١) انظر VOLLERS, *Katalog der islamischen... Handschriften der Universitäts Biblioth.*, Leipzig 1906, p.180 n. 1.

وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصوراً على طريقة التصرُّف لا سيّما المحمودة وحُسْنِ الأخلاق الناشيء عن حسن التربية والميل إلى المحامد ثمّ على المعارف سِوَى ما يتعلّق بالدين والشريعة الذى قد اختصّ به اسم العلم منذ أواسط القرن الأوّل . وممّا يدُلّ على ذلك كُتَيِّبٌ لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كليلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ — ٧٥٧ م وهو كتيِّبٌ فى الحِكَم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائرىّ فى مجلّة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثمّ طبعه مستقلاً فى المجموعة المسمّاة برسائل البلغاء (١) . وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بيك زكى (٢) إنّ عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : Le petit savoir faire ولكنى لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسيّة وحدّ ابن المقفّع موضوع كتيّبه هكذا (٣) : « قد وضعتُ فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجليةِ أبصارها وإحياء للتفكير وإقامةٌ للتدبير ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله » . فترون من هذا الكلام أنّ مراد المؤلّف جمْعُ حِكَم ونصائح وإنّ الأدبَ عنده قسم من علم الأخلاق العملىّ . فجاء فى ضِمْن كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصرُّف وخصوصاً الحسنة فقال مثلاً المؤلّف ص ٤ : « وعلى العاقل أن يُحْصِىَ على نفسه مَساوِئَها فى الدين وفى الرأى وفى الأخلاق وفى الآداب فيجمَع ذلك كلّه فى صدره أو فى كتاب » ، وقال ص ٧ : « قد يسعَى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيرًا أمّا الصالح فمدعوٌ وأمّا الطالح فمقتحمٌ وأمّا ذو الأدب فطالب وأمّا من لا أدب له فمختلِسٌ » .

---

(١) رسائل البلغاء ص ١ — ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ . فطبعه أيضاً أحمد باشا زكى فى سنة ١٣٢٩ هـ بالإسكندرية [ونقله الأستاذ Rescher إلى الألمانية سنة ١٩١٥] .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes*, Cairo 1910, p. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٣ من الطبعة المذكورة .

وفى ص ١٢ : « أمورٌ لا تصلح إلاّ بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحِفظ بغير عقل ولا شِدّة البَطْش بغير شدّة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحَسَب بغير أدب إلخ » .

وفى ص ١٥ : « لا يطمَعَنْ ذو الكِبْر فى حُسْن الثناء ولا الخَبُّ فى كثرة الصديق ولا السيّئ الأدب فى الشرف ولا الشحيح فى المَحْمَدة » وربّما جاء الأدب بمعنى حُسْن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفّع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نَزْراً أدب عظيمٌ » . وربّما جاء أيضاً الأدب بمعنى المعارف الدنيويّة فقال ص١٣ : « مَنْ حاوَلَ الأمور احتاج فيها إلى ستّ الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . وهنّ أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمُل الأدب إلاّ بالرأى ولا يكمُل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ » .

وفى ص ١٥ : « فضل العلم فى غير الدين مَهْلَكة وكثرة الأدب فى غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار » . وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد فى أوّل نفس الكتاب (ص ٢) : « فغايةُ الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمارة صحّة العقل اختيار الأمور بالبَصَر وتنفيذ البصر بالعَزْم . وللعقول سجيّات وغرائز بها تقبَل الأدبَ وبالأدب تَنْمِى العقول وتزكو . فكما أنّ الحبّة المدفونة فى الأرض لا تقدر على أن تخلَع يُبْسَها وتُظْهِرَ قوّتَها وتطلُع فوق الأرض بزُهْرتها ونَضْرتها ورَيْعها ونمائها إلاّ بمعونة الماء الذى يغور إليها فى مستودَعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويُحْدِث لها بإذن الله القوّةُ والحياة فكذلك سليقة[1] العقل مكنونة فى مغرِزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتّى يعتملها الأدب الذى هو نماؤها وحياتها ولقاحها . وجُلُّ الأدب بالمنطق وكلّ المنطق بالتعلّم ليس منه حرفٌ من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلاّ وهو مروىّ متعلّم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب » . اهـ فيلوح أنّ المراد هنا بالأدب هى المعارف على الإطلاق .

---

(١) سليقة طبيعة .

وكذلك لا يخرج عن العُرْف اللغوىّ القديم استعمالُ لفظ الأدب فى عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة[١] لأبى تمّام المتوفَّى سنة ٢٢٨ هـ على أصحّ الأقوال فإنّ ذلك الباب يتضمّن الأشعار فى الحِكَم وفى الأخلاق المحمودة من حياء وعفّة وإغضاء عن الفَحْشاء وحُسْن معاملة الناس ومسامحة الأخلّاء وهلمّ جرًّا ليكون ذلك كلُّهُ هدايةً للناس فى سيرتهم . — وأنتم تعلمون أنّ الإمام أبا عبد الله البخارىّ المتوفَّى سنة ٢٥٦ هـ — ٨٧٠ م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح[٢] لعلم الأخلاق العملىّ وقوانين الأُنْس فإنّ مدار الأحاديث النبويّة المجموعة فى ذلك الكتاب إنّما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرِفْق فى كلّ الأمور ورحمة الناس بالبهائم وتعاون المؤمنين بعضِهم بعضاً وحُسْن الخُلُق والسخاء وما يُكْرَهُ من البُخْل وما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب وما يُكرَه من التمادح والنهى عن التحاسد والتدابر والصبر على الأذى والتبسُّم والضَّحْك والإخاء والحِلْف والزيارة والحياء والحَذَر من الغضب والضَيْف وما يُستحَبُّ من العُطاس وما يُكرَه من التثاؤب وما يُشْبِه ذلك . — وكذلك كتاب الأدب لابن المعتزّ الشاعر الشهير المتوفَّى سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م لا يشتمل إلّا على الحِكَم فى الأخلاق . — ولكنّى لا أريد الإطناب فى سَرْد النصوص والشواهد على ذلك لأنّ استعمال كلمة الأدب بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأُنْس والتصرُّف معروفٌ لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ، وهو المسمَّى عند بعض الكُتّاب بأدب النفس .

أمّا فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث ابتدأت تتفرّع من تلك المعانى الأصليّة معانٍ جديدة على طريق الإطلاق والحصر مع بقاء القديمة فى عُرْف الناس . وكان سببَ ذلك فضلاً عن نموّ اللغة الطبيعىّ ما حصل للعرب من الرُّقىّ فى سبيل التمدن

---

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ — ٥٣٧ من طبعة بُنّ أو ج ٣ ص ٧٥ — ١١٢ من طبعة بولاق

(٢) صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٩ — ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أو ج ٤ ص ١٠٨ — ١٦٥ من طبعة ليدن .

والتغيّر فى حضارتهم والتجدّد فى أحوال حياتهم والتقلّب فى سياستهم منذ اتّسعت مملكتُهم وامتدّ سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الذين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلّبين عليهم وأثّروا فى عمرانهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيّما بعد ما قويت شوكة بنى العبّاس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ — ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة فى وسط تلك الأراضى العراقيّة التى قد أدرك فيها التمدُّنُ الفارسىُّ الساسانىّ أَوْجَ عزّته ورَوْنقه . فنالت أشراف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العبّاسيّين حتّى كاد لا يُستَوْزَر إلّا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أنّ العرب أحياناً عبّروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيويّة القليلة . وحُفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلى منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها ما نصّه[1] : « واعلم يا أخى بأنّ العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس فمنها الرياضيّة ومنها الشرعيّة الوضعيّة ومنها الفلسفيّة الحقيقيّة . فالرياضيّة هى علم الآداب التى وُضع أكثرُها لطلب المعاش وصلاح أمر الحيوة الدنيا وهى تسعة أنواع أوّلها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزَّجر والفأل وما يشاكله ومنها علم السِّحْر والعزائم والكيمياء والحِيَل وما يشاكلها ومنها علم الحِرَف والصنائع ومنها علم البيع والشِّرى والتجارات أو الحَرْث والنَّسْل ومنها علم السِيَر والأخبار » . — فليس هذا بعيداً عن قول الوزير المشهور الحسن بن سَهْل المتوفّى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ — ٨٥١ م .

---

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثانى من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ — ١٩ من طبعة بمبىء سنة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجد فى أول باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة وذلك لظنهم أن تلك الحكاية مثل ضرب فى احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متبصرين بأمر الدين علماء بحقائق طريق الأمور لننجو من الورطة التى وقعنا فيها كلنا بجناية أبينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فمثلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا فى آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصارى منه إلى الدين الإسلامى .

قال : الآداب عشرة فثلاثةٌ شهرجانيّة وثلاثةٌ أنوشَرْوانيّة وثلاثة عربيّة وواحدة أَرْبَتْ عليهنّ . فأمّا الشهرجانيّة[١] فضرب العُود ولِعْب الشطرنج ولعب الصوالج . وأمّا النوشروانيّة[٢] فالطبّ والهندسة والفروسيّة . وأمّا العربيّة فالشعر والنّسب وأيّام الناس وأمّا الواحدة التي أربت عليهنّ فمقطّعات الحديث والسَّمَر وما يتلقّاه الناس بينهم فى المجالس[٣] » . فظاهر أنّه أراد بالآداب جميع الفنون غير الدينيّة وكلّ ما كان يصلُح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .

وفى نفس ذلك القرن الثالث ربّما حصروا الأدب (بمعنى المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) فى ما تجب معرفته على طبقة مخصوصة من الناس . فألّف ابن قتيبة الدِّينَوَرىّ اللغوىّ والمؤرّخ والمتأدّب الشهير المتوفّى سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سمّاه أدب الكاتب أو أدب الكتّاب جمع فيه ما لا غِنًى عنه لكلّ كاتب ماهر من العلوم اللغويّة وصنّف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاجم المتوفّى فى حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نُكَتٍ وأبياتٍ ونوادر

---

(١) الشهارجة أو الشهاريج هم من أشراف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذى كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهامش العقد الفريد لابن عبد ربه [أو ج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيتى العلوى (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذى الرئاستين وهو أبو العباس الفضل ابن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيتى فى كتابه مواسم الأدب وآثار العجم والعرب ج ١ ص ٢ — ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفى سلاسل الذهب للعلامة أمين صفر المدنى قال العلامة جار الله الزمخشرى كان ذو الرئاستين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصوالج (فى الطبعة بالصولج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (فى الطبعة شهرخانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهى السمر أراد المحاضرة . ا هـ . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهانى (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فمعنى الأدب هذا (أعنى جملة العلوم والفنون والصنائع والألعاب التى يتميز الإنسان بمعرفتها من سفلة الناس) فارسى تماما فليراجع كتاب المعلمين للجاحظ فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

يليق حفظها وروايتها فى المنادمة ترويحاً للنفوس. ومن ألف كتباً فى أدب الوزراء دوّن فيها النصائح المفيدة للوزير فى فروع الحكمة العمليّة والسياسية. ومن ألف التصانيف المترجمة بأدب القاضى شرح فيها قوانين القضاء الشرعىّ.

قد سبق أنّ الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السُّنّة الحيدة. وفى أواخر القرن الثالث أُطلق هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالةً على المنهج الواجب سلوكه فى فنّ من الفنون والعلوم أو فى عمل من الأعمال. ففى كتاب العِقد الفريد لابن عبد ربّه المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً فى آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب فى الحديث والاستماع أو الأدب فى المجالسة أو الأدب فى الماشاة وهلمّ جرّا. ودوّن الإمام الغزالىّ المتوفّى سنة ٥٠٥ هـ — ١١١١ م فى كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الأُلفة والأخوّة والصُّحْبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والوجد وغير ذلك مما يطول نقله هنا. وألّف محمّد بن علىّ بن طَبَاطَبا المعروف بابن الطِقْطَقى كتاباً فى التاريخ سمّاه كتاب الفخرىّ فى الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة[1] وقال[2] إنّه « إنّما هو موضوعٌ للسياسات والآداب التى يُنتَفَع بها فى الحوادث الواقعة والوقائع الحادثة وفى سياسة الرعيّة وتحصين المملكة وفى إصلاح الأخلاق والسيرة ». وكثيراً ما صنّفوا مصنّفات فى آداب الدرس أى فى طريقة التعليم والتعلم. وكلّكم تدرون أنّ آداب المريدين هى مناهج طالب الترقى فى مدارج الطرق الصوفيّة وأنّ آداب البحث هى قوانين المناظرة يسوغ للمتناظرَيْن مراعاتها فى الردّ والقبول

فلْننتقلْ إلى بيان أصل سائر معانى الأدب. إنّ التَّرَف والرَّفْه والنعيم واتّساع الأحوال قد بلغت غايتها فى مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد فى أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصْفَهَ ابن خلدون حيث قال

(١) ألف ابن الطقطق كتابه فى سنة ٧٠١ هـ ١٣٠١ م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم عامل موصل.

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريفزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨.

فى مقدّمته الشهيرة[١] « إنّ الأمّة إذا تغلّبتْ وملكتْ ما بأيدى أهل المُلك قبلَها كثُر رياشُها ونعمتُها فتكثُر عوائدُهم ويتجاوَزون ضروراتِ العَيْش وخشونتَهُ إلى نوافله ورِقّته وزِينته ويذهَبون إلى اتّباع مَنْ قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائدُ ضروريّةٌ فى تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رِقّة الأحوال فى المطاعم والملابس والفُرُش والآنية ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرَهُم من الأمم فى أكل الطيّب ولُبْس الأنيق وركوب الفاره[٢] ... وعلى قدر مُلْكهم يكون حظُّهم من ذلك وترَفهم فيه إلى أن يبلُغوا من ذلك الغاية » . ا هـ . ومَنْ طالع كتاب الأغانى لأبى الفرج علىّ الإصفهانىّ المتوفّى سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م وكتاب مروج الذهب للمسعودىّ المتوفّى سنة ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفّح دواوين شعراء ذلك العصر عرَف إفراط شغف الناس بالمجالسة والمنادمة والمحادثة على الشراب فى أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومَنْ تبعهم من الخلفاء وتَلقّنَ قَدْرَ ما بلغهُ حينئذ قَصْدُ الأناقة فى كلّ شىء وفِعْلٍ والتفنُّنِ فى جميع المعارف المستظرَفة حتّى أنّ غاية التربية فى بعض طبقات الناس إنّما كان الظَّرْفَ فى اللُّبْس والتصرُّف ورِشاقةَ الكلام ورِقّةَ المعانى وحسْن الاستئناس . وإن أردتم الوقوف التامّ على كُنْه أولئك المتظرّفين راجعوا كتاب الموشّى[٣] لأبى الطيّب محمّد بن إسحاق بن يحيى الأعرابىّ المعروف بالوشّاء المتوفّى سنة ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م توصَف فيه سُنَنُ الظرف بتفصيل فتجدون فيه أبواباً فى ذكر زِىّ الظرفاء فى اللباس المستحسَن عند سَرَوات الناس وفى زى الظّراف فى التِكَك والنّعال والخِفاف وفى زِيّهم المخصوص فى الخواتم والفصوص وفى زِيّهم فى التعطّر والطيب الذى من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة الفرنسية لدى سلان (De Slane) .

(٢) الفاره الحصان الجارى المليح .

(٣) طبع بليدن سنة ١٨٨٧ وبمصر سنة ١٣٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

خالقَهُ كان غير مصيب وفى ذكر زىّ الظرفاء فى الطعام الذى بانوا به من منزلة اللئام وفى ذكر زيّهم فى الشراب الذى يتخيّره ذوو الألباب وفى ذكر الأشياء التى يتطيّر الظرفاء من إهدائها و يرغبون عنها لشناعة أسمائها وفيما اختير من ألفاظ الأدباء فى المكاتبات واسْتُحْسِنَ من الظرفاء من مليح المعاتبات وفيما ضمّنوه كتبَهم من الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والخِطار وفيما ضمّنوه كتبَهم من السلام وجعلوه تلواً للشعر والنظام وهلمّ جرًّا .

فإذًا لا غَرْوى أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدِل عن معنى محض الأخلاق المحمودة الحاصلة من حسْن تربية النفوس حتّى صار عبارةً عن كلّ ما وجب مراعاتُهُ ومعرفته والتحلّى به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء وتعمّد جميع أنواع التظرّف فى أعماله وأفكاره وحديثه . فلذلك لا فَرْقَ فى كتاب الموشّى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول إنّ المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهارَ الأخلاق المُرْضِية للجلساء والظرفَ والأناقة فى اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأُنْسَ والفصاحةَ وعذوبةَ الكلام ثمّ حفظَ الأبيات والنكت مع أخْذ شىء من كلّ علم لتوشية الحديث به . فهذا أعنى الأخلاقَ الحميدةَ والتظرّف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً فى كتاب العِقْد الفريد لأحمد بن عبد ربّه الأندلسىّ المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه وخصوصاً من الباب فى آداب الحكماء والعلماء[1] .

ومن هذا المعنى المُحْدَث العامّ تفرّع معْنيَانِ خاصّانِ مطابقةً لاختصاص أميال بعض المتظرّفين بنوع معيّن من الظرف . فإنّ الذين مالوا إلى ما يَلَذُّ للعقول وفضّلوه

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف الطبعات الأخرى فانظر : Mohammad Shafiᶜ, *Analytical Indices to the Kitāb al-ʿIkd al-farīd*, Calcutta 1935] . — أما لفظ الأدب فى « فصول فى الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٨٩ — ١٩١) وفى « فصول لعمرو بن بحر الجاحظ فى الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٩١) فمعناه الحكم .

على غيره رأوا غاية الظرف فى حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدّث بالمُلَح والنوادر والأخبار وتذاكُر القصص والأشعار على ما تجرُّ المحادثةُ من شجون الكلام وذلك مع كراهة كلّ إطناب مُملّ . فإنّ الإسآم كان عندهم من شرّ العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه فى تأليفات القرن الثالث والرابع . ورُوى مثلاً عن الأشجع السُلَمىّ الشاعر فى أيام هارون الرشيد أنّ أَنَس بن أبى شَيْخٍ النصرىَّ صاحبَ الوزير جعفر بن يحيى لمّا عاشره أوّلَ مرّة طلب منه إنشاد بعض شعره . « قال الأشجع فأنشدته فقال إنّك لشاعرٌ فما يمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لى بجعفر بن يحيى فقال أنا فقُلْ أبياتاً ولا تُطِلْ فإنه يُمِلّ الإطالةُ . فقلتُ لستُ بصاحب إطالة فقلت أبياتاً على نحو ما رسم لى »[١] . — وفى الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودىّ[٢] ما نصّهُ : « وقد ذكر بعض المحدّثين من أهل الأدب أنّ من الأدب عدمَ إطالة الحديث من النديم وأنّ أحلى لحديثه وأحسنَ لموقعِهِ أنْ يجتنب منه الأحاديثَ الطوالَ ذات المعانى المغلغلة[٣] والألفاظِ الحشويّة التى افْتنّ باقتصاصِها سُمّارُ المجلس وتتعلّق بها النفوسُ وتُحْتَسَى[٤] على أواخرها الكؤوس فإنّ ذلك بمجالس القُصّاص أشبهُ منه بمجالس الخواصّ وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله بن المعْتزّ ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة[٥] فقال[٦] : (من بحر الخفيف) :

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٣٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ وراجع A. MEZ, *Abulkâsim*, Heidelberg 1902, p. VIII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودى فى الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ من طبعة باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المغلغلة المحمولة من بلد إلى بلد .

(٤) حسا يحسو واحتسى شربه شيئاً بعد شىء .

(٥) عاقر الخمر أدمن شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس فى الشراب والخمريات) من طبعة مصر سنة ١٨٩١ .

بين أقداحهم حديث قصير هو سِحْرٌ وما سِواه كلامُ
وكأنّ السقاة بين الندامى ألِفاتٌ على سطورٍ قيام »

فلتفنُّنهم فى المعارف المستظرَفة المقرونِ بالخوف الشديد من المَلَل اشتهر فى عُرْفهم أنّ علم الأدب عبارة عن المُلَح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر والأبيات الرقيقة والتواريخ وذكر الشىء بالشىء بالاستطراد أو بالمناسبة مع مراعاة مقتضى الحال . فقيل إنّ « الفرق بين الأديب والعالم أنّ الأديب من يأخذ من كلّ شىء أحسنَهُ فيا لَفه والعالمُ من يقصِد لفنّ من العلم فيعتلمهُ »[١]. وقال شاعر[٢] (من بحر الطويل)

أرى العلمَ نوراً والتأدُّبَ حِلْيةً فخذ منهما فى رغبة بنصيب
وليس يتمّ العلمُ فى الناس للفتى إذا لم يكن فى علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب أُلِّفَ فى فنّ الأدب بهذا المعنى الخاصّ أعنى فى جمع مقطّعات الأشعار وطُرَف الأخبار وغرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب . وأوّل من سلك هذا المنهج فى التأليف وصار أُنموذجاً فى ذلك للمتأخّرين هو أبو عثمان عَمْرو بن بحر الجاحظ المتوفّى سنة ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م فإنّه فى مصنّفاته النفيسة الشهيرة يهيم فى كلّ وادٍ ويجمع بين المنظوم والمنثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير ترتيب واضح مخافةً من ملل القارئ . ومن الغريب أنّ المسعودىّ[٣] قال إنّه نظم تصانيفه أحسن نظم . — ومن أحسن بيان لمادّة التأليفات من ذلك الفنّ ما قال أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصْرىّ القيروانىّ المتوفّى سنة ٤١٣ وقيل ٤٥٣ فى وصف موضوع كتابه المسمّى بزَهْر الآداب وثَمَر الألباب[٤] : « هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية

---

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بعناية الأستاذ مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٣١] فى النسخة الخطية : فيعتله وهو غلط فأقراه : فيعتمله فقرأ الأستاذ مرجليوث : فيتقنه .

(٢) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب فى الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٣٤ من الطبعة البارسية المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ — ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أو ج ١ ص ١ — ٣ من طبعة سنة ١٩٢٥] .

من البلاغات فى الشعر والخبر والفصول والفِقَر ممّا حسُن لفظه ومعناه واستدلّ بفحواه عن مغزاه ولم يكن شارداً حُوشيًّا ولا ساقطاً سُوقياً بل كان جميعُ ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البُحْترىّ[١] :

فى نظامٍ من البلاغة ما شـ ـكّ امرؤٌ أنه نظامُ فريدِ
حُزن مستعمل الكلام اختياراً وتَجَنَّبْن ظلمـــة التعقيد
ورِكبْن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

ولم أذهَبْ فى هذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار . . . وهو كتاب يتصرّف الناظر فيه من نثره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفاخرته ومناقلته إلى مساجلته[٢] وخطابه المُبهِت إلى جوابه المُسْكِت وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة . . . وكان السبب الذى دعانى إلى تأليفه و تدّينى إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبى الفضل العبّاس بن سليمان أطال الله مدّته وأدام نعمته فى الأدب وإنفاق عمرِه فى الطلب ومالِهِ فى الكتب وإن اجتهاده فى ذلك حمله على أن أرتحل إلى المشرق بسبَبها وأغمض فى طلبها باذلاً فى ذلك مالَهُ مستعذباً فيه تَعَبه إلى أن أوْرد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألنى أن أجمع له من مختارها كتاباً يكتفى به عن جملتها وأُضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قارَبه وقارنه وشابهه وماثله فسارعت إلى مراده وأعَنْته على اجتهاده وألَّفْت له هذا الكتاب ليستغنى به عن جميع كتب الآداب إذ كان موشَّحاً من بديع البديع[٣] ولآلى

---

(١) انظر ديوان البحترى ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص ٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١ ومدح البحترى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) فى هـذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات . الأبيات مروية أيضاً فى إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخران مرويان فى كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) مساجلته وساجله فاخره وعارضه .

(٣) يعنى بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذانى المولود سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفنى فى القرن الرابع لزكى مبارك ج ٢ ص ٣٢٥ إلى ٣٥٦] .

الميكالى[١] وشَهِىّ الخوارزمى[٢] وغرائب الصاحب[٣] ونفيس قابوس[٤] وشذور أبى منصور[٥] » . — وهذا النوع من الأدب أى أَخْذ شىء مستظرفٍ وطرائف وغرائب من كلّ فنّ لا سيّما من مقطَّعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود فى أكثر ما جاء فى مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته فى عدّة تأليفات مشهورة مثل كتاب العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمّد البَيْهَقى[٦] من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب[٧] لياقوت الحموى المتوفّى سنة ٦٢٦/١٢٢٩ وشرح أبى العبّاس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى[٨] المتوفّى سنة ٦١٩/١٢٢٢ على المقامات الحريريّة وكتب أخرى يطول سَرْد أسمائها .

أمّا المعنى الخاصّ الثانى الملمّح إليه فيما تقدّم فأصله عند قوم من الظرفاء فضّلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابيّة المستظرفة لا على مجرّد المقطَّعات منها ولفظ الأديب على من يُحْسِن العربيّة ويتعاطى صناعتى النظم والنثر . وابتدأ استعمال كلمة الأدب

---

(١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع النثر الفنى المذكور آنفا ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٤] .

(٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ولد سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٥ م ومات سنة ٣٨٣ هـ ٩٩٣ م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفنى المذكور سابقا ج ٢ ص ٢٥٩ إلى ٢٧٦] .

(٣) يعنى الصاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٥ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٤٣ — ٢٥٨] .

(٤) وهو شمس المعالى قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٨٩] .

(٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ ١٠٣٨ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٩٠] .

(٦) راجع كتاب المحاسن ج ١ ص ٢٠١ و ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ من طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٦ م (وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ — ٩٢) .

(٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ — ٢٧ من الطبعة الليدنية .

(٨) شرح المقامات الحريرية للشريشى فى آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من طبعة مصر ١٣٠٦) .

هذا فى نفس النصف الأوّل من القرن الثالث حسبما يتّضح من جملة من النصوص . منها قول الجاحظ[1] المتوفّى سنة ٢٥٥/٨٦٩ : « طلبت علم الشعر عند الأَصْمَعىّ فوجدته لا يُحْسِن إلاّ غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يُتْقِن إلاّ إعرابه فعطفْتُ إلى أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتّصل بالأخبار وتعلّق بالأيّام والأنساب فلم أظفَرْ بما أردت إلاّ عند أدباء الكُتّاب كالحسن بن وهب ومحمّد بن عبد الملك الزيّات » . فجلىٌّ أنّ الأدباء هنا هم الذين تُسَمُّوْنَ بالفرنسيّة gens de lettres أو lettrés . وقال الجاحظ[2] أيضاً فى موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه فقال والله ما هو بغريب ولكنّكم فى الأدب غرباء » فظاهر أنّ الأدب هنا صناعتى النظم والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالآداب فى قول المبرّد المتوفّى سنة ٢٨٥ فى خطبة كتابه الموسوم بالكامل فى اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٤ : « هذا كتاب ألَّفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومَثَل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب الآداب هى جميع التصانيف المستظرفة نظماً ونثراً كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفنّ فى إحدى رسائل أبى بكر الخوارزمى[3] المتوفّى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذَكَرَ السيّدُ أنّه كتب جواب كتابى من وقت الظُّهْر إلى وقت العصر . ولقد استبطأته مع ما أعرفه من بُعْد غوْره وغَزارة بحره . ولكنّى أغلقت لهذا الجواب بابى وأرخيت له حجابى وضَمَمْتُ إلى نشر كتب آدابى وجلست من الدواوين بين آل الجرّاح[4]

(١) المروى فى العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروى فى عمدة ابن رشيق ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٣٠ — ٣٦ من طبعة قسطنطنية سنة ١٢٩٧ ولكن فى هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

(٤) يشير بآل الجراح إلى داود بن الجراح الذى عاش فى أيام المستعين ٢٤٨/٨٦٢ — ٢٥١/٨٦٦ وابنه محمد وحفيده على بن عيسى وابنى حفيده عيسى ابن على وعبد الله بن على فكلهم من الأدباء والمؤرخين فراجع فهرست ابن النديم ص١٢٨—١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .

وآل ثوابة[١] وبين بنى الخصيب وبنى مقلة[٢] ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شدّاد[٣] وحشرت من الآخرة ابن المقفّع البصرىّ[٤] وسهل بن هارون الفارسىّ[٥] وابن عبدان المصرىّ والحسن بن وهب الحارثىّ وأحمد بن يوسف المامونىّ[٦] ووضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان وعن يسارى كتاب التبيين والبيان[٧] وبين يدىّ فصول بزدجمهر بن البختكان[٨] وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب[٩] عين الزمان وزَيْن الشيْب والشُبّان فما زلت أسرق من هذا كِلْمة وأطرّ من ذاك فِقْرة واستعير من هناك نادرةً وثيقة أغصِبُ الأحياءَ على بيانهم وأنبُشُ الموتى من أكفانهم » — وعلى مثل ذلك يستعمل ياقوت فى كتاب إرشاد الأريب لفظَ الأدباء لتعريف الذين يعتنون بفَنَّىْ النظم والنثر لا غير. وهذا المعنى لم يزل فى عرف الناطقين بالضاد إلى أيّامنا .

ولننتقل إلى بيان معنى آخر أصله فى قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة

---

(١) أما آل ثوابة فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس المتوفى سنة ٢٧٧ وابنه أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠) .

(٢) ومن بنى مقلة الوزير الكاتب أبو على محمد بن على ابن مقلة الذى ولد سنة ٢٧٢ ومات سنة ٣٢٨ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٦٦٩ من الطبعات المصرية) وأخوه أبو عبد الله القاسم الذى ولد سنة ٢٧٨ وتوفى سنة ٣٣٠ (انظر كتاب الفهرست ص ٩ والإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٢) .

(٣) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ وكان وزير المأمون وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .

(٤) يعنى عبد الله بن المقفع المشهور الذى أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م .

(٥) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ [انظر الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .

(٦) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ وتولى ديوان رسائل المأمون فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ — ١٧١] .

(٧) وهو كتاب مشهور للجاحظ .

(٨) انظر ما قلت فيه فى كتابى علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى (روما ١٩١١) ص ١٩٠ — ١٩٦

(٩) يعنى الصاحب بن عباد الذى قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٣٠) .

ورأوا من موجَباتها التدقيق فى معرفة أسرار العربيّة لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغويّة أو لشرح الغريب الوارد فى الأحاديث النبويّة فجعلوا الاستقصاءَ فى جميع أنواع العلوم المتعلّقة باللغة والشواهد الشعريّة جلّ المعارف الدنيويّة بل توطئة لكل العلوم الشرعيّة . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزالىّ المتوفى سنة ٥٠٥/١١١١ فى كتاب إحياء علوم الدين[١] إنّ العلوم الشرعيّة تنقسم إلى أربعة أضرُب الأول منها أُصول الفقه والثانى فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع المتمّمات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : « والضرب الثالث المقدّمات وهى التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنّهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلعم . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعيّة فى أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلاّ بلغة فيصير تعلُّم تلك اللغة آلةً » . فإذًا لا غروى أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيويّة فى علوم اللغة العربيّة حصروا فيها الأدب الذى — كما مرّ بيانُهُ فيما سبق — قد أُطلِقَ اسمُهُ أحياناً على جملة المعارف غير الدينيّة الشرعيّة . إلاّ أنّهم سلكوا فى هذا الحَصْر طريقين مختلفين فمنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناءُ بالأشعار القديمة والتأليفات والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصُّل إلى المعرفة التامّة بدقّة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصْد النزهة أو مجرّد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب فى كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ المحدّث أبى حاتم محمّد بن حِبّان البُستىّ المتوفى سنة ٣٥٤ الذى أفرد فيه باباً للحثّ على تعلّم الأدب ولزوم الفصاحة[٢] . وعلى مثاله ما قال عبد الله

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ — ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وفى آخرها ١٣٠٣) وراجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة ليدن ١٩٠٤ م والمفصل للزمخشرى ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص ١٩٥ — ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

بن محمّد المعروف بابن السِّيد البَطَلْيَوْسيّ المتوفى سنة ٥٢١/١١٢٧ فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكُتّاب ص ١٤ — ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : « إنّ الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثانى الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصُل للمتأدّب بالنظر فى الأدب والتمهّر فيه قوّةٌ يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصُل للمتأدّب قوّةٌ على فهم كتاب الله تعالى وكلامِ رسوله صلعم وصحابته ويعلمَ كيف تُبْنَى الألفاظُ الواردة فى القرآن والحديث بعضُها على بعض حتّى تُسْتَنْبَطَ منها الأحكامُ وتُفَرَّعُ الفروع وتنتج النتائج وتُقْرَن القرائن على ما تقتضيه مبانى كلام العرب ومَجازاتِه كما يفعَل أصحابُ الأُصول . وفى الأدب لمن حصل فى هذه المرتبة منه أعظم معونة على فَهْم علم الكلام وكثير من العلوم النظريّة . فقد زهد الناسُ فى علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتّى ظنّ المتأدّبُ أنّ أقصى غاياته أن يقول أبياتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنه باطلٌ يُجْلَى فى معرَضِ حقّ وكذبٌ يُصوَّر بصورةِ صدق . وهذا الذمّ إنّما يتعلّق بمن ظنّ صناعة الشعر غايةَ الفضل وأفضلَ حُلَى أهل النُبْل . فأمّا من كان الشعر بعضَ حُلاه وكان له فضائلُ سواه ولم يتّخذه مكسباً وصناعةً ولم يَرْضِهِ لنفسه حِرْفةً وبِضاعةً فإنّه زائد فى جلالة قدره ونباهة ذكره » . ثم قال : « وحدُّ المنطق كتاب يتّخذه المتفلسفون مقدّمة للعلوم الفلسفيّة كما يتّخذ المتأدّبون صناعة النحو مقدّمة للعلوم الأدبية » . — وحدُّ علم الأدب (أو الآداب) بهذا المعنى ومرتبتُه فى مراتب العلوم حدّهما ابن خلدون فى مقدّمته بغاية الوضوح فقال فى موضع [1] إنّ « النظر فى القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدّمهُ العلومُ اللسانيّة لأنه متوقّف عليها وهى أصنافٌ فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب » . وقال فى موضع آخر [2] إنّ علم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٤٣٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٣ من الترجمة الفرنسية لدى سلان .

(٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة الفرنسية .

اللسان العربيّ « أركانُه أربعة وهى اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضروريّة على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعيّة كلّها من الكتاب والسنّة وهى بلغة العرب وَنَقَلَتُها من الصحابة والتابعين عربٌ وشرحُ مشكلاتها من لغتهم فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » . وفى موضع ثالث أتى بتعريف علم الأدب فقال[١] : « هذا العلم لا موضوع له يُنظَر فى إثبات عوارضه أو نفيها . وإنّما المقصود منه عند أهل اللسان ثَمَرَتُهُ وهى الإجادة فى فنّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم[٢] فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصُلُ به الكلمةُ من شعرٍ عالى الطبقةِ وسَجْعٍ متساوٍ فى الإجادة ومسائلَ من اللغة والنحو مبثوثةٍ أثناء ذلك متفرّقةٍ يستقرِى منها الناظرِ فى الغالب مُعْظَمَ قوانينِ العربيّة مع ذكر بعضٍ من أيّام العرب يَفْهَم به ما يقع فى أشعارهم منها وكذلك ذكر المُهِمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة . . . . . ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : الأدبُ هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأَخْذ من كلّ علم بطَرَفٍ . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعيّة من حيث متونُها فقط إذ لا مدْخلَ لغيرِ ذلك من العلوم فى كلام العرب إلاّ ما ذهب إليه المتأخّرون عند كَلَفِهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسُّلهم بالاصطلاحات العلميّة فاحتاج صاحبُ هذا الفنّ حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفنّ وأركانَهُ أربعةُ دواوين وهى أدب الكُتّاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى علىّ القالىّ البغدادىّ » . اهـ

أمّا المسلك الثانى فى حَصْر علم الأدب فى علوم اللغة العربيّة هو مسلك الذين عنوْا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعانى والبيان مع ما يتّصل بها من علمى القوافى

(١) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٢٨ إلى ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

(٢) المنحاة المسيل المتوى .

والعروض وكلّ ذلك خلافاً لما نقلتهُ عن ابن السّيد البطليوسيّ وابن خلدون . والمحتمل عندى أنّ هذا المعنى الخاصّ لم يتولّد إلاّ نحو انقضاء القرن الخامس فإنّى ما عثرتُ عليه فيما صُنّف قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أنّ أبا البركات عبد الرحمن بن محمّد الأنبارىّ المتوفّى سنة $\frac{٥٧٧}{١١٨١}$ ألّف كتاباً جيّداً سمّاه بنزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء فإن راجعتموه وجدتم أنّه لم يذكر فيه إلاّ اللغويّين والنحويّين . فقال ابن خَلِّكان[1] المتوفّى سنة $\frac{٦٨١}{١٢٨٢}$ فى ترجمة أبى زكرياء يحيى التبريزىّ : « كانت له معرفة تامّة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما . . . . . وصنّف فى الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبّى وكتاب شرح سِقْط الزند . . . وشرح المعلّقات السبع وشرح المفضّليّات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله فى النحو مقدّمات حسنة إلخ » . فيتّضح من هذا الكلام أن علم الأدب عند ابن خلّكان كالأدب عند أبى البركات ابن الأنبارىّ المذكور وعند أبى يعقوب يوسف بن محمّد السّكّاكىّ المتوفّى سنة ٦٢٦ الذى قال فى كتاب مفتاح العلوم[2] أنّ الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ فى كلام العرب وأنّه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعانى والبيان . — ومن المشهور أنّ علماء هذا الفنّ اختلفوا فى أقسامه لأنّ بعضهم جعل قِسْماً مستقِلاً ما ليس على رأى غيره إلاّ جزءاً من أجزاء أحد الأقسام الأصليّة فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثنَىْ عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلمّ جرًّا . فقال مثلاً السيّد الشريف علىّ بن محمّد الجُرْجانىّ المتوفّى سنة $\frac{٨١٦}{١٤١٣}$ إنّ الاشتقاق قسم مستقلّ خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن عمر التَّفْتازانىّ المتوفى سنة ٧٩٢ الذى جعله ذيلاً لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أنّ البديع قسم برأسه وعدّه آخرون من تتمّة علمى المعانى والبيان . ولكنّى لا أريد الخوْضَ فى مثل هذه المسائل الخارجة عن مقصودنا الحالىّ .

(١) وفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبعات المصرية .
(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٧ .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفيّة استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والاطلاق والتفرّع بتغيُّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس فى الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج فى علوم الشرق . وأرى من المناسب أن أُلخِّص الآن نتائج البحث المتقدّم بغاية الاختصار أعنى مجرّدةً عن الشواهد والنصوص التى إنّما أتيتُ بها قبلاً لئلّا تأخذوا منّى شيئاً بدون حُجّة . فإنّى لا أخاف من الإطالة إذاً لا بدّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرّفين السابقِ ذكرُهم الذين كان الإسآمُ عندهم شرّ الكبائر .

إنّ الأدب كان على المحتمل فى عرف عرب الجاهليّة عبارةً عن العوائد الحميدة المتوارثة خَلَفاً عن سلف فليس من البعيد أنّ اسمه مشتقٌّ فى قديم الزمان من الآداب جمع الدَّأْب . ثمّ لكون تلك العوائد المتوارثة عمدةً للناس فى أعمالهم المستحسَنة عبّروا بالأدب عن السنّة والسيرة لا سيّما المحمودة وعن حُسْن الأخلاق . وبما أنّ تعليم العوائد القديمة المأثورة كان عندهم أساسَ كلّ تعليم وتربية، بل مُعْظَمَ معارفهم أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظى التأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المُخْبَر بشىء .

ثمّ بعد ظهور الإسلام الى ما يلى أواخر القرن الثانى لم تزل معانى الأدب على ما كانت عليه فى الجاهليّة أعنى عبارة عن المنهج المسلوك وعن حسن الأخلاق طبيعيّةً كانت أم كَسْبيّة وعن جملة المعارف . إلاّ أنّ المقصود من هذه المعارف انحصر فى الأمور الدنيويّة ولم يُطْلَقْ على العلوم الدينيّة .

وإثْرَ ما وقع للعرب من التقلُّب العظيم فى هيئتهم الاجتماعيّة وأميالهم بسبب اختلاطهم بأمم غيرهم تولّدت من معانى الأدب القديمة معانٍ أخرى حديثةٌ وذلك فى القرن الثالث حين بلوغ التمدُّن الإسلامى أوجَهُ بمدينة بغداد . وتارةً وسّعوا نطاقَ المعارفِ المدلولِ عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كلّ أنواع العلوم والفنون والصنائع والحِرَف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلّق بأمور الدين والشريعة.

ثمّ اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العامّ الذى ما عثرت على أمثلة منه فيما صُنِّف بعد انقضاء القرن الرابع. وتارةً حصروا الأدب والآداب فيما تَمَسُّ إلى معرفته حاجةُ تعاطى فنّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةً على جميع مالا يستغنى الكاتب عن تعلّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً . وتارةً اتّخذوا الأدب بمعنى السنَّة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجبِ التمسُّكُ بها فى عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمّ جرّاً . أمّا الناس الذين جعلوا أسمى مقصدهم فى الظرف واتّخذوه سنّةً فى جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أى السنَّة) على كلّ أنواع الظرف والأديب على المتظرّف فى كلّ شىء . وحيث أنّ التفنُّن والمعرفة بما يُعجِب من كلّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءاً من التظرّف حصر بعضهم الأدب فى النكت والملح والنوادر واللطائف ومقطّعات الشعر غير الطويلة المُمِلّة وسمّوا أديباً من أخذ نُتَفاً ظريفة لطيفة من كلّ علم وفنّ . ومن حرَص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتذاذ بما نُسِج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب فى صناعتى النظم والنثر وسمّى أديباً المتعاطى الفنونَ الكتابيّة المستظرفة . فقُصارى القول أنّ المتظرّفين اتّبعوا ثلاث طرائق مختلفة فى حدّ الأدب موافقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف .

وفى ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهَجًا خاصًّا فى تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم فى علوم الدين والشريعة . وذلك أنّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلاميّة لا يتبيَّنُ افتقارُه إلى العربيّة وما يتعلّق بها من الأخبار والأشعار لأنّ بها الاحتجاج فى تفسير القرآن الكريم والحديث النبوىّ المتوقّفِ عليهما جميع الأحكام الشرعيّة ورأوا الكلام فى مُعْظَمَ أبواب أصول الفقه وفروعه مبنيّاً على علم العربيّة والتفاسيرَ مشحونةً (كما قال الزمخشرى)[1] بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائىّ

(١) المفصل للزمخشرى ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ .

والفرّاء وغيرهم من النحويّين البصريّين والكوفيّين والاستظهارَ فى مآخذ النصوص بأقاويلهم . فحمَلَهم ذلك على التبحُّر فى أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتّصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب فى الشواهد الشعريّة والنثريّة مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغةً ومعنًى . وفريق ذهب فى القرن السادس وما يتلوه إلى أنّ الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان .

فممّا أوضحتهُ ترون أنّ تشعُّب لفظ من أصل معناه إلى معانٍ مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرَض للهيئة الاجتماعيّة من التقلّب والتشعّب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لمّا كثُرت العلائق وشُدّت الارتباطات العلميّة والأدبيّة بين بلاد الشرق وأمم الغرب ونُقلت كتبٌ فرنسيّة وإنكليزيّة فى كلّ فنّ إلى اللسان العربىّ أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال littérature عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرْف العربىّ السابق من وجوه . أوّلاً لأنّ الإفرنج ومن يقلّدهم فى الشرق يُطْلِقون الآداب على مآثر أىّ لغة خلافاً للسلف من العرب فإنّهم على وفْرة المعانى التى وضعوا لها لفظَ الأدب لم يستعملوه أبداً للدلالة على الكتب والعلوم العجميّة وسبب مثل هذا الحصر أنّهم كما هو مشهور أغفلوا فى كلّ وقت البحثَ عن آداب اللغات الأجنبيّة فلم نقف على أحد منهم ألّف شيئاً فى لغة اليونان والرومان والعبرانيّين والهند والسريان والقبط وأنّ الذين اعتنوا فى غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلون جدًّا لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثلُ أبى حيّان محمّد بن يوسف الغرناطىّ المتوفّى سنة $\frac{٧٤٥}{١٣٤٤}$ صاحب كتاب الإدراك للسان الأتراك[١] والزَّمَخْشَرىِّ المتوفّى سنة $\frac{٥٣٨}{١١٤٤}$ الذى وضع كتاب مقدّمة الأدب على صفة قاموس عربىّ فارسىّ[٢] . نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضيّة

(١) راجع L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de l'hégire: "La pénétration dans la langue des Turcs" d'Aboû Hayyân al-Gharnâti* (Actes du XIVème Congrès international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suivv., III, p. 44-78. وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ [وسنة ١٩٣١] .

(٢) Samachsharii *Lexicon arabicum-persicum*, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll.

والفلسفيّة والطبّيّة والكيماوية والفلاحيّة ممّا صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُترجَمْ لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخٌ (ما عدا تاريخاً مختصراً لهروسيوس[١]) ولا خطبةٌ بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستظرفة. ومع أنّ العرب وجدوا فى تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلوّ مرتبة فنون البلاغة والخَطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون قدر اعتبار اليونان للشعر والبلاغة وسائر الفنون المستظرفة فى تربية الأطفال والأحداث لا رغِبوا فى معرفة تلك الآداب و بلغوا فى شأنها غاية الجهل حتّى إنّ أبا عثمان عمراً الجاحظ وهو من أحذق كُتّاب العرب وأوسعِهم علماً وأدقّهم بحثاً قال فى كتابه المسمّى بالبيان والتبيين ما نصّه[٢]: «إنّا لا نعرف الخُطَبَ إلاّ للعرب والفرس، وأمّا الهند فإنّما لهم معانٍ مدوّنة وكتبٌ مخلّدة[٣] لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنّما هى كتب متوارثة وآدابٌ على وجه الدهر سائرةٌ مذكورة. ولليونانيّين فلسفةٌ وصناعةُ منطقٍ وكان صاحب المنطق نفسهُ بَكِيءَ اللسان غيرَ موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه و بخصائصه وهم يزعمون أنّ جالينوس كان أنطقَ الناس ولم يذكروه بالخَطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة». اهـ. وإنّ هذا الكلامَ من أغرب الأقوال حيث أنّه من المشهور أنّ الخطب اليونانيّة صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجيّة وهى متداولة إلى الآن غيرُ مجهولة لكلّ من له ذَوْق سليم فى الأدب فى بلاد الغرب[٤]. — وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات

(١) هو من مؤلفى القرن الخامس بعد الميلاد.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً فى منتخبات البيان والتبيين للامام الجاحظ المطبوعة فى مجموعة خمس رسائل (ص٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفى كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخو ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩.

(٣) وفى طبعات مصر: مجلدة وهو تصحيف.

(٤) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وجيزة نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقيعات ملوك الفرس فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم وقد طبعت هذه الرسالة

والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنّهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابيّة المستظرفة الأجنبيّة حصروا الآداب فى علومهم العربيّة .

ثمّ إنّ المعاصرين لنا من أبناء الشرق قلّدوا الإفرنج فى وَضْع معنيَيْن للفظ الآداب معنًى منهما عامٌّ ومعنًى خاصٌّ . والمعنى العامّ عبارة عن جميع ما صُنِّف فى لغة ما سواء فى العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قُيِّد فى الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمّة وأدبائها . أمّا الآدابُ بمعناها الخاصّ فعبارةٌ عمّا سُبِك فى قالب ظريف وصِيغَ على نَمَط الإنشاء الأنيق من الكلام المنثور والمنظوم أعنى أنّها عبارةٌ عن حواصل الفنون الكتابيّة المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب مع ما أُلّف بفصيح العبارة وطِلاوة الإنشاء من التواريخ ووصفِ الرِّحَل والأسفار وما يشاكل ذلك . — فإذ كان الأمرُ كذلك أصاب الأب لويس شيخو فى قوله[1] : « تحيا الأممُ بآدابها لأنّ الآدابَ تُرقّى المرء فوق الحياة المادّيّة وتَسمُقُ به إلى المدارك الشريفة وتُقرِّبه إلى عالم الأرواح و إلى الجمال الذى منه يستعير كلُّ مخلوق جمالَهُ » . وعليه فإن أراد العاقل أن يعرِف درجة التمدُّن التى بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهلهِ . ولذلك ترى المؤرّخين يقدّمون فى تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربّما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثبِت ما يختصّ بالعلوم والمعارف فى كلّ ملّة مُخبِراً عن نشأة الآداب بينها واتّساع

فى التحفة البهية والطرفة الشهية ص ٢١٨ — ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطبعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان : فى بلاغة كلام العرب وكلام العجم) فى ج ٢ ص١٢٦ — ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا العسكرى معلم أبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعتين المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وانهما توافقا فى الاسم واسم الأب والنسبة (راجع بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦)

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ١ ص ١ (ألف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ .

نطاقها وأسباب ترقّيها ونتائجها الطيّبة فى إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة » .

٢ — أمّا تاريخ الآداب فما هو ؟ إذا اتُّخِذَ الآدابُ بمعناها الخاصّ وبالنظر إلى العربيّة أجاد فى وصفه رصيفى الأديب حضرة حفْنى بك ناصف حين قال فيما طُبع من محاضراته[1] أن « يدخل فى ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر فى كلّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتّاب والمؤلّفين وبيانُ تأثير كلامهم فى من بعدهم وتأثُّرِهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلَّفاتهم » . — فإذا اتّخذنا الآداب بمعناها العامّ فضرورىّ أن نُدْخِل فى تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف من العلماء والحكماء والمؤلّفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم فى العلوم وتقدير علوّ منزلتهم فى الفنّ الذى تعاطوه . فيصف حينئذ تاريخُ الآداب سَيْرَ العلوم فى مدارج الترقّى وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيّات والفلك والطبّ وهلمّ جرًّا فلا يتميّز فى قسمه هذا من التواريخ المختصّة بعلم من العلوم أو فنّ من الفنون إلاّ لقدر التبحُّر فى تلك المباحث ولصفة النظر فيها . مثال ذلك أنّ مؤرّخ الحكمة والفلسفة يتوسّع فى الشرح التامّ لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدّرها تقديراً دقيقاً ، أمّا مؤرّخ الآدابِ فيمتنع عن بُعد الخوض فى المسائل الخاصّة والانتقاد العلمىّ مقتصراً على جوامع ما توصّل إليه مؤرّخ الفلسفة فى أبحاثه المستقصاة ومقدِّراً تصانيف الحكماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلميّة المحضة .

إنّ تاريخ الآداب علم جديد فى بلاد الشرق لم يسبِقْ إليه علماء العرب اللّهمّ إلاّ فى نُبَذٍ وجيزة وأشياء قليلة جدًّا وردت فى كتبهم مبعْثَرة دون أن استقصوا فيها بدقّة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فإنّهم لم يُتْقِنوه قدر ما أتقنه اليونان والرومان فى الزمن القديم أو الأممُ الإفرنجيّة منذ القرن

---

(١) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية المطبوع فى مصر سنة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ٦ .

الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنةً سنةً بدون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعيّة وعن ارتباط الوقائع ببعضها ونتائجها ومن غير مَدّ بصرهم إلى ماهو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمّة من الطوارئ الظاهرة . فلا يخفى عليكم أنّ أكثر الذين حُكِم لهم بالتقدُّم وحازوا قصب السَّبْق فى ميدان التاريخ عند العرب مثل أبى جرير الطبرىّ وابن الأثير وأبى الفِداء الحَمَوىّ وزين الدين عمر بن الوردىّ لم يسلُكوا فى تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتّخذ منهجاً غيرَهُ ودوّن الحوادث مسرودةً آخذةً بعضَها ببعض لم يؤلّف إلاّ كتباً مختصرةً ولم يُجرِ التمحيص والنقد فى مصادره ولم يتأمّلْ تأثير الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة فى الحوادث السياسيّة ولم يُدقِّ النظرَ فى سائر العوامل فى ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أنّ ابن خلدون الذى أوضح فى مقدّمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر فى كلّ مبحث يتعلّق بالاجتماع الإنسانىّ إمعاناً يستوجب العجب العُجاب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لمّا صنّف سائر الأجزاء فى تاريخ الأمم واتّبع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدراً جزيلاً .

وكذلك فى تاريخ الآداب ما ألّف العرب إلاّ كتباً تتضمّن التراجم المُفْرَدة المرتّبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمُّق فى البحث عن أصل كلّ جنس من الفنون الأدبيّة وعن كيفيّة نموّه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم فى بعض أسباب تغيُّر الذوق والأميال . فأكثروا مثلاً فى رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلُّب أساليب الشعر وأغراضه بتقلُّب الهيئة الاجتماعيّة وتمادى العصور .

أطلتُ الكلامَ فى هذا الموضوع ليتبيّن لكم سبب تكليفى بتدريس آدابكم مع أنّى رجل أجنبىّ بعيد أىَّ بُعْد عن إمكان مسابقة الوطنيّين فى معرفة اللغة والتضلُّع من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب منّى ليس إلاّ أن اطبّق على الآداب العربيّة

أساليب البحث التاريخيّ التى عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجيّة بطائل عظيم . والمرجو أنكم فى آخر السنة المكتبيّة لا تجدون عملى باطلاً مجرّداً عن كلّ فائدة .

٣ — إنّ تاريخ الآداب العربيّة يجوز قسمتُهُ إلى ستة أطوار أو أعْصُر .

(١) عصر الجاهليّة المنتهى من زمان لا تُدْرَكُ أوائلُهُ إلى ظهور الإسلام . وهو عصر عربىّ صريح لغةً وأدباً و بلاداً .

(٢) العصر العربىّ الإسلامىّ من ظهور الدين الإسلامىّ إلى انقراض الدولة الأُمَويّة سنة ١٣٢/٧٥٠ . وفيه انتشر استعمال اللغة العربيّة فى بلاد متباعدة بتوسُّع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربيّة تزهو أيضاً فيما خارجَ جزيرة العرب لا سيّما فى بلاد الشام إلاّ أنّها لم تزل محصورة فى ميدان آداب الجاهليّة ما عدا العلوم المتعلّقة بأمور الدين.

(٣) العصر العبّاسىّ الأوّل من سقوط الدولة الأمويّة وابتداء دولة العبّاسيّين إلى نحو سنة ٤٥٠/١٠٥٨ . وصار فيه للأمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور الدنيا والدين بل غلبت العجمُ على العرب فى تكوُّن التمدّن الإسلامى فأُدْخِلت كتبُ العلمِ العجميّةُ القديمة واتّسع التفنّنُ فى الآداب وسُلِكَتْ فيها مسالكُ جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر فى بعض القوالب المستحدَثة و بلغت العلوم والفنون و بعضُ أنواع الآداب مداها الأقصى من الكمال والإتقان والروْنق والبهاء . وذلك ثَمَرة ما سبّبه الإسلامُ من تعاوُن الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشارُكِهم فى العلم والعمل كأنّ لسانَ حالهم قولُ أبى تمّام[١] : (من بحر الكامل)

إنْ يُكْدِ مطرَّفُ الإخاءِ فإننا نسرى ونغدو فى إخاءٍ تالدِ

---

(١) الأبيات مروية فى إرشاد الأريب لياقوت ج ١ ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان أبى تمام ص٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكدى: قل خيره، واطرف الشىء : اشتراه حديثاً ، وتالد : (مال) قديم .

أو نفترقْ نَسَباً يؤلِّفْ بيننا　　أدبٌ أقمناه مَقَام الوالدِ
أو يختلفْ ماء الوِصال فماؤنا　　عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

(٤) العصر العبّاسىّ الثانى من نحو سنة $\frac{٤٥٠}{١٠٥٨}$ إلى فتح التاتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بنى العبّاس سنة $\frac{٦٥٦}{١٢٥٨}$. وفى هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحطّ ممّا كانت عليه من الكمال تَبِعةً للانحطاط السياسىّ الذى قد ابتدأ فى العصر السابق حين تجاسرَ الجُنْد التركىُّ على الخلافة فى أيّام المتوكّل ($\frac{٢٣٢}{٨٤٧}$ — $\frac{٢٤٧}{٨٦١}$) فاستولى على الدولة أمراء الجيوش مثل وصيف و بُغا وأتامش كما قال الشاعر(١) : (من بحر الخفيف)

أصبح التُّرْكُ مالكى الأمرِ والعا　　لَمُ ما بين سامعٍ ومطيعِ

وزاد تفرُّع الدولة إلى دول صغيرة فى أنحاء مختلفة فربّما تلاشت العلائق بينها فاختلفت أحوالُ الآداب على اختلاف البلاد .

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العبّاسيّة إلى استيلاء محمّد علىّ باشا على مصر سنة $\frac{١٢٢٠}{١٨٠٥}$. وفيه خمدتْ جَذْوةُ الآداب والعلوم التى لم تزلْ مائلةً إلى الهبوط حتى كادت تنطفئُ جَمْرتُها كلّيّةً فى بعض الأصقاع الإسلاميّة . وفترتْ هِمَمُ أهل العلم فأصبحت أكثرُهم ممسكين عن الاجتهاد المستقلّ فى المباحث مقتنعين بالنظر فى كتب مَنْ تقدّمهم بدون خروج عن رتبة المقلِّدين و بغير طمع فى مباراة السلف . وكذلك الشعراء والأدباء اقتصر أغلبهم على حَذْو السابقين فنجد أشعارَهم كأنّها تصدر عن المتصنّع المتشبّه الذى يكتفى بتنميق العبارة وزُخْرُف الكلام و إشكال البديع ولا يهتمّ بالتعبير عن حقيقة ما يكُنّه صدره من العواطف والخواطر . فإن نجدْ بين أهل ذلك العصر من

---

(١) البيت مروى فى الباب العشرين بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٤٠٠ من الطبعة الباريسية .

فاق غيرَهُ فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسيّ وابن خلدون) يصلُحُ له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنّه[1]: « ربّما يحدُثُ عند آخر الدولة قوّةٌ يُوهِمُ أنّ الهَرَمَ قد ارتفع عنها ويُومِضُ ذُبالُها إيماضةَ الخُمود كما يقع في الذُّبال المشتعِل فإنّه عند مقاربة انطفائه يُومِض إيماضةً تُوهِم أنّها اشتعال وهي انطفاء »

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمّد عليّ باشا سنة $\frac{١٢٢٠}{١٨٠٥}$ إلى أيّامنا هذه . وفي هذا العصر شاعت العلوم الإفرنجيّة في كثير من بلاد الشرق فكانت خَميرة اختمرت بها العقول بعد مُدّة العُقْم والسُّقْم وانتاشت أهلَ الإسلام ممّا قد قضت الصروفُ لأغلبهم من الاستكانة والتفريط في التعلّم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فنُّ الطباعة في الشام ومصر وغيرهما من الأنحاء الإسلاميّة وذاعت الجرائدُ والمجلاّت بنافع المعارف والأخبار وعادت أسواقُ الآداب والعلوم قائمةً وبضائعها رائجةً لا سيّما في القطر المصريّ وشقيقته الشام والقسطنطينيّة وبغداد فتحقّق وتمّ لأهاليها مُرادُ قولِ الشاعر[2] : (من بحر البسيط).

لعلّ إلْمامةً بالجِزْع ثانيةً يدِبُّ منها نسيمُ البُرْء في عِلَلِي

إلاّ أنّ إفراطَ التأثير الإفرنجيّ لم يخْلُ عن الإضرار بآداب الشرق لأنّه ربّما أبعد الناس عن شدّة العناية بلغتهم وأدخل في تآليف بعض المحْدَثين وفي بعض المجلاّت والجرائد العُجْمةَ المستقْبَحة والتراكيبَ الشائنة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

(٢) البيت مروى للطغرائى المولود سنة $\frac{٤٥٣}{١٠٦١}$ والمتوفى سنة $\frac{٥١٥}{١١٢١}$ وهو البيت السادس والعشرون من شعره المسمى بلامية العجم فانظر كتاب نشر العلم فى شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين محمد بن عمر الحضرمى ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ — وألم به نزل به . جزع منعطف الوادى ومحلة القوم . دب سرى . برء شفاء .

السقيمة وركاكة الكلام وسخافة الإنشاء، وغيرَ ذلك ممّا يستنكفُ منه صاحبُ الذوق السليم . فاتّفق لبعض الكتبة ما اتّفق لبعض الناس الذين قلّدوا الإفرنج وعوائدَهم بدون بصيرة وخلطوا الغثّ بالسمين والبخس بالثمين .

إنّ هذه الحدود التى ذكرتها لكلّ عصر من الأعصر الستّة ليست إلّا حدود صناعيّة اصطلاحيّة أثبتُّها على التقريب فإنّ عصرًا ما سواء من التاريخ السياسىّ أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحصَر فى مواقيت معيّنة بدقّة . فلذلك أسباب . أوّلًا أنّ كلّ حىّ وكلّ نوعٍ أو فرع من الهيئة الاجتماعيّة لا تتغيّر أحوالُهُ بديهًا أبدًا بل من المشهور أنّ الانتقالَ من حال إلى حال لا يحصُل إلّا بالتدريج الباطىء حتّى لا يُشعَر فى الأغلب بالفرقِ بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإن أعمَلْنا الفكر فيما يظهر بادىء نظر أنّه تقلُّب فاجئ ألفينا أنّه فى الحقيقة نتيجة عدّة أسباب مرتبطة بعضِها ببعض عاملةٍ منذ زمان طويل . قال إبُقراط[1] ومن اتّبعه من أطبّاء اليونان والعرب إنّ الإنسانَ يبتدىء طِفلًا ثمّ يصير صبيًا إلى أربع عشرة سنةً من عمره ثمّ غلامًا إلى إحدى وعشرين سنةً ثمّ شابًا ما دام يشِبُّ ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنةً ثمّ كهلًا إلى تسع وأربعين سنةً ثمّ شيخًا ثمّ هرِمًا إلى آخر العمر الذى ينقسم إلى سبع أسنان على هذا القول[2] . وظاهر أنّ هذه القسمةَ لمدّة حياة الإنسان إنّما هو اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعيّة إلّا بالتقريب فلا يزعم أحدٌ أنّ الإنسانَ عند انتقاله من سنّ إلى التالية لها على ذلك القول يتغيّر تغيّرًا محسوسًا . وكذلك تقلّبات الأمم والدول إنّما تقع قليلًا فقليلًا فلا يُشعَر بها إلّا بعد مُضِىّ أمَد مديد حين يمكن مقابلةُ الحال الحاضر بالحال الماضى البعيد . فمن قال من المؤرّخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنةَ اكتشاف أمركا أعنى

(١) يعنى Hyppocrates الطبيب اليونانى المشهور الذى عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثانى والستين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٤ ص ٣١ من الطبعة الباريسية) .

سنة ٨٩٧/١٤٩٢ ما أراد أنّ الدنيا قد تغيّرت أحوالُها بَغْتةً فى تلك السنة أو أنّ أهلَ ذلك العهد أحسّوا بشىء من التغيير العامّ الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع فى سيَرِ الآداب فإنّ أنواعها وفنونَها بطيئةُ التحوّل فتختلط فى الأغلب الأساليبُ القديمة بالجديدة فى عصر واحد وتوازنت فيه مدّةً إلى أن يأخذَ الأسلوبُ الجديد فى الغَلْب على القديم شيئاً فشيئاً . فكم مرّةٍ ما انفرد به شاعر أو أديب طفِق بعد مدّة يتشبّه به القليلون الذين استحسنوه واستطابوه ورأوا أنّه تألفه الأسماع وتقبَله النفوس ثم سائر الأدباء اتّبعوه أيضاً وتعمّلوه فعمّ ما كان يختصّ به أوّلاً الواحد . وفى أشعار الجاهليّة تجدون أحياناً من التغزُّل[١] ما يُشْبِه الأسلوب الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة[٢] بعد منتصَف القرن الأوّل وترون الهجاء فى القرن الثانى كأنّه متردّدٌ متحيّر فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأمور أهل المدر . ويحتذى المتنبى[٣] حَذْو القدماء حين يدّعى فى بعض أشعاره بالحماسة وابن المعتَز[٤] حين شرع فى نوع الافتخار ومع ذلك إنّهما من الشعراء المُحْدَثين لا يفرُدان عن معاصريهما فى المدح والغزَل والوصف والطرديّات . فإذًا كيف يمكن أنّ سنةً معيّنةً تكون حدًّا حقيقيًّا طبيعيًّا بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟

ثمّ لا يخفَى عليكم أنّ آدابَ لغةٍ ما إذا شاعت فى أراضٍ متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعدْ فنُّ الطباعة فى انتشار الكتب انتشارًا سريعاً بعيدًا لا يتغيّر أحوالُها ولا يتقلّب أميالها على نَمَط واحد فى كلّ قطر لاسيّما إن تشتّت شملُ

---

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Funf Mo'allaqât*, II, p. 43. *Encyclopédie de l'Islam*, I, p. 366 و (مادة عنترة)

(٢) عمر بن أبى ربيعة ولد ٢٣/٦٤٤ م وتوفى سنة ١٠١/٧١٩–٧٢٠ على القول الأرجح وسيأتى ذكره فى باب الشعراء الغزليين الذين عاشوا بمدن الحجاز فى عصر بنى أمية .

(٣) توفى المتنبى سنة ٣٥٤/٩٦٥ .

(٤) مات ابن المعتز سنة ٢٩٦/٩٠٨ وفى افتخاره راجع إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٢٤ — ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥ .

المملكة كما اتفق للأمم الإسلاميّة منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التى جعلتها العصرَ السادس) بالقطر المصرىّ والشام والعراق والهند لأنّ سائر الأنحاء الإسلاميّة العربيّة لم تزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه فى العصر السابق الذى سمّيناه عصر الانحطاط ففى عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبُغْ بعدُ عالم أو أديب أو شاعر طِفق يشرَع فى الأساليب الجديدة فما هبّت هناك الآداب العربيّة من كَراها ولا نفضتْ غُبارَ خمولها . ودعوا عنكم ما وقع فى المغرب الأوسط أى بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسىّ فإنّ مصابيحَ العلوم العربيّة أُطْفِئتْ هنالك وتلاشت الآدابُ كليّاً حتّى لايجاوز عدد أنامل اليد من يتمكّن من استعمال اللغة الفصحى فى الكلام واندرست المكاتب العربيّة التى قد اشتهرت فى الأجيال الخالية بالقُسَنْطينة وبِجاية وتِلِمْسان وكادت تَضْمحِلُّ معرفة الآثار العربيّة عند الوطنيّين كيف لا وهناك الشُبّانُ فى نفس مدارس القضاء الشرعىّ يتلقّون أكثر العلوم بلسان الفرنسيس . ومثال مقدار ما بلغه الناس فى برّ الجزائر من إغفال درس لسانهم أنّ أحد الجزائريّين وهو حضرة محمّد صوالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبى زيد القيروانى[1] فى الفقه المالكىّ قائلا فى مقدّمة الترجمة إنّه رأى من المناسب نقْل ذلك الباب إلى الفرنسيّة لكون أغلب الوطنيّين المتأدّبين أعرف بها منهم بالعربيّة[2] . وهذا لعمرى عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلّط عليهم معاً .

وقُصارى القول أنّ قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورةً محدودة إنّما هى وسيلة لتسهيل بيان سيْر الآداب فى مدارج الترقّى أو رجوعِها القَهْقَرَى . فالحدود المعيّنة لكلّ عصر هى كالأعلام التى كانت أهل البدو ينصِبونها فى البرارى والقفار ليهتدى

---

(١) توفى سنة ٣٧٩ .

(٢) SOUALAH Mohammed, *Le jeûne chez les Musulmans Malékites* (*Revue Africaine*, vol. 50, 1906, p. 393). [كذلك كان فى سنة ١٩١٠ عندما ألف الأستاذ نلينو محاضراته هذه فى تاريخ الآداب العربية] .

بها ابن السبيل ولا يضِلّ في تلك الأراضي المستوية الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال تلك الحدود الاصطلاحيّة مثلَ منفعة بل ضرورة وضع خيوط السَّدَى التي يُنْسَج عليها النسيج . — وربّما زيادةً لوضوح البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار بأسلاك التاريخ ينبغي قسمةُ تلك العصور الأساسيّة أقساماً أخرى صغيرة وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمّيّة بعض الوقائع السياسيّة والأدبيّة . لكنّي أمتنع الآن عن الخوض في تعريف تلك الأقسام الفرعيّة التي سأذكرها في دروسي عند سنوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثانى

العصر الجاهلى

١ شعر أهل البادية — ٢ شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان — ٣ شعر النصارى بالحيرة وفى مملكة بنى غسان — ٤ شعر أهل الحضر فى مدن الحجاز — ٥ النثر الجاهلى — ٦ المسائل المتعلقة بالقرآن

أمّا بعد هذه المقدّمات وقبل الشروع فى المواضيع الخاصّة التى ستدور محاضراتى على البحث عنها بالتوسّع أرى من المناسب لَمْحةً فى أحوال الآداب العربيَّة أثناء كلّ عصر من الأعصر الستَّة السابقِ تحديدها بالإجمال . فأبتدئ بالعصر الجاهلىّ[1] .

لا شكّ أنّ ما وصل إلينا من آثار الجاهليّة نظماً ونثراً شىء يسيرٌ جدًّا بالإضافة إلى جميع ما أنشدتهُ العرب أو روتهُ فى مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم وتهاجيهم وما قالوه ارتجالاً فى غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث . ومن المشهور أنّ العرب القدماء من أكثر الأمم شعراً لهم فيه التصرّف العجيب والاقتدار اللطيف دوّنوا فيه عواطفهم وأعمالَهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العَسْكَرىّ المتوفى سنة ٣٩٥/١٠٠٥ حين قال[2] : « لا تعرِف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلاَّ من جملة أشعارها فالشعر ديوانُ العرب وخزانة حكمتها ومستنبطُ آدابها ومستودَع علومها » . وقال الجاحظ[3] المتوفَّى سنة ٢٥٥ : « قال الهَيْثَم وابن الكَلْبىّ وأبو عُبَيْدَة فكلّ أمّة تعتمد فى

(١) [فى الشعر الجاهلى انظر (فضلا عن المؤلفات المذكورة فى الحواشى التالية) الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين طبعة مصر ١٩٢٧م و E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literargeschichtlichen Betrachtungsweise altarabischer Poesien* (*Der Islam*, XXIV, 1937, p. 201-269); G. VON GRUNEBAUM, *Die Wirklichkeitweite der früharabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBAUM, *Zur Chronologie der früharabischen Dichtung* (*Orientalia*, VIII, 1939, p. 328-345).

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠ .

(٣) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب فى جاهليّتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفّى وكان ذلك هو ديوانها وعلى أنّ الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثُرة على السيّد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيّد مآثرها بالبُنيان فبنوا مثل كرد بيداد[١] و بنى ازدشير بَيْضاء إصْطَخْر و بيضاء المدائن والحَضْر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس قال ثمّ إنّ العرب أحبّتْ أن تشارِكَ العجم فى البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غُمْدان وكعبة نَجْران وقصر مارد وقصر مارب وقصر شَعوب والأبلق الفرد ومارد قالوا تَمرّدَ ماردٌ وعزّ الأبْلَقُ،[٢] وغير ذلك من البنيان» . — ولكنّ كثيراً ممّا سارت به الركْبان إلى أطراف بواديهم وأقاصى أنحائهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطِقْ الحصولَ على معرفته أهلُ اللغة فى القرن الثانى للهجرة . إنّ أوائل آداب اللغات المتفرّعة من اللاتينيّة مثلِ الإيطاليّة والفرنسيّة والإسبانيّة معروفة فنستطيع وصف تدرُّج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أمّا الآداب العربيّة فليست على مثل هذا الحال فلا نتمكّن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثُر عليه من الأخبار فى تصانيف اليونان والرومان . ولم يُنقَل إلينا بيتٌ عربىّ غيرُ مُرْتاب بصحّته أقدمُ من أواخر القرن الخامس للمسيح أعنى سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنةً تقريباً . وقولى هذا الذى سآتى بالبرهان عليه فيما بعد لا يبعُد عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ فى كتاب الحَيَوان[٣] : « وأمّا الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ أوّلُ من نهج سبيله وسهّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلْهِل بن ربيعة

---

(١) فى هذا الاسم تحريف وذكر المسعودى « بيت الناربسجستان يقال له كراكركان» (مروج الذهب فى الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة البارسية)

(٢) المثل مروى فى مجمع الأمثال للميدانى ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG, *Arabum Proverbia Sententiaeque proverbiales*, Bonn 1838-1843, I p.218. وفى أمثال العرب للمفضل الضبى ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

(٣) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

وكتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون ثمّ بطلميوس وذى بقراط[١] وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدلّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجْر[٢] : (من بحر المنسرح)

إنّ بنى عوْف ابتنوْا حَسَباً[٣] ضيّعه الدُّخْلُلون[٤] إذْ غدروا
أدَّوْا إلى جارهمْ خُفارتَهُ ولم يَضِعْ بالمغيب من نصروا
لا حِمْيَرِىٌّ وَفَى ولا عُدَسُ ولا استُ عَيْرٍ يحُكُّها الثفرُ
لكِنْ عُوَيْرٌ وَفَى بذمّتِهِ لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ[٥]

فانظرُ كم كان عُمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زرارة ومولد النبيّ عليه الصلاة والسلام فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام . قال وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلّم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجَم ولا يجوز عليه النقل الخ » — ولكن فى كلام الجاحظ هـذا نظرٌ . فإنّه خطأ أوّلاً لمّا قابل عهد الآداب اليونانيّة النثريّة بعهد الشعر العربىّ ولم ينتبهْ لعدم كلّ علاقة بينهما . ثمّ لو أدقّ البحث فى تاريخ الآداب لوجد أنّ الشعر سبق سائر الفنون الأدبيّة المستظرفة عند كلّ أمةٍ متمدّنة كانت أو همجيّة . ثمّ لا يلوح كيف تُستنتَج حداثةُ الشعر من الأبيات التى أنشدها لامرئ القيس لأنّه لا دلالةَ فيها على سابقيّة تلك الأبيات لغيرها . ولعلّه اغترّ بقَوْل كثير من علماء اللغة أنّ مُهَلْهِلاً وهو خالُ امرئ القيس أوّل من

---

(١) [لعله Hyppocrates الطبيب اليونانى المشهور] .

(٢) راجع ديوان امرئ القيس ص ٣٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ — ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى أو عدد ٢٧ (ص١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Divans of the six ancient Arabic poets.*

(٣) فى كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٤) فى كتاب الحيوان : الداخلون وهو غلط – قال البطليوسى الدُّخلل والدِّخلل والدخيل الذى يداخل الرجل فى أمره ويصاحبه عليه وهم الخاصة

(٥) وروى الشطر فى الديوان كذا « لا عور شانه ولا قصر »

قصد القصائد(١) وهذا القول ولو صحّ لا يدلُّ على عدم وجود أنواعٍ غيرها من الشعر عند من تقدّم مهلهلاً من العرب . والحقُّ يقال إنّ من يسرّح أبصاره فى رياض الشعر الجاهلىّ لا يجدْ فى شذراته التى نجتْ من أيدى الضّياع ما يدلّ على كونه فنّاً صغير السنّ فإن جميع ما نُقِل إلينا منه يظهر لنا فى غاية الإتقان وزناً وتقفيةً وفى نهاية التفنُّن من الافتخار والتحضيض والزّجْر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرِثاء وهو يجمع رقّةَ العبارة إلى دقّة الإشارة ومتانةَ التراكيب إلى رِشاقة الأساليب . فليس من الممكن مثلُ هذا الكمال فى صناعة حديثة لأنّه من المعلوم أنّ كلّ مبتدىء لشىء لم يُسْبَقْ إليه وكلّ مبتدع لامر لم يُتقدّمْ فيه عليه لا بدّ من أن يكون قليلاً ثمّ يكثُر وصغيراً ثمّ يكبُر وضعيفاً ثمّ يتقوّى . ومصداقاً لقولنا هذا الإجمالىّ نأتى فيما بعد بنصوص قديمة غيرِ عربيّة تدلّ على أنّ الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وامرىء القيس بمدّة مديدة . وخلاصة الأمر أنّ العلماء من العرب الذين قالوا بمدّة مائةٍ وخمسين سنةً تقريباً للشعر الجاهلىّ لا بعِدوا عن الصواب إذا فرضْنا أنّهم إنّما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثمّ من الجدير بالذكر أنّ جميع ما نعرفه من شعر الجاهليّة إنّما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن فى هذه الأنحاء وإن أصله من قبائل اليمن . أمّا أهل الحضر من سكّان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يُعرَف لهم أبياتٌ صحيحة الرواية لا بالعربيّة ولا بالحِمْيَريّة . فعلى مؤرّخ الآداب أن يفحص عن سبب ذلك باعتبار كيفيّة النقل وأحوال عرب الجاهليّة فى السياسة وفى نظامهم الاجتماعىّ . — ثمّ على الباحث عن آداب العرب القديمة حلُّ مسائلَ أخرى خطيرةِ الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقةٌ بين الكلام المسجّع والكلام المنظوم ؟ وما السجْع فى أوائله ؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفّى ؟ أكان الشعر أوّلاً ذا وزْن معيّن

(١) راجع كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلا .

وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصّلت العرب إلى اختراع القصيدة على نَمَطها الكامل المُتْقَن ؟ ولماذا جعلوا النسيب أوّل القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغةُ الأشعار لغةً واحدةً ؟ وكيف تكوّنت هذه اللغة ؟ وعلى أيّ وجه وصلت أشعارُ الجاهليّة إلينا ؟ أيجوز لنا أن نثق بصحّة رواياتها ؟ وأن نعتمد على الحكايات المرويّة لشرح الأبيات القديمة ؟ — إنّ هذه المسائلَ المهمّةَ وغيرَها التى لا نستطيع أن نحُلّها جميعَها حَلاً نِهائياً قاطعاً تكون موضوعَ جملة من محاضراتى بعد إنجاز بيان المقدّمات التى نحن بصددها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماءَ نيّف وثمانين شاعراً عاشوا فى عصر الجاهليّة ولكلّ واحد منهم تُنْشَدُ أبياتٌ وصلت إلينا متفرّقةً فى جملة من التصانيف . ولكن أكثرما رُوى من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم الأبيات المنقولة ذو شُبه واختلافاتٍ وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التى إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبِر عليها هَنْيهةً من الزمان . فلا نستطيع ترتيبَ تراجمِهم على توالى الأزمنة اللّهمّ إلاّ للقليلين منهم ولا نتمكّن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أنّ بعضَ كتب عربيّة فى آداب لغتكم صُنّفت حديثاً وطُبعت بمصر وهى متداولة فى المدارس تروى لكلّ شاعرٍ تذكُره من شعراء الجاهليّة تاريخ وفاته كأنّه معيّن ثابت ولا شكّ فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أنّ منبَع تلك الأخبار كان أصلاً كتاب روضة الأدب فى طبقاتِ شعراء العرب تأليف اسكندر أغا ابكاريوس الذى مات سنة ١٣٠٣/١٨٨٥ ونشر كتابه فى بيروت سنة ١٨٥٨ م دالاً فيه لكلّ شاعر على عام وفاته من غير أن يبيّن كيف استخرج تلك السنين . والمحتمل أنّه توصّل إليها بالحَدْس والتخمين مستنداً إلى إشارات غير كافية وجدها فى الكتب القديمة ولا فقاً مقطّعاتِ الأخبار[١] . ثم على جرى عادة كثير من

(١) راجع R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter* II. (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, XVIII, 1904, p. 5, n. 1).

المُحْدَثين الناقلين كلام من تقدّمهم بغير بصيرة وتمحيص و بغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتبة فى بيروت يقبل تلك التواريخ بلا انتباهٍ ثمّ اتّبعهم فى مثل ذلك النقل بعض المتأدّبين بمصرفشاعت تلك الأوهام ودخلت فى الكتب المدرسيّة بعدما زيدت عليها غير مرّة أغلاط طبع فى أرقام الأعداد . — ولكن عدم تعيين التواريخ المومأ إليها ليس ضررًا عظيماً لسببين : الأوّل أنّ المدّة التى عاش فيها شعراء الجاهليّة المنقولُ إلينا شىءٌ من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنةً تقريباً كما تقدّم .

والثانى أنّا نقدر على تعيين تتابُع أكثر الفحول بإشارات وردت فى نفس أشعارهم أو بأخبار محقّقة نُقلت إلينا من الزمان القديم .

إذا أطلنا النظر والتأمّل فى شذرات الشعر الجاهلىّ التى سلِمت من التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعانى وجدناها تنقسم إلى أربعة أصناف أساسيّة : الصَّنْفُ الأوّل ما نسجه أهلُ البادية أو من تقرّب منهم سواء كانوا وثنيّين أم يهوديّين . الثانى أشعار الوثنيّين الذين قصدوا ملوك الحيرة و بنى غسّان وجالسوهم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو فى مملكة بنى غسّان . الرابع أشعار أهل الحضر الوثنيّين فى مدن الحجاز . — لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيّين واليهود من أهل البادية ووجودَهُ بين الوثنيّين والنصارى من أهل الحضر لأنّكم إذا اطّلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل الإسلام ما ألفيتم فيها شيئاً أو عبارةً يميّزها من سائر أهل البادية . فمن طالع مثلاً أبيات السّموْءل بن عادِياء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة التزوير منسوبة إليه لم تُعرَف ولم تُطبَع إلاّ حديثاً) لما توهّم أنّ صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً فى سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شُعْبة[١]

(١) [إن شعبة تصحيف سبعة (بفتح السين المهملة وسكون الباء) . انظر ما قال الأستاذ الإيطالى Levi Della Vida فى المجلة Rivista degli Studi Orientali, VIII, Roma. 1919-21, p. 627-628, فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور فى سبعة بن غريض فى مقالته *A proposito di as-Samaw'al* المطبوعة بالمجلة Rivista degli Studi Orientali, XIII, 1931-32, p. 62.

ابن غَرِيض والربيع بن أبي الحقَيْق وغيرِهما التى اعتنى بجمعها نولْدِكِه وفرانْز دِلِتش[١] ليس من المستحيل أنّ ما فُقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة إلى ما حُفِظ) قد حوى أشياء ممّا يختصّ بدينهم وليس من المحال أيضاً أنّ الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ولكن لا يجوز لنا الحكم إلّا فى الموجود المعروف الذى لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيّين لا لغةً ولا أسلوباً ولا مأخذاً كأن دينهم لم يؤثّر فى شعرهم البتة .

١ — وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهليّة أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاً صنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فأبتدئ بالصنف الأوّل أى أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجودُ رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقُهم وعوائدهم أقرب للهَمَجيّة المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام إجتماعىّ متين فسُمّوا أولئك الرجالُ صعاليك أى فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزِّلين عن نفس قبائلهم جائلين فى القفار والبوادى بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعلون فى أيّامنا المعروفون بالبوّاقين عند أهل شمّر والحجاز الشماليّة[٢] . ومنهم من نبَغ فى الشعر على توحُّش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضُرب بهما الأمثالُ لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم[٣] فكثُرت فيهما الأخبار العجيبة والروايات الغريبة . وهما تأبَّطَ شرًّا الفَهْمىّ[٤] والشَّنْفَرَى الأزدىّ عاشا فى القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً فى غزواتهما . وافتخر تأبّط شرًّا فى

(١) NOELDEKE, *Beiträge zur Kenntniss der Poesie der alten Araber*, p. 52-86; F. DELITZSCH, *Jüdisch-arabische Poesien aus vormuhammedanischer Zeit*, Leipzig 1874.

(٢) انظر : JACOB, *Altarabisches Beduinenleben*, 2 éd., Berlin 1897, p. 225.

(٣) محضير: كثير العدو . ومغوار: مقاتل كثير الغارات .

(٤) جمع المستشرق الإنكليزى LYALL أربعة أشعار لتأبط شرًّا فى المجلة *Journal of the Royal Asiatic Society* سنة ١٩١٨ ص ٢١١—٢٢٧

قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتخاذها جارة فى ليلة مظلمة[١] :

وأدهمَ قد جُبْتُ جِلْبَابَهُ ... كما اجتابتِ الكاعبُ الخَيْعَلَا
إلى أن حَدَا الصُّبْحُ أثناءهُ ... ومزّق جِلْبابَهُ الألْيَلَا
على شيمِ نارٍ تنوّرْتُها ... فبِتُّ لها مُدْبِرًا مُقْبِلَا
فأصبحْتُ والغولُ لى جارةٌ ... فيا جارتَا أنتِ ما أهْوَلَا
وطالبْتُها بَضْعَها فالْتوتْ ... بوجهٍ تهوّلَ فاستغْوَلَا

وما أحسن وصْفَ حال حياته فى قصيدة مدح بها عمّه شمس بن مالك[٢] :
(من بحر الطويل)

قليلُ التشكّى للمُهِمّ يُصيبُهُ ... كثيرُ الهوى شتّى النّوى والمَسالكِ
يظلّ بمَوْماةٍ ويُمسى بغيرِها ... جَحِيشًا ويعْرَوْرِى ظهورَ المهالكِ
ويسبِقُ وفْدَ الريح من حَيْث ينتحى ... بمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ المُتداركِ
إذا حاصَ عينيْهِ كرَى النوْمِ لم يزَلْ ... له كالئٌ من قَلْبِ شيحانَ فاتِكِ
ويجعلُ عينيْه ربيئةَ قلْبِهِ ... إلى سَلّةٍ من حدّ أخْلَقَ صائكِ
إذا هزّه فى عظْمِ قِرْنٍ تهلّلتْ ... نَواجِذُ أفواهِ المنايا الضواحِكِ
يرى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويهتدى ... بحيث اهتدتْ أمّ النجوم الشوابِكِ

أمّا الشّنفرَى الأزدىُّ فصاحب اللاميّة المشهورة التى يفتخر فيها بانفراده من قومه ووَحْشةِ عيشهِ فى البرارى كأنّه لم يعاشر إلّا السباع . وهى قصيدةٌ غاية الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وإن كان بعضُ النحويّين يزعمون أنّها من مصنوعات حمّاد

---

(١) الأبيات مروية فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودى (ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيعل : قيص بدون أكمام — تنوره : تطلع نحوه ببصره .

(٢) الأبيات مروية فى حماسة أبى تمام ص ٤١ — ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٦ — ٤٩ من طبعة بولاق. — اعرورى الفرس : ركبه عريًا ليس تحته شىء — منخرق : سريع — فاتك: فاجئ . وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها المجرة .

الراوية المتوفى سنة ١٥٥ . ومما يدل أيضاً توحّش عِيشته شعر آخر له قال فيه[١] :

(من الطويل)

[و] لا تَقْبُرونى إن قبرى مُحرَّمٌ عَلَيكُمْ ولكنْ أبشِرِى أُمَّ عامِرِ
إذا احتملوا رأسى وفى الرأسِ أكثرى وغودِرَ عند المُلتقى ثَمَّ سائرى
هُنالِكَ لا أرجو حياةً تَسُرُّنى سَجيسَ الليالى مُبْسَلًا بالجَرائرِ

ثمّ من الصنف الأوّل مع بعدهم عن هَمَجيّة تأبّط شرًّا والشَّنفرى أصحابُ ستٍّ من المعلّقات السبع الشهيرة أعنى امرأ القيس وهو أقدمهم والحارث بن حِلِّزة وعمرًا ابن كلثوم وعنترة العبسىّ وزُهَيرًا ولبيداً وهو أحدثهم . أمّا طَرَفَة فمن شعراء الصنف الثانى المجالسين للملوك . وامرُؤُ القيس بن حُجْر من آل ملوك كندة عاش فى النصف الأوّل من القرن السادس للمسيح ويقال إنّه أمير الشعر لما أدرك فيه من الإتقان فقال ابن قتيبة[٢] المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ إنّه « سبق إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العربُ واتّبعتْهُ عليها الشعراء من استيقافه صَحْبَه فى الديار ورِقّة النسيب وقرب المأخذ » وأجْوَدَ أيضاً الوصف والتشابيه فكان كثيرٌ من أهل الأدب والشعر فى القرون الماضية يفضّلونه على سائر الشعراء واختصر القاضى أبو بكر الباقلّانىّ[٣] حُكْمهم فيه هكذا[٤] : « وأنت لا تشُكّ فى جَوْدة شعر امرئ القيس ولا ترتاب فى براعته ولا تتوقّف فى فصاحته وتعلم أنّه قد أبدع فى طرق الشعر أموراً اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتّصل بذلك من البديع الذى أبدعه والتشبيه الذى أحدثه والتمليح الذى يوجد فى شعره والتصرّف الكثير الذى تُصادِفهُ فى قوله

(١) الأبيات مروية فى حماسة أبى تمام ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من طبعة بن (أو ج٢ ص ٢٤ — ٢٥ من طبعة بولاق) وفى NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, p. 30 . — [فى تأبط شراً والشنفرى راجع أيضاً مقالتَى المستشرق الإيطالى Francesco GABRIELI المسماتين *Ta'abbata Sharr an Shanfarà e Khalaf al-Ahmar* (*Rendiconti dell' Accademia dei Lincei*, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, p. 40—69); *Sull'Autenticità della «Lâmiyyat al-ʿArab»* (*Rivista degli Studi Orientali*) XV, Roma 1934-35 p. 358-361.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٣) توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م .

(٤) إعجاز القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥

والوجوهِ التى ينقسم إليها كلامُهُ من صناعة وطبع وسلاسة وعلوّ ومتانة ورقة وأسبابٍ تُحْمَد وأمورٍ تؤثِّر وتُمْدَح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ » . إلاّ أنّ القاضى الباقلانىّ يقول بوجود ما يُعاب أيضاً فى شعر امرئ القيس فيوضح ما يزعمه عَواراً فى معلّقته بالتفصيل المفرِط[1] وربّما عدَل عن الإنصاف فى أقواله لأنّ غرض كتابه إنّما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبُهُ من فحول الشعراء وعلى أنّ[2] « طريقة الشعر شريعةٌ مورودة ومنزلة مشهودة يأخذُ منها أصحابُها على مقادير أسبابها ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدّم معنى قد طمَسه المتأخّر بما أبرّ عليه فيه وتجد للمتأخّر معنى قد أغفله المتقدّم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا إليه فيهما فيه شريكا عَنانٍ وكأنهما فيه رضيعا لِبان » . أمّا معلّقة امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب فى الكلام عليها فى هذه النبذة الإجماليّة الوجيزة .

ثمّ الذى يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلّقات على الترتيب التاريخىّ هو الحارث ابن حِلِّزة اليَشْكُرىّ البَكْرىّ الذى ألّف قصيدته المشهورة فى أيّام عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ — ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولا ارتجالاً بين يديه كما يقولونه خطأً أكثر كتبة العرب . وغرضها سياسىّ أعنى حثّ بنى بَكْر بن وائل وبنى تَغْلِب بن وائل على ترك التشاكى الباطل لئلّا تعود تضرمَ جَذْوَةُ العَداوة والحرب بينهما ولا يُنْقَضَ الصُّلْح المنعقَد عند المنذر بن ماء السماء[3] ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) بعد الحرب الطويلة الشهيرة بحرب البَسُوس . وبعد الحارث بمدّة غير مديدة ألّف عمرو بن كُلْثوم

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ — ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥ م .
(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦ .
(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع فى هذه المسألة ما كتب المستشرق NOELDEKE فى كتابه *Fünf Mo'allaqât*, I, Wien 1899, p. 54).

التغلبي[١] معلقته التي تشير أيضاً إلى ما كان قديماً بين حيَّيْ بكر وتغلب من العداوة . ويُنذِر فيها الشاعر بل يرغّب عمرَو بن هند الملك لميله إلى بكر ويوعِد البكريّين ويُثوب بني تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض . وهي قصيدةٌ غايةٌ في الفخر لا تكاد تفوق فيه عليها غيرُها فلا عَجَبَ أنّ بني تغلب لم تزلْ تعظِّمها جداً يرويها صغارُها وكبارها في القرن التالي لظهور الإسلام حتّى قال بعض الشعراء يهجوهم[٢] :

ألْهَى بني تغلبٍ عن كلّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يُفاخِرون بها مُذْ كان أوّلُهمْ يا لَلرّجالِ لفخرٍ غيرِ مسْؤُومِ

وممّا تنفرد به معلّقتا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهليّة أنّ مُعظمَهَا يدور على الموضوع الأساسيّ فلا تبقى فيهما للغزَل والوصف وسائر لواحق القصائد إلاّ أبيات قليلة جداً . ثم تَتَشابَهان أيضاً خلافاً للمعلَّقات الأخرى لأن صاحبَيْهما كأنّهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعها وهما يخاطبان مَلِكاً ذا شأن عظيم ولا يدخُلان في أمورهما أو أهوائهما الشخصيّة ما عدا النسيب الذى تبتدئ القصيدتان به .

وفي السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنترةُ بن شدّاد العَبْسيّ معلَّقتَهُ في الفخر والحماسة وصف فيها فضْلَه وأفعالَهُ المجيدة في الحرب وبَسالتَهُ في القِتال وقدْر ما أهان هائلَ الأخطار والموت . كيف لا وهو من أشجع العرب وأعلاهم همّةً وأعزِّهم نفساً ضُرب به الأمثالُ واتُّخِذَ كأُنموذج الفتى الكاملِ المروّةِ والشَّجاعة فلم يزلْ صيتُهُ يَطير في كلّ الأنحاء لما أُلِّفَ فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوامّ حتّى الآن المعروفة بسيرة عنترة . وديوان أشعاره أيضاً كلّه فخر وحماسة مع العَرْض فيه عن توحُّش الشنفرى وعن كلّ تنافُر الألفاظ وخُشونة المعاني .

(١) [طبع ديوانا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم في مجلة المشرق ص ٥٩١ — ٦١١ من السنة العشرين ١٩٢٢] .
(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ من طبعة ليدن والبيتان مرويان أيضاً في الأغاني ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنجن سنة ١٨٥٤ .

ونحو سنة ستمائة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زُهَيْر بن أبى سُلْمَى المُزَنىّ معلّقته يمدح فيها هَرِم بن سنان والحارث بن عَوْف من سَرَوات العرب اللذَيْن بتحمُّلهما أعْباء الدِّية إزالا للحرب[1] وأتمّا الصلح بين قبيلتَىْ عَبْس وذُبْيان ويحُثّ الناس على الخير والمحبّة . وهذه المعلّقة تختلف عن المعلّقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن النصائح والحِكَم تجنّبَ زهيرٌ فيها وفى سائر أشعاره عن الوحشيّة والفخر . فأحسنُ ما قيل فيه إنّه لم يمدَحْ أحداً إلاّ بما فيه. قال أبو منصور الثعالبىّ المتوفّى سنة $\frac{٤٣٠}{١٠٣٨}$ فى كتاب خاصّ الخاصّ[2] : «إنّه أجمعُ الشعراءِ للكثير من المعانى فى القليل من الألفاظ وأبياته التى فى آخر قصيدته التى أوّلها ٭ أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ٭ تُشْبِه كلامَ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام وهى غُرّة حِكَم العرب ونهاية فى الحُسْن والجَوْدة تجرى مجرى الأمثال الرائعة الرائقة وهى[3] :

ومَنْ يكُ ذا فضلٍ فيَبْخَلْ بفضلِهِ	على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن يغترِبْ يَحْسِبْ عدوّاً صديقَهُ	ومن لا يُكرِّمْ نفسَهُ لا يُكرَّمِ
ومن لا يذُدْ عن حَوْضهِ بِسِلَاحِهِ	يُهدَّمْ ومن لا يَظلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ
ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خَليقةٍ	ولو خالَها تَخْفى على الناسِ تُعْلَمِ
ومَنْ لا يُصانِعْ فى أمورٍ كثيرةٍ	يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ »

فترون من كلّ ما تقدّم كم فرق بين أكثر أشعار زهير و بين أكثر أشعار السابقين له كأنّ زهيراً أحسّ بتقرُّب عهد جديد أعنى عهد الإسلام الذى بُدِّلَ فيه التوحُّشُ والجهلُ القديم بتهذيب الأخلاق والحِلْمِ . — وممّن اتّبع من هذه الجهة طريقة زهير ونظم فى شعره درر المواعظ والحِكَم والتأمّل لَبيد بن ربيعة العامرىّ

---

(١) يعنى الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٢) كتاب خاص الخاص ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإعجاز والإيجاز ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبى الأبيات فى كتابه المذكور فليراجع معلقه زهير .

الذى أدرك الإسلام إلاّ أنه لم يقلْ فى عهده إلاّ بيتاً واحداً اختلفت الرواة فيه . ومات على القول المرجّح سنة $\frac{٤١}{٦٦١-٦٦٢}$ وهو كبير السنّ وألّف معلّقته بين سنة ٦١٠ و٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعها وجد فيها الفخر بيد أنّ هذا الافتخار ليس بالشجاعة والأفعال الحربيّة مثل ما ورد فى معلّقة عنترة بل إنّما هو بالمكرمات ومكارم الأخلاق ومن المشهور ما فى ديوانه من العبارات الدينيّة بل الشبيهة بالعقائد الإسلامية مثل[1] (من بحر الرمل) .

إنّ تقوى ربّنا خيرُ نَفَلْ　　وبإذن الله رَيْثى وعَجَلْ

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ له　　بيديه الخيرُ ماشاء فَعَلْ

مَنْ هداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى　　ناعمَ البال ومن شاء أَضَلْ

ولكن ليس كلُّ ما يُنْسَب إليه فى ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل لا اختلاف فى بعض الأشعار أنّها مصنوعة .

إنّ أصحابَ المعلّقات الستّ (أى ما عدا معلّقة طرفة) أشعرُ الشعراء من الصنف الأوّل مع أنّ شعراء آخرين نبغوا فى عهدهم فى قبائل العرب فوصلت إلينا جملةٌ من مآثرهم . منهم عُرْوة بن الورد وهو عَبْسىّ مثل عنترة ومات قُبَيْل الإسلام . واشتهر مثل عنترة بالشجاعة والفضل ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحرّ الباسل وذمّ الذى يُسْتأجَرُ شغلُه[2] :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جَنّ لَيْلُهُ　　مُصافِى المُشاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ

يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ　　أَصابَ قِراها مِنْ صَديقٍ مُيَسَّرِ

---

(١) ديوان لبيد المطبوع بليدن سنة ١٨٩١ عدد ٣٩ بيت ١ — ٣ .

(٢) ديوان عروة بن الورد المطبوع بغوتنجن سنة ١٨٦٣ عدد ٣ بيت ١٣ — ٢١ . والأبيات مروية أيضاً فى الأصمعيات عدد ٣١ (ص ٢٩ — ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وحماسة أبى تمام ص ٢٠٨ — ٢٠٩ من طبعة بن (أو ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٤ — ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . — ومما يدل على كراهة العرب للعمل اليدوى بيت جرير فى ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٣ [ج ١ ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

يَنامُ عِشاءً ثمَّ يُصْبِحُ طاوِياً | يَحُتُّ الحصَى عن جَنْبِهِ المتعفِّرِ
قليلَ ٱلتماسِ الزَّادِ إلاَّ لِنَفْسِهِ | إذا هوَ أمسَى كالعَرِيشِ المُجَوَّرِ
يُعِينُ نساءَ الحيِّ ما يَستَعِنَّهُ | فيُمسى طَلِيحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ
وَلٰكنَّ صُعلوكاً صحيفةُ وَجْهِهِ | كضَوْءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلاًّ على أعدائِهِ يَزْجُرونَهُ | بساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
فإنْ بَعُدوا لا يأمَنونَ ٱقتِرابَهُ | تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتَنَظَّرِ
فذٰلكَ إنْ يَلْقَ المنيَّةَ يَلْقَها | حَميداً وإن يَسْتَغْنِ يَوْماً فأجْدِرِ

ومن الشعراء المَجيدين حاتم بن عبد الله الطائىّ المضروب المثل بجُوده الوافر فقيل إنّ بنته وصفتْهُ بين يدى النبىّ على هذه الصفة : « كان أبى يفُكُّ العانِىَ ويَحْمِى الذِّمار ويَقْرِى الضيف ويُشْبِع الجائع ويُفرِج عن المكروب ويُطْعِم الطعام ويُفْشِى السلام ولم يرُدَّ طالبَ حاجةٍ قطّ[1] » . وقال ابن الأعرابىّ إنّه « كان جَواداً يُشْبِه شعرُه جُودَهُ ويصدّق قولَه فعلُهُ .. .. إذا غنِم أنهب وإذا سُئل وهَب ...... وإذا أسَر أطلق[2] » . عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلّا أنّ فى صحّة بعض أشعاره نظراً فظاهر أنّ أبياتاً مجهولاً اسمُ مُنْشدها إنما عُزِيت إلى حاتم لما فيها من مدح الجُود والكَرَم .

وممّن كان بعد منتصف القرن السادس الأَفْوَه الأَوْدى سيّد قومه وقائدهم فى حروبهم عدّه العرب من حكمائها لما ورد من الحِكَم فى أبياته منها[3] (من بحر البسيط) :

لا يَصلُحُ الناسُ فَوْضَى لا سَراةَ لهم | ولا سَراةَ إذا جُهّالُهمْ سادوا
والبيتُ لا يُبْتَنَى إلّا له عُمُدٌ | ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ — ٩٨ من طبعة بولاق .

(٣) الأبيات مروية فى العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ . وروى القالى فى أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]) . [أما ديوان الأفوه فهو مطبوع فى كتاب الطرائف الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧] .

وأن تَجَمَّعَ أوتادٌ وأعمِدةٌ يوماً فقد بلغوا الأمرَ الذى كادوا

وممّن كان وفاتهُ قبل الإسلام بقليل ذو الإصبَع العَدْوانىّ صاحب الغارات الكثيرة والوقائع المشهورة والحِكَمِ والوصايا. ومنهم سَلامة بن جَنْدَل التميمىُّ من فرسان العرب الذى يروى عنه ديوان صغير(١) أكثره فى الحماسة والفخر مع شىء جميل من الوصف والتشبيه.

وممّن أدرك الإسلام مع وقوع جميع شعره فى الجاهليّة دُرَيْد بن الصِّمَّة الجُشَمىُّ أحد الشُّجْعان المشهورين وذوى الرأى الذى شهِد يوم حُنَيْن سنة ٨/٦٢٩ — ٦٣٠ فقُتل فيه (وهو كبير السنّ جدًّا) فيمن قُتل من الوثنيّين. ومنهم أيضاً شعراء غير المذكورين لا فائدة فى سَرْد أسمائهم فى هذه النبذة.

وقبل أن نختِمَ الكلام على هذا الصنف الأوّل من شعراء الجاهليّة لا بدّ من الإشارة إلى جَرْى النساء أيضاً من أهل البادية فى ميدان الشعر لا سيّما فى المراثى فإنّهنّ استنبطن «فى هذا الباب أساليبَ بديعة لم يتنبّهْ لها الفحولُ لِما طُبِعْن عليه من رِقّة الطِباع وشدّة الجزَع فى المصائب وصدق الحِسّ فيُبْرِزن عواطفهنّ بشعر سَلِس وكلام ليّن قريب المأخذ يكاد يسيل رقّةً وانسجاماً(٢)». فتعلمون أنّ الأب لويس شَيْخو أفرد لهنّ كتاباً جمع فيه كلّ ما تيسّر له من مراثى إحدى وستّين شاعرةً من عهد الجاهليّة ما عدا ديوان الخنساء الذى نشره على حِدة(٣). أمّا أشعار الخنساء فى رِثاء أخوَيْها صخر ومعاوية فشهيرة قالتها جميعها قبل الإسلام مع أنّها أدركت خلافة عمر(٤).

(١) — [عنى بطبعه المستشرق Huart فى المجلة الفرنسية *Journal Asiatique*, série X, vol. 15, 1910, p. 71-105 والأب لويس شيخو فى بيروت سنة ١٩٢١].

(٢) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب للأب لويس شيخو ص ١ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٧.

(٣) بيروت سنة ١٨٨٦ وطبع أيضاً ديوان الخنساء فى بيروت سنة ١٨٨٨ و ١٨٨٩ (ويليه الترجمة الفرنسية) وفى مصر سنه ١٨٨٨ و١٣٢٦ [و ١٣٤٨].

(٤) وفى الخنساء راجع G. GABRIELI, *I tempi, la vita eil canzoniere della poetessa araba al-Khansa'* Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansà und ihre Trauerliede*, Wien 1904.

٢ — فلننتقل إلى الصنف الثانى من شعراء الجاهليّة أعنى إلى الشعراء الوثنيّين الذين لازموا أبواب ملوك الحيرة وغسّان ومدحوهم وامتنعوا عن خشونة أهل البادية لتقرّبهم من أحوال سكّان المدن والرفاهِيَة والترّف . فمدْحُهُمْ للملوك ليس كمدح شعراء الصنف الأوّل لسادة قومهم لما أدخلوا فيه من أفراط المَلَق وافتخارهم ليس بالحماسة إلّا قليلاً ووصفُهم يجرى أحياناً فى مجالٍ مختلف عن مجال وصف أهل البرارى والغزَل وذكر الخمر فى قصائدهم يتّبعان مذهب أهل المدن . وربّما أخذوا عن نصارى الحيرة وغسّان معانى وعبارات دينيّة جديدة لم يسْبِقْ إليها أحد شعراء الصنف الأوّل .

لكن زهَيْر بن جَناب الكلْبىّ من أقدم شعراء الصنف الثانى لو صحّت قطعة شعر منسوبة إليه وردت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج علىّ الأصفهانىّ[1] وفى كتاب المعمّرين لأبى حاتم السجستانىّ[2] المتوفّى فيما بين سنتَىْ ٢٥٠ و ٢٥٥ وفى عدّة كتب أخرى :

لقدْ عُمِّرتُ حتى لا أُبالى	أحَتْفِى فى صَباحى أو مَسائى
وحُقَّ لمن أتتْ مائتانِ عامًا	عليه أن يَمَلَّ من الثَّواء
شهدتُ الموقِدين على خَزَازَى	وبالسُّلّانِ جمعًا ذا زُهاء
ونادمتُ الملوكَ من آل عمرو	وبعدهمُ بنى ماء السَّماء

والمراد بآل عمرٍو على المحتمل ملوك كِنْدة أى بنى عمرو بن حُجْر والمرادُ ببنى ماء السماء المنذر بن ماء السماء الذى تولّى مُلْك الحيرة من سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م إلى شهر يونيو سنة ٥٥٤ م . ولكن مع قطع النظر عمّا فى صحّة تلك الأبيات من الشكّ لا نجدُ فيما نُقل إلينا من أشعاره وأخباره شيئاً غير هذه الأبيات يدلّ على ملازمته ملوك الحيرة

---

(١) الأغانى ج ٢١ (المطبوع بليدن سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م) ص ١٠٠ .

(٢) كتاب المعمرين ص ٢٦ — ٢٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . أما خزازى والسلان فهما من أيام العرب قبل حرب البسوس بقليل أى فى أواخر القرن الخامس للميلاد .

بل إنَّ شعره شعرٌ بدويٌّ محض كما يصلح لمن قيل أنّه « كان سيدَّ بنى كلب وقائدَهم فى حروبهم وكان شُجاعاً مظفَّراً ميمون النقيبة فى غزواته[١] » .

فأوَّل من نتحقّق ملازمته ملوكَ الحيرة من الشعراء الوثنيّين عَبيد بن الأبرص الأَسَديُّ مجالس المنذر بن ماء السماء السابق ذكره . وشعره سلِس اللفظ ووصفه مصيب وهو يفتخر أحياناً على منوال أهل البادية فلمّا قُتل والد امرىءُ القيس الشاعر بيد بنى أسد ورثاه امرؤ القيس وقال إنّه يأخذ ثأر أبيه بقتل جُمّة من الأسديّين أنشد عبيد فى قصيدة طويلة[٢] :

يا ذا المُخوِّفنا بقتـــل أبيه إذلالاً وحَيْنا
أزعمتَ أنّك قد قتلـــتَ سَراتنا كذباً ومَيْنا
هلّا على حُجْر بن أُمّ قطامٍ تبكى لا علينا
إنّا إذا عَضَّ الثقا فُ برأسِ صَعْدتنا لوَيْنا
نحمى حقيقتَنا وبَعْــضُ القوم يسقُط بَيْنَ بَيْنا
هلّا سألتَ جموعَ كِنْـــدةَ يوم ولّوْا أيْنَ أيْنا
أيّامَ نضرِبُ هامَهُمْ ببواترٍ حتّى انْحَنَيْنا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يجرى فى الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعظَمَ قصيدته البائيّة الشهيرة التى عدَّها بعضُ اللغويّين من المعلّقات . وفيها أيضاً من الوصف ما يدلّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وترَعِهِ القريبة من الحيرة حين قال فى الدموع[٣] :

(١) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٩٣ — ٩٤ . [وفى صحة شعر زهير بن جناب نظر فليراجع ما قال الأب Lammens فى كتابه المسمى *Le berceau de l'Islam*, Roma 1914, p. 319-321] .

(٢) رويت الأبيات فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٣ — ١٤٤ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والأغانى ج ١٩ ص ٨٥ من طبعة بولاق [وديوان عبيد قصيدة عدد ٧ بيت ١ إلى ٧ من طبعة ليدن ١٩١٣] .

(٣) كتاب شرح القصائد العشر .... تصنيف أبى زكرياء .... التبريزى طبعة كلكته سنة ١٨٩٢ — ١٨٩٣ بيت ٩ و١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و١٠] .

أو فَلَج ببطن وادٍ للماء من تحته قَسيب
أو جَدْوَل فى ظِلال نخلٍ للماء من تحته سُكوبُ

فظاهر أنَّ هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسّطة التى ليس فيها أنهار . وعبيدٌ أمر الملكُ المنذر بن ماء السماء بقتله فى حكاية مشهورة يطول ذكرها هنا[١] .

وممّن جالس عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٦٨ أو ٥٦٩) طَرَفة بن العبد أحد أصحاب المعلّقات السبع وأقلّهم عُمْرًا لأنّه قُتل بأمر الملك وهو ابن ستٍّ وعشرين سنةً . وهو يفتخر فى شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشّجاعة والحماسة ويعتبر زوال كلِّ أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنّه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوبَ الزهد فإنّما يقصد لذّات العَيْش . وفى معلّقته أبيات تدلّ على قربه من الفرات والبحر (من الطويل)[٢] .

كأنَّ حُدوجَ المالكيّة غُدْوةً خَلايا سَفينٍ بالنواصف من دَدِ
عَدَوْليّةٍ أو من سفين ابن يامنٍ يجورُ بها الملّاحُ طوْرًا ويهتدى
يشُقُّ حَبابَ الماء حَيْزومُها بها كما قسَمَ التُّرْبَ المُفائِلُ باليدِ

وفى نفس معلّقته عند وصف ناقته قال[٣] :

وأتْلَعُ نهّاضٌ إذا صعِدت به كسُكّانِ بوصيٍّ بدجلةَ مُصْعِدِ

ومن حاملى لواء الشعر أيضاً المتلمّس خالُ طرفة وحكايته مع الملك عمرو بن هند أشهر من أن أذكرها . وعاصره أوس بن حَجَر التميمىّ الذى قال فيه أبو عمرو بن العلاء[٤] : « كان أوسٌ فَحلَ مُضَرَ حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه » . وقال

(١) [راجع فى عبيد مقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المسماة *La poesia di ʿAbīd Ibn al-Abraṣ* (*Rendiconti dell'Accademia d'Italia*, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma 1940, p. 240 - 251.)]

(٢) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥

(٣) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة الليدنية .

أبو ذؤيب: «وكان أوس عاقلاً فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم للحُمُر ولا سيّما للقوس وسبَق إلى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة». وإذا اطّلعنا على ما نقل إلينا من شعره وجدناه غير بعيد من أسلوب شعراء الصنف الأوّل المعاصرين له مع تقرُّبه من الملوك والمدن. ومن الجدير بالذكر أنه ربّما استعمل فى أبياته عباراتٍ أقربَ لدين النصارى منها لمذاهب الوثنيّين ثمّ إنّ زُهَير بن أبى سُلْمَى كان راوىَ شعره.

ولكن الذى فاز فى قريضه بالرُّتْبة العُلْيا من شعراء ملوك الحيرة وغسّان وكان من أبرز المبرّزين فى ميدان الشعر هو النابغة الذُّبيانىّ فقدّمه بعضُ أهل الأدب والشعر على امرئ القيس [1] وقالوا إنّه أوضح الشعراء القدماء معنًى وأبعدُهم غاية وأكثرهم فائدة [2]. وقيل أيضاً إنّه «أحسنُهم [3] ديباجةَ شعر وأكثرهم رونقَ كلام وأجزلهم بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلُّف ونبَغ بعد ما احتنك وهلك قبل أن يُهْتَرَ». — كان مع المنذر بن ماء السماء (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ — ٥٨٠ م) وأبى قابوس النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ — ٦٠٢ م) فلمّا وُشِىَ به إلى النعمان هرَب منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسّان فى الشام ومدحه بقصائد مشهورة ذكر فيها شجاعةَ الغسّانيّين فى الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء [4]:

إذا ما غزوْا بالجيش حلّقَ فوقَهمْ عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائب

(١) [راجع أيضاً كتاب فحولة الشعراء للأصمعى المطبوع فى *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft*, LXV, 1911, p. 492.]

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ — ١٣١٠

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة ليدن. — واحتنك: أحكمته التجارب أى جعلته حكيماً. واهتر: فقد عقله من الكبر والمرض.

(٤) ديوان النابغة الذبيانى عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Divans of the six Arabic poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله فى هذه الطبعة الأستاذ نلينو فى *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, p. 174-176].

.... فهم يستاقون المنية بينهم   بأيديهم بيض رقاق المضارب

ووصف فيها أيضا ما كان لهم من الترف والرفه[١] :

محلتهم ذات الإله ودينهم   قويم فما يرجون غير العواقب

رقاق النعال طيب حجزاتهم   يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم   وأكسية الإضريج فوق المشاجب

يصونون أجسادا قديما نعيمها   بخالصة الأردان خضر المناكب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده   ولا يحسبون الشر ضربة لازب

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا   بقومى وإذ أعيت على مذاهبى

فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من البون الشاسع . — وبعد إقامة سنين عند بنى غسان رجع إلى الحيرة وجالس الملك النعمان ثانية إلى موت الملك سنة ٦٠٢ م ثم عاش فى قبيلة ذبيان ومات قبل ظهور الإسلام . ووصف بديع الزمان الهمذانى فى مقالته الأولى[٢] شعر النابغة فقال : « ينسب إذا عشق ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا رهب » . وقال الأصمعى :[٣] « كفاك من الشعراء أربعة زهير إذا طرب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب وعنترة إذا كلب » — أما ما يلام النابغة عليه فإنه أول فحول الشعراء لم يقل الشعر إلا طمعا فى الكسب . قال ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب العمدة[٤] : « كانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها ... حتى نشأ النابغة الذبيانى فمدح الملوك وقبل

---

(١) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس ١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

(٢) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والمزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الصلة على الشعر وخَضَع النعمان بن المنذر وكان قادرًا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسّان فسقطت منزلتُهُ وتكسّب مالاً جسيما حتى كان أُكلُهُ وشربه فى صِحاف الذهب والفضّة وأوانيه من عطاء الملوك . وتكسّب زهير بن أبى سُلْمَى بالشعر يسيرًا مع هَرِم بن سنان . فلمّا جاء الأعشى جعل الشعر متجرًا يتجرُ به نحو البلدان » .

والأعشى هذا هو ميمون بن قيس من شعراء الصنف الثانى أيضاً المشهور برقّة شعره لفظاً وتفنُّنه بحرًا نادم ملوك الحيرة وكثُر فى وصف القِيان والخمر كأنّه من شعراء عصر العباسيّين الأوّل فى زمان هارون الرشيد وفى أبياته أيضاً أقوالٌ تتقرّب من اعتقادات النصارى فجاء فى ذلك فى كتاب الأغانى[1] ، ما نصّه : « قال لى يحيى بن متّى راوية الأعشى وكان نصرانياً عِبادياً وكان معمّرًا قال كان الأعشى قَدريًّا وكان لبيد مثبتاً قال لبيد :

من هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضَلْ

وقال الأعشى :

إستأثَرَ الله بالوفاء وبالـ ـعَدْل وولّى الملامةَ الرجُلَا[2]

قلت فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قِبَل العِباديّين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقّنوه ذلك » .— وأدرك الأعشى الإسلام فقصيدته الجميلة التى مدح فيها النبىَّ مشهورة .

ممن يدخل جزئياً فى الصنف الثانى من شعراء الجاهليّة لملازمته ملوكَ بنى غسان مدّة سنين وذلك قبل الهجرة النبويّة هو حسّان بن ثابت المولود بيَثْرِب (المدينة) المتوفّى سنة ٥٤ بعد ما طعَن فى السنّ . فإنّ أجمل شعره ما قاله فى الجاهليّة واصفاً ملاذّ عيشته فى جِلّق وغيرها من قرى الشام ومادحًا الملوك الغسّانيّين الذين كان يفدُ

(١) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به وخص به — ولى : جعله والياً عليه .

عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز . ففي كتاب الشعر والشعراء لابن قتَيْبة المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نَصُّهُ :[١] « قال الأصمعيّ الشعرُ نَكِدٌ بابُهُ الشرُّ فإذا دخل فى الخير ضَعُف . هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام سقط شعره . وقال مرّة أخرى شعرُ حسّان فى الجاهليّة من أجود الشعر فقُطِع متنُهُ فى الإسلام لحال النبيّ صلعم »[٢] . ومن جيّد شعره وأشهره قصيدة أوّلها « أسألتَ رسْمَ الدار أمْ لَمْ تسألِ »[٣] مدح فيها ملوك بنى غسّان ووصف لذيذ عيشه فى الشام وافتخر بعشيرته من الخَزْرَج . وهى لينة الألفاظ أسهلُ فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأوّل بكثير وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المَدَر المتمتّعين بأنواع الترَف والرفاهية ثمّ إنّ إطناب الشاعر فى وصف الخمر يبعُد عن أسلوب شعراء أهل البادية كما يبعُد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصورُ فى بلاغة خُطّابهم ووَفْدهم على أبواب الملوك . — أمّا أشعار حسّان فى عهد الإسلام فهى على نَمَط غيرِ هذا فسيأتى الكلامُ عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣ — وهذا أوان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهليّ أعنى شعر النصارى المقيمين فى مملكة اللخميّين بالحيرة وما يليها وفى مملكة بني غسّان فيما بين الشام والبادية . — لا يخفى عليكم أنّ الأب لويس شيخو بما له من اليد الطولى فى الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م فى بيروت القسم الأوّل من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

(٢) وهذا الحكم الذى أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٠ فى كتاب خاص الخاص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ « من عجائب أمر حسان أنه كان رضى الله عنه يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جداً ويغبر فى نواصى الفحول ويدعى أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء فى ذلك . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب فى طريقة من الملك » . [وراجع كتاب الموشح للمرزبانى ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٤٣] .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة بمبئ سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ — ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ — ١٧ من طبعة ليدن ١٩١٠ [أو ص ٣٠٧ — ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

وهو عبارة عن مجلد ضخم جمع فيه من عدّة كتب جملةً وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أنّ أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى . ولكنّه بالغ فى ظنّه هذا أىّ مبالغة كأنّه زعم نصرانياً كلّ شاعر جاهلىّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد فى شعره شىء ممّا يتقرّب من اعتقاد وحدانيّة الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينيّة فعدّ من النصارى امرأ القيس والنابغة وطرفة وغيرهم من شعراء الصنف الأوّل والثانى الذين لا شكّ لكلّ مُنْصِف فى أنّهم من أصحاب الوثنيّة . أمّا المؤكّد المُثْبَت فإنّما هو أنّ دين النصرانيّة ذاع فى القرن السابق للهجرة فى شمالىّ جزيرة العرب [١] فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقِسمٍ غير صغير من بنى تميم فضلاً عن أكثر المقيمين بمملكة بنى غسّان وأكثر سكّان مدينة الحيرة وسُميت نصارى الحيرة بالعباد [٢] ولعلّ المقصودَ عباد الله أو عباد المسيح ونصرانيّتهم (وهى على مذهب النَّسْطُوريّة) قديمة لأنّنا نعرف أسماءَ أساقفة الحيرة من سنة ٤٠٠ م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤ م. — ومن أقدم شعراء النصارى وصل إلينا شىء من أشعارهم أبو دُوَاد الإيادىّ قد ولاه المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) على خيله « فكان وصّافاً للخيل وأكثر أشعاره فى وصفه وله فى غير وصفه تصرُّف بين مدح وفخر وغير ذلك إلاّ أنّ شعره فى وصف الفرس أكثر » [٣]. ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات وبُعد شعره عن أساليب عرب البادية . — وأشهر منه عَدِىّ بن زيد العبادىّ [٤]

(١) [انظر ما قاله فى هذا الموضوع الأستاذ نلينو فى ج ٣ ص ١٢١ — ١٦٨ من كتابه *Raccolta di scritti editi e inediti*, Roma 1941] .

(٢) راجع G. ROTHSTEIN, *Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira*, Berlin 1899, p. 19-28

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق – أما أبيات له فهى مروية فى حماسة البحترى ص ١٣١ من طبعة ليدن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر السلف من الناس) والأصمعيات عدد ٢٩ ص ٢٧ — ٢٨ (١٥ بيتاً فى الطرد) وعدد ٧٢ ص ٦٨ — ٧٠ (٤٠ بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٤) راجع : J. HOROVITZ, *'Adi ibn Zaid the poet of al-Hirah* (*Islamic Culture*, IV, 1930, p. 31-69); F. GABRIELI, *'Adi ibn Zaid il poeta di al-Hirah* (*Rendiconti Accademia dei Lincei*, classe scienze morali, *VIII serie*, vol. III, 1948, p. 81-96).

من عائلة قديمة بالحيرة تعلّمَ الفارسيّة وتولّى الأمور العربيّة بديوان كسرى أَبَرْوِيز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) من ملوك بنى ساسان بالمدائن فأرسله مرّة كسرى إلى ملك الروم بهديّة من طَرَفه ثمّ استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ — ٦٠٢ م) من المدائن إلى الحيرة وولّاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وشَتْ إليه به الحُسّاد. وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأسهل فهماً فلذلك لم يَعُدّوه علماء اللغة العربيّة من الفحول « وكان الأصمعىّ وأبو عبيدة يقولان: عدىّ بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم[1] يعارضها ولا يجرى معها مجراها »[2]. وعلى قول الأصمعىّ « كانت الرواة لا تروى شعر أبى دؤاد ولا عدىّ بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء »[3] أو كما قيل « لأنّ ألفاظه ليست بنجديّة »[4]. والحقُّ يقال إنّ الجواليقىّ المتوفىّ سنة ٥٣٩ كثيراً ما روى أبياتاً لعدىّ بن زيد فى كتاب المعرّب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الأراميّة والفارسيّة فى كلام عدىّ ومعانى شعره. وهو يخالف أيضاً شعراءَ نَجْد فى استنكافه من الأعاريض الطويلة واختياره القصيرة ثمّ فى أسلوب خمريّاته الشبيهة بخمريّات الأعشى وحسّان بن ثابت. ومن المشهور أنّ الخليفتين الأمويّيْن هشام بن عبد الملك ($\frac{١٠٥}{٧٢٤}$ — $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$) والوليد بن يزيد ($\frac{١٢٥}{٧٤٣}$ — $\frac{١٢٦}{٧٤٤}$) كانا يُحبّان سماع شعر عدىّ بن زيد فى الشراب[5]. ولكن مع حبّه لوصف القيان والصهباء كعين الديك والصَّبوح حمله دينه مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلّها وذكر ما هو قريب من الزهد فى بعض قصائد لطيفة قلّدها غير مرّة المتأخّرون

(١) يعنى الكواكب السيارة.
(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق.
(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ — ١٦ من طبعة بولاق.
(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة ليدن.
(٥) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٦٧ و ج ٦ ص ١٢٣ من طبعة بولاق.

فقال مثلاً بلسان حال المقابر[١] : (من بحر الرمل)

مَنْ رآنا فَلْيُحَدِّثْ نفسَهُ   أنَّهُ موفٍ على قَرْنِ زَوَالْ
وصروفُ الدهر لا يبقى لها   ولِمَا تأتى به صُمُّ الجبالْ
رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا   يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالْ
وأباريقُ عليها فُدُمٌ   وجيادُ الخيلِ تَرْدِى فى الجِلالْ
عمّروا دهرًا بعَيْشٍ حسنٍ   أمِنِى دَهرِهِم غيرُ عِجالْ
ثم أضحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم   وكذاكَ الدهرُ يُودِى بالرجالْ
وكذاك الدهر يرمى بالفتى   فى طِلاب العَيْشِ حالاً بعد حالْ

فظاهر ما فى هذا الشعر من مشابهة زُهْديّات بعض الشعراء الإسلاميّين لا سيّما أبى العتاهية فليس من البعيد أنّ شعر عدىّ بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخّرين فى وصف فناء الأمور الدنيويّة وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره . ثمّ من الجدير بالذكر أنّ عدىّ بن زيد أحبّ فى زهديّاته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثُرَ إيرادُ أبياته كأنّها شواهد تاريخيّة فى كتب التاريخ مثل كتاب الطبرىّ المشهور . ومن هـذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١ م وهو فى الحبْس[٢] : (من بحر الخفيف)

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٣٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً فى كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ — ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠ . — قرن: طرف. وردى الفرس: رجمت الأرض بحوافرها. وأدى به الموت: ذهب به. وفدم: جمع فدام المصفاة تجعل على فم الأبريق ليصفى به ما فيه من شراب. وأبريق وفدام كلتاك فارسيتان معربتان وأصل الأولى آب ريز وأصل الثانية pandam . راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis in antiquis Arabum carminibus et in Corano peregrinis*, Lugduni Batavorum 1880, p. 3.

(٢) الأبيات مروية فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ — ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ — ٤٥٦ وحماسة البحترى عدد ٣٩٤ ص ١٢٩ — ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ — ٨٧ من طبعة بيروت . ضام يضيم : ظلمه وقهره . معرضاً : ممتداً أمامه. إمة: رخاء العيش . أما كسرى أنوشروان فكان ملك الفرس بين سنتى ٥٣١ — ٥٧٩ م . أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولى الأمر أولهم من سنة ٢٤١ إلى سنة ٢٧٢ م . والثانى من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . ويروى البحترى فى حماسته عدد ٣٩٣ و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهى أيضاً من أبيات زيد .

أيها الشامتُ المُعيِّرُ بالدهـــر أأنتَ المبرَّأُ الموفـورُ
أمْ لديك العهدُ الوثيق من الأيّـــام بل أنت جاهل مغـــرور
منْ رأيتَ المنونَ خَلّدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضامَ خفيرُ
أين كسرى كسرى الملوكِ أنوشرْ وانَ أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الـــروم لم يبقَ منهمُ مذكور
وأخو الحَضْر إذْ بناه وإذْ دِجْـــلةُ تُجْبَى إليـه والخابور
شاده مرمراً وجلّله كِلْـــساً فللطير فى ذُراه وُكور
لم يَهبْهُ ريْبُ المنون فباد الـــمُلكُ عنه فبـابه مهجور
وتذكّرْ ربَّ الخَوَرْنَق إذْ شـــرّف يوماً وللْهُدَى تفكير
سَرَّه مالُهُ وكثرةُ ما يَمْـــلِكُ والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدير
فارْعَوَى قلبُهُ فقال وما غِبْـــطةُ حَيٍّ إلى المات يصير
ثُمَّ بعد الفلاح والمُلْك والأ مّةِ وارَتْهمُ هنـاك القبور
ثمَّ صاروا كأنّهم وَرَقٌ جَـــفَّ فألْوَتْ به الصَّبا والدبور

وخلاصة القول أنّ شعر العباديّين أصبح ذا تأثير لا يُنكَر فى المعاصرين المجاورين لهم من الوثنيّين مثل الأعشى وفى بعض المتأخّرين الإسلاميّين لا سيّما فى مجال الزهديّات والخمريّات .

٤ — يبقى علىّ أن أتكلّمَ بالإجمال فى الصنف الرابع من شعراء الجاهليّة أى فى شعراء أهل المَدَر الذين لا يدخلون فى الصنف الثانى والثالث فأقصِر قولى على اثنين منهم : قَيْس بن الخَطِيم وأُمَيّة بن أبى الصَّلْت .

وُلد قيس بن الخطيم الأوسىّ بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح فقُتل أبوه وهو صغير السنّ جداً فى حروب جرت بين الأوس والخَزْرَج فلمّا شبّ قيس وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أَخْذ ثأر قتل والده ولم يزلْ يتربّصُ بذلك فى المواسم

حتى ظَفِر بقاتل أبيه وقاتل جَدّه فقتلهما . فله فى ذلك قصيدة تقولون أنّها من نسج أهل البادية[١] : (من بحر الطويل)

طَعَنتُ ابنَ عَبْدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءها

مَلَكتُ بها كَفّى فأنْهرتُ فَتْقَها ... يَرى قائمٌ مِن دونها ما وراءها

يَهُون علىَّ أنْ تَرُدَّ جِراحُها ... عُيونَ الأواسِى إذ حَمِدتُ بَلاءها

كنتُ امْرأً لا أسْمَعُ الدّهْرَ سُبّةً ... أُسَبُّ بِها إلاّ كَشَفْتُ غِطاءَها

فإنّى فى الحَرْبِ الضَّروسِ مُوَكَّلٌ ... بإقدامِ نَفْسٍ ما أُرِيدُ بَقاءَها

مَتَى يَأْتِ هذا المَوْتُ لا تُلْفَ حاجةٌ ... لِنَفْسى إلاّ قَدْ قَضَيْتُ قَضاءَها

ثأرْتُ عَدِيًّا والخَطِيمَ فَلَمْ أُضِعْ ... وِلايَةَ أشْياخٍ جُعِلْتُ إزاءَها

ولكنّه مدنىّ لا بدوىّ فى نوع التغزّل إذا قال القصائد المشهورة فى عَمْرة بنت رَوَاحة ومات قبل الهجرة بقليل .

أمّا أُمَيّة بن أبى الصّلْت الثّقَفِىّ فهو من أهل الطائف كان فى الجاهليّة رغِب عن عبادة الأوثان و يؤمن بالبَعْث وله أشعار مليحة حكى فيها قِصَص الأنبياء وأتى بألفاظ لم يعرِفْها العربُ أخذها من أهل الكتاب كما أخذ منهم أيضاً الأحاديث التى جاء بها فى شعره . ويكثُر فى أبياته ذكرُ الله والاستدلالُ على وجوده وحكمته باعتبار عجائب المخلوقات ووصفُ رحمته تعالى وعدد الأبيات المنسوبة إليه المتفرّقة فى كتب إسلاميّة شتّى يزيد عن الأربعمائة إلاّ أن لا شكّ فى كون كثير منها مختلَقةً لا سيّما المرويّة فى كتاب البدء والتاريخ لمطهّر بن طاهر المَقْدِسىّ من علماء القرن الرابع للهجرة فإنّها مملوءةٌ عباراتٍ وألفاظاً قرآنيّة . ومن المشهور أن أميّة لم يُسْلِمْ بل رثى من قُتل من

(١) حماسة أبى تمام ص ٨٥ — ٨٧ من طبعة بن أو ج ١ ص ٩٤ — ٩٧ من طبعة بولاق فراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه فى ديوانه ص ٣ — ٥ من طبعة ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalski (انظر فى ص ١ — ٦ الترجمة الألمانية والحواشى)] .

قريش فى وقعة بَدْر ومات فى السنة الثامنة للهجرة[١] . وإنّى أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنها معروفة .

قد اتّضح ممّا تقدّم أنّ الشعر الجاهلىّ مصدر أكثر فنون الشعر العربىّ فى عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والرثاء والهجاء والوصف والزهديّات والطرديّات والتشبيب والخمريّات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروضاً حتّى لا يخفى أنّ الشعراء المتأخّرين لم يزيدوا على البحور القديمة إلاّ شيئاً قليلاً جدًّا . كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأنّه دفتر عظيم قيّدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذى نشأ فى نجد ثمّ شاع فى سائر أنحاء جزيرة العرب الشماليّة لَما تهيّأت قبل الإسلام وحدةُ اللغة الأدبيّة مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتبايُن لهجاتهم[٢] . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهليّة بفضائل الشعر بعد الإسلام استصْوَبْنا قول ابن رَشِيق القَيْرَوانىّ فى كتاب العُمْدة[٣] : « إنّما مَثَل القدماء والمحْدَثين كمَثَل رجُلَيْن ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثمّ أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلْفة ظاهرة على هذا وإن حسُن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشُن » .

٥ — تقدّمت لَمْحَة فى شعر عرب الجاهليّة فقبل الشروع فى الوصف الإجمالىّ للآداب بعد ظهور الإسلام يبقى علىّ أن أقول كلمة فى حال كلامهم المنثور . إنّى ذكرت فى أحد الدروس السابقة أنّ ابتداء الآداب عند كلّ أمّة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدمَ من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادىّ لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيئاً بالتعبير عن حُميّا العواطف وشدّة الطَّرَب .

(١) [اعتنى الدكتور Schulthess بجمع بقايا ديوان أمية (وهى ٥٠٠ بيت) وبنقلها إلى اللغة الألمانية وبطبعها فى ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie, vol. VIII, 3) ثمّ فى سنة ١٣٥٢هـ ١٩٣٤م طبع فى بيروت ديوان لأمية بن أبى الصلت يحتوى ٣٠٠ بيت فاعتنى بجمعه بشير يموت . لا توجد فى طبعة ليبسك كل الأبيات المروية فى طبعة بيروت] .

(٢) [فى هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ نلينو « كيف نشأت اللغة العربية » فى مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد ١ أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ — ٤٨] .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أمّا الشعر فبانسجامه ووزنه يحرّك أهواء النفس ويُثير كامنَ حركاتها وهو ألذُّ في الأسماع وأشدُّ وقعاً في القلوب من الكلام المنثور لا سيّما إذا أُنشد على الغِناء وآلات الطرب كما كانت العادة فيه عند كلّ الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنّه القلبُ أو يتصوّرُه النفس بلا تفكّرٍ وتعمُّد . وبما أن القوّة الخياليّة عند كلّ أمّة غلبتْ أوّلاً على القوّة الفكريّة والنظريّة ومال الإنسان إلى ما استحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء لا عجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبيّة المستظرفة . أمّا الإنشاء المنمّق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد فلم ينشأ إلا وقتَ بلوغ الأمم درجةً أعلى في سير ترقّيها في المدنيّة والآداب . ثمّ لسبق الشعر سبب ثانٍ وهو أن الغرض من الشعر أو المنثور المستظرَف ليس فقط إبرازَ العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليدها وتداولُها على ألسنة الناس . فإذا كانت صناعة الخطّ مجهولةً أو قلّ استعمالُها لا سبيل إلى إبقاء المنثور وحِفظِه من ورود التغيير والنَّقْص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغيُّر العبارة والألفاظ يضيع ما كان فيه من العذوبة والرّشاقة والأناقة ولا يبقى إلاّ كلام ركيك معتاد لا يُعدّ من المستظرَف ولا تهشّ إليه الأسماعُ ولا ترتاح له القلوب . أمّا الكلام المقيّد بالوزن والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبراً على توالى الزمان وأخفُّ على ألسنة الرُّواة فيمكن أن يشيع في الآفاق ذكرُهُ ويعظُمَ في الناس خَطَرهُ وإن لم يحظَ بالتخليد في بطون الصُّحُف .

فلهذين السببين كان مُعظَمَ براعة كلام العرب في الشعر على كثرة ما كانوا يروونه في أسمارهم ومواسمهم من الحكايات المتعلّقة بأنسابهم وغزواتهم وأيّامهم (أي حروبهم ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التي كانوا يشرَحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهي من قبيل ما يوجد في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن العسكريّ المتوفّى سنة $\frac{٣٩٥}{١٠٠٥}$ وفي كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد المَيْدانيّ المتوفّى سنة $\frac{٥١٨}{١١٢٤}$. وربّما حفِظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تَدْمُر والفُرْس والروم

والعبرانيّين كما يظهر من إشارات إليها وردت فى أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخُرافيّة قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلّها هى أساطير الأوّلين التى كانت كفّار مكّة يشبّهون بها إنذارات القرآن وقصصه[1] . والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجميّة فى مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النَّضْر بن الحارث بن كَلَدَة الذى قتله النبىُّ صَبْراً بأُثَيل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثمّ رجع إلى مكة وعلّم سكّانها ضرب العُود والغِناء فإذا جلس النبىُّ مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلمُّوا إلىّ أحدّثكم أحسنَ من قِصَص محمّد ثمّ حدّثهم أحاديث ملوك الفُرْس وأخبار رُسْتَم واسْفَنْديار ويُلهيهم من القرآن ومن ذكر الله ففيه نزلت الآية[2] : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . — وعند الكلام على آداب الجاهليّة بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أمم أجنبيّة اتّخذها العرب وخصّصوها ببعض رجالهم المشهورين .

إلّا أنّ أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعةَ أو التفكّه فرأى العربُ فيها المضمونَ ولم يَرَوْا وَشْى الكلام وحَلْى المعانى ودررَ الألفاظ . أمّا الذى قصدوا فيه رقّةَ الكلام وتنميقَ الإنشاء وغايةَ البلاغة فالحِكَمُ النثرية والخُطَب . ومن حِكَمهم لم يصل إلينا إلّا شىء قليل جدًّا أغلبُهُ على صورة أمثال قصيرة فلا شكّ أنّها من قبيل وصايا لُقْمان المرويّة فى القرآن الشريف[3] . — أمّا فنّ

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و٨ : ٣١ و١٦ : ٢٤ و٢٣ : ٨١ — ٨٣ و٢٥ : ٤ — ٥ و٢٧ : ٦٧ — ٦٨ و٤٦ : ١٧ و٦٨ : ١٥ و٨٣ : ١٣ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ — ٧ .

(٣) سورة ٣١ (لقمان) ١٢ — ١٩ .

الخَطابة فله عند العرب مقامٌ عالٍ جدًّا فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يُحْمَد فيها خطيبٌ لملأنا بِضْعة صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسىّ المبنىّ على الحرّيّة ونوعٍ من مجلس الشُّورَى [1] . فكان رجال كلّ قوم من أهل الوبر يباحثون أهمّ أمور القوم فى مجلسهم كما كان كِبارُ أهل مكّة يتفاوضون فيها فى دار النَّدْوة المنسوبِ تأسيسُها إلى قُصَىّ بن كلاب . فكان للخطيب البليغ شأنٌ عظيم . ومن الحرىّ بالذكر أنّ الألفاظ التى كان العرب يعبّرون بها عن متولّى حُكْم قوم من أقوامهم أعنى السيّد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيل فى أنحاء اليمن إذا بَحَثْنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات الساميّة وجدنا أنّ معناها الأصلىّ إنّما كان القائلَ أو المتكلّمَ [2] . ثمّ أثّرت فى ارتقاء فنّ الخَطابة سياسة العرب الخارجيّة أعنى العلائق بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسّان فكان حينئذ الخطيبُ وكيلَ جميع قبيلته يخطُب باسمها فى المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدِّفاع عن حقوق قومه . فوصف أَوْس بن حَجَر منصِب الخطيب فى داخل قومه وخارجه حين قال [3] وهو يرثى أبا دُلَيْجة فَضالة بن كَلَدة : (من بحر البسيط)

أبا دُلَيْجةَ مَنْ يَكْفِى العشيرةَ إذْ أمسَوْا مِنَ الخَطْبِ فى لَبْسٍ وبَلْبالِ
أمْ مَنْ يَكُونُ خطيبَ القوم إذْ حَفَلُوا لدى الملوكِ ذوى أَيْدٍ وأَفْضالِ

ولهم عوائد خاصّة عند إلقاء الخُطَب الاحتفاليّة وعند أهل المدن الحجازيّة فى أواخر القرن السادس للمسيح نوعٌ ثانٍ من الخَطابة جارٍ فى أمور الدين والأخلاق والزهد

(١) فى نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A.NALLINO *Sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo, Raccolta di scritti editi e inediti, vol.* III, Roma 1941, p. 64-86.

(٢) قال التبريزى فى شرحه على حماسة أبى تمام (ص ٧٠٥ من طبعة «بن» أو ج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : «وسمى الرئيس زعيما لأنه يزعم عنهم أى يقول كما قيل له قيل ومقول» وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldeke فى *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol.42,1888, p. 481. وراجع أيضاً ما قاله Hommel فى نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II , *p.* 52 *note* 4

(٣) عدد ٣٢ بيت ٤ و ٥ من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ اعتنى بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله فى هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893,p. 323-334).

وهو نوع اشتهر به زيدبن عمرو بن نُفَيْل من أهل مكّة وقُسّ بن ساعدة الإيادىّ النصرانىّ أسْقُف مدينة نجران الذى ضُرب به المَثَل فى الفصاحة والبلاغة . بَيْدَ أنّ القليل الذى بَلغَنا من خطب زيد بن عمرو مختلَقٌ من غير شكّ[1] وما يُروَى عن قُسّ ليس إلّا قِطع صغيرة لا نعرف أهى ألفاظه أم لُباب كلامه فقط . وما يُنسَب إلى قسّ هو كلّه بالكلام المسجّع الذى كان يألفه الكُهّانُ لارتباطه الأصلىّ بالسحر القديم حسبما سأبيّنه إن شاء الله .

وقُصارى الأمر أنّ العرب فى الجاهليّة لم يخرجُوا فى النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطّعات فلو جاز قياسُ كتاب دينىّ جليل بسائر التصانيف لقلتُ إنّ أوّلَ كتاب مطوّل صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن الشريف .

٦ — لا بُدّ للباحث عن تاريخ الآداب العربيّة من الفحص عمّا يتعلّق بالقرآن من المسائل اللغويّة والأدبيّة منها مسألة لغته أهى لغة أهل قريش المعتادة أم لا ومسألة إنشائه الذى اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنّه كلام منثور خارجٌ عن نوعى المنثور المتداولَين لا يسمّى مُرسَلاً مُطلَقاً ولا مسجّعاً ومسألة جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصدّيق وفى عهد عثمان بن عفّان ثمّ مسألة تواتره وقراءاته ومسألة بلاغته وإعجازه وهلمّ جرّا . ولكنّى فى هذه المقدّمة المختصرة لا أُريد بيانها ولا حلّها قاصراً على التلميح إليها والإشارة إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذى لا يُقدَّر مقدارُهُ فى حياة الأمم الإسلاميّة وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل فى النصارى لأنّ مدار الإنجيل ليس إلّا على العقائد والأخلاق خلافاً للقرآن الذى يتضمّن أيضاً أحكاماً فقهيّة مهمّة أساسيّة لا يجوز للمسلم الانصراف عنها فى التشريع . فالتشريع عند النصارى عَمَلٌ بشرىٌ ليس له ارتباط متين بأقوال الإنجيل أمّا التشريع فى

(١) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2ème édition, 1ère partie, Leipzig 1909. p. 18-19.

الإسلام فلا يُتصوَّر إلاّ كفرع من العلوم النقليّة الدينيّة أصوله فى القرآن والسنّة والاجماع . فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الإسلاميّة على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأمم النصرانيّة . وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن فى الهيئة الاجتماعيّة الإسلاميّة ودخول أحكامه فى أمور تكون دنيويّة فقط عند النصارى . ثمّ لاشكّ فى أنّ القرآن كان أشدّ العوامل فى انتشار لغة العرب فى غير بلادهم القديمة وصيْرورتها لغة العلم عند كافّة المسلمين مهما كان بُعْد مساكنهم عن أقطار الحجاز . ولا ريْبَ أيضاً أنّ القرآن كان مصدر علومٍ شتّى اختصّ بها المسلمون أو ساعَدَهم على التقدُّم فى علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطىّ [1] فى النوع الخامس والستّين من كتاب الإتقان فى علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبى الفضل المُرْسىّ ما نصّه [2] : « ثمّ [أى بعد التابعين] تقاصرت الهِمَم وفترت العزائم وتضاءل أهلُ العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أُودِع فيه فسُمّوا القراء واعتنى النحاة بالمعرَب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدّى ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى أن بعضهم أعرب مشكله و بعضهم أعر به كلمة كلمة واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر فأجروا الأول على حُكْمه وأوضحوا معنى الخفى منه وخاضوا فى ترجيح أحد محتَملاتِ ذى المعنيين والمعانى وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره

---

(١) توفى السيوطى سنة $\frac{911}{1505}$.

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده و بقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسَمَّوْا هذا العلم بأصول الدين وتأملت طائفة منهم معانى خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا فى التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسَمَّوْا هذا الفن أصول الفقه وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرّعوا فروعه و بسطوا القول فى ذلك بسطاً حسناً وسَمَّوه بعلم الفروع و بالفقه أيضاً وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَّوْا ذلك بالتاريخ والقصص وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التى تُقلقِل قلوبَ الرجال وتَكاد تُدَكْدِكُ الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعِقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر فسُمّوا بذلك الخطباء والوعاظ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان وفى منامى صاحبَى السجن وفى رؤياه الشمسَ والقمر والنجوم ساجدة وسَمَّوْا تعبير الرؤيا واستبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعُرْف عادتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله وَأمُرْ بالعُرْف وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم

الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادىء والمقاطع والمخالص والتلوين فى الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك هذه الفنون التى أخذتها الملة الإسلامية منه » .

الباب الثالث

الآداب فى صدر الإسلام وفى أيام الخلفاء الراشدين

١ الشعر فى مدح النبى — ٢ شعراء المشركين الحاقدون على النبى —
٣ الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا فى أبياتهم بأمور دينية —
٤ شعر الفتوحات — ٥ الديوان المنسوب إلى على بن أبى طالب — ٦ النثر

أمّا حال الآداب العربيّة الدنيويّة فى صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين ف[illegible]
هو[١] ؟ قال ابن خلدون فى مقدمته[٢] : « ثمّ انصرف العرب عن ذلك [أى عن
الشعر] أوّلَ الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحْى وما أدْهَشَهم من
أسلوب القرآن ونظمه فأُخْرِسُوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ثم
استقرّ ذلك وأُونِسَ الرُّشْدُ من الملّة ولم يَنْزِلِ الوحْىُ فى تحريم الشعر وحَظْره وسَمِعَه
النبىّ صلعم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دِيدْنهم منه » . وقال عمر بن الخطاب
« كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب
وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته »[٣] — هذان القولان
لا يوافقان حقيقة الأمر البتّة فما أوردتهما لو لم أعثُر على مثل هذا الفكر فى تواريخ

(١) [فى هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higr bis Zum Tode des Kalifen ʿUmar* Leipzig 1937.

(٢) مقدمة لابن خلدون ص ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ او ج ٣ ص ٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجمحى [فراجع طبقات الشعراء للجمحى ص ١٠ من طبعة ليدن سنة ١٩١٦] .

الآداب العربيّة المتداولة فى المدارس المصريّة مثل أدب اللغة العربيّة لمحمّد حسن المرْصَفى[(١)] وأدبيات اللغة العربية لمحمّد عاطف بك وصاحبيه[(٢)] وخلاصة أدب اللغة لابراهيم عبد الخالق[(٣)] . فاذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطوّلة مثل سيرة الرسول لابن هشام وكتاب المغازى للواقدى وطبقات ابن سَعْد وتاريخ الطبرى وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام ثم إذا تصفّحتم كتب الأدب القديمة مثل كتاب الأغانى وغيرهِ الفيْتم انّ الآداب العربيّة لم تزل فى ذلك العصر زاهيةً وأنّ الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم ولا الخطباء عن نسْج نثرهم .

انّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى أوائل ظهور الإسلام أو فى أيّام الخلفاء الراشدين يَجوز تقسيمُهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الدين الإسلامى : ١ً الذين قالوا الشعر فى مدح النبىّ سواء أسلموا أم لم يُسْلِموا فا كثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يفدون فى الجاهليّة على الملوك . ٢ً الشعراء الذين قالوا الشعر فى رثاء قتْلَى الكفّار وهجاء النبىّ وأغلبهم من أهل مكّه . ٣ً شعراء أسلموا ولم يهتمّوا فى أبياتهم بأمور النبىّ والدين وهم أكثر شعراء أهل البادية .

١ — ومن الصنف الأول كعب بن زُهَيْر والأعشى وحسّان بن ثابت السابق ذكره . فإن تأمّلتم أشعارهم وجدتم بينهم فرْقاً بالإضافة إلى الإسلام . لأنّ كعباً وهو بدوىّ الأصل مدح النبىّ سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألّفها على منوال قصائد أهل البادية فى مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبّئْتُ انّ رسولَ اللهِ أوْعدنى	والعَفوُ عند رسول الله مأمولُ
مَهْلاً هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ الـ	ـقرآن فيه مواعيظٌ وتفصيلُ

(١) أدب اللغة العربية للمرصفى ج ا ص ٩٣ — ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ — ١٤٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ا ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

انّ الرسولَ لنورٌ يُستضاء به مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ

لقلنا إنّه إنّما أراد قائداً أو سيداً من قومه لا نبيًّا جليلاً أتى بدين جديد. ثم فى نفس تلك القصيدة مدح المهاجرين فلم يصفهم إلاّ بالحماسة والشجاعة . فشتّان ما بين أسلوب هذه البردة البدويّة و بين العواطف والعبارات الدينيّة التى تتحلّى بها بردة الشيخ البوصيرى ّ(١) ! وفى قصيدة أخرى (٢) مدح كعبٌ الأنصار ولم يجعل فيها بيتاً يخرج عن منهج المدح البدوىّ ويشير إلى محاسن الدين الإسلامىّ . — أمّا الأعشى فمدح النبي (مع أنه لم يُسْلِم) فى سنة ٧ فلتقرّبه من نصارى نجران والحيرة استعمل بقصيدته ما دلّ به علوّ منزلة النبىّ فى الأمور الدينية فقال مثلاً (٣) :

نبىّ يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ولكن أوّل من يصلح له اسم شاعر إسلامىّ هو حسّان بن ثابت الأنصارىّ الذى مرّ ذكر شعره فى عهد الجاهليّة . وهو بعد الهجرة النبويّة ربّما هجا الكفّار على الأسلوب القديم حسبما كانوا هم يهجون النبىّ ومن هذا القبيل مثلاً ما قاله فى الهُذَليّين لمّا أسروا بعض المسلمين و باعوهم من قريش (٤) : (من بحر البسيط)

لو خُلِقَ اللُّؤْمُ إنساناً يُكَلِّمُهُمْ لَكانَ خَيْرَ هُذَيْلٍ حِينَ يأتيها

تَرَى من اللُّؤْم رَقْماً بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كما كَوَى أَذْرُعَ العاناتِ كاويها

تَبْكِى القُبورُ إذا ما ماتَ مَيِّتُهُمْ حَتَّى يَصيحَ بمَنْ فى الأرضِ داعيها

مِثْلُ القَنافِذِ تَخْزَى أَنْ تُفاجِئَها شَدَّ النَّهارِ وَيُلْقى اللَّيْلُ ساريها

(١) توفى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى فيما بين سنتى ٦٩٤ و ٦٩٦ هـ .
(٢) نقل الأستاذ R. Basset معظمها إلى اللغة الفرنسية فى كتابه *La Bânat Soʿâd ... de Kaʿb ben Zohair* Alger, 1910, p. 51-53. — أما ديوان كعب بن زهير فهو غير مطبوع .
(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٨٥ من طبعة بولاق [أو ديوان الأعشى قصيدة ١٧ بيت ١٤ من طبعة لندن ١٩٢٨] .
(٤) ديوان حسان ص ١٠٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ٨١ من طبعة بمبى سنة ١٢٨١ أو عدد ٦٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٤٢٤ — ٤٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

ولكن حُسْن إسلامه ظاهر فى جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدها بعد يوم أُحُد مجيباً لعبد الله بن الزِّبَعْرَى القُرَشىّ قال فى آخرها[(١)] :

فلا تذكُروا قَتْلَى وحمزةُ فيهمُ قتيلٌ ثوى لله وهْو مُطيعُ
فإنّ جِنانَ الخُلْد منزلةٌ له وأمْرُ الذى يَقْضِى الأمورَ سريعُ
وقَتْلاكُمُ فى النار أفضلُ رِزْقهم حَميمٌ معًا فى جوْفِها وضريعُ

وما أحلى وأرقّ القصيدة التى رثا بها النبىّ ومطلعها[(٢)] :

ما بالُ عينِكَ لا تنامُ كأنَّما كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأرْمَدِ

وهى على سذاجة نظمِها وألفاظِها واقعةٌ فى القلوب ظاهرة التفجُّع بيّنة الحَسْرة والتلهُّف والأسف .

ليست هذه المقدّمة الوجيزة مكاناً يصلُح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبىّ وحِمائه وحماء الصحابة فى صدر الإسلام . كانت عرب البادية فى الجاهليّة لا يغزُون ولا يتحارَبون الآ وشعراؤهم أنشدوا الأبيات فى هِجاء الأعداء والإفتخار ورِثاء القَتْلَى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراء المسلمين والمشركين هذا المنهج أيضاً فى المديح والرثاء والتهاجى . وتناولت شعراء الكفّار النبىّ ومَنْ معه بالهجاء ومسُّوه بالأذَى فانتصرت شعراء النبىّ له وأجابوا المشركين عنه . ويُرْوَى أنّ النبىّ قال

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس او ص ٤٨ من طبعة بمبىء او عدد ١٧٥ بيت ١٦ الى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان وابن الزبعرى » .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبىء أو قصيدة ١٣٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ — ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ — ١٠٢٥ .

لحسّان بن ثابت اُهْجُهم يعنى قُرَيْشاً فوالله لَهِجاؤُك عليهم أشدُّ من وقع السّهام فى غَلَس الظَّلام اُهْجُهم ومعك جبريلُ روحُ القدس[١] . وفى كتاب الأغانى ما نصُّه[٢] : « كان يهجوهم يعنى قريشاً ثلاثة نفرٍ من الأنصار يُجيبونهم : حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة . وكان حسّان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكُفْر وينسبهم إلى الكفر ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكفر فكانوا فى ذلك الزمان أشدُّ شىء عليهم قولُ حسّان وكعب وأهْوَنُ شىء عليهم قول ابن رواحة فلمّا أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة » .

وربّما تفاخرَ شعراء الفريقَيْن وخطباؤهما أمام النبىّ على جَرْى عادة العرب فى ذلك الزمان كما اُتّفق حين وفدَتْ بنو تميم على النبىّ فى السنة التاسعة للهجرة . قال ابن سعد الكاتب[٣] المتوفّى سنة $\frac{٢٣٠}{٨٤٥}$: « فقال الأقرع [بن حابس من رؤساء بنى تَميم] يا محمّد ايذَنْ لى فوالله إنّ جُهْدى لَزَيْن وإنّ ذمّى لَشَيْن . فقال له رسول الله كذَبْتَ ذلك اللهُ تبارك وتعالى . ثمّ خرج رسول الله فجلس وخطب خطيبُهم وهو عُطارد بن حاجب . فقال رسولُ الله لثابت بن قيس بن شمّاس أجِبْه . فأجابه . ثم قالوا يا محمّد ايذَنْ لشاعرنا . فأذِنَ له فقام الزِبْرقان بن بَدْر فأنشد . فقال رسولُ الله لحسّان بن ثابت أجِبْه فأجابه بمثل شعره . فقالوا والله لخَطيبُهُ أبلغ من خطيبنا ولَشاعِرُهُ أشعر

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وانظر الأغانى ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق .

(٣) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد فى WELLHAUSEN, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. IV, Berlin 1889, p. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ — ٢٤ من طبعة ليدن] ونص الخطبتين والشعرين مروى فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٨ — ٩ من طبعة بولاق وفى السيرة لابن هشام ص ٩٣٤ — ٩٣٨ من طبعة أوربا وتاريخ الطبرى ج ١ ص ١٧١٠ — ١٧١٧ من طبعة ليدن .

ن شاعرنا ولَهُمْ أحلمُ منا . ونزّل بهم[1] «إنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ كْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» . — فترَوْن أن الشعر عند أهل المدينة ومكّة فى غُرّة لإسلام قد أصبح ذا شأن عظيم كأنّه من وسائلهم السياسيّة .

٢ — أمّا شعراء الصنف الثانى أى الذين رثَوْا القَتْلَى من المشركين وهجوْا لنبىّ والمهاجرين والأنصار وأكثرهم من أهل مكّة فأسماؤهم وأبياتهم مرويّة فى يرة الرسول لابن هشام وغيرها من المصنَّفات القديمة فى المغازى والتاريخ . وأشهرهم بد الله بن الزِبَعْرَى وضِرار بن الخطّاب الفِهْرىّ والحارث بن هِشام بن المُغِيرة أبو سُفْيان بن حَرْب .

٣ — وممّنْ نبغ من شعراء الصنف الثالث أى الذين أسلموا بغير أن يؤثّر سلامُهم فى شعرهم تأثيراً شديداً جليًّا وأغلبهم من أهل البادية مُتَمِّم بن نُوَيْرة يَربوعىّ صاحب المراثى المشهورة فى أخيه مالك الذى قُتل فى جملة العرب المرتدّين عد موت النبىّ فى أيّام خلافة أبى بكر . فرثاه متمّم بأشعار تُثير الأشجان وتَقْدح رَ النيران فضربت الشعراء الأمثالَ به وبأخيه مالك فى أشعارهم . وممّا قال :[2]

أَبَى الصَّبْرَ آياتٌ أراها وأنّنى	أرى كلَّ حَبْلٍ بعد حَبْلك أَقْطَعَا
وأنّى متى ماأدْعُ بٱسْمِكَ لاتُجِبْ	وكنتَ جديراً أنْ تُجيبَ وتُسْمِعَا
وكنّا كنَدْمانَىْ جَذِيمةَ حِقْبَةً	من الدهر حتّى قيل لَنْ يَتَصَدَّعَا
فلمّا تفرّقْنا كأنّى ومالكاً	لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليْلةً مَعَا
فإنْ تكنِ الأيّامُ فرّقْنَ بَيْنَنَا	فقدْ بانَ محموداً أخى يَوْمَ وَدَّعَا
أقول وقد طار السَّنا فى رَبابهِ	وغَيْثٌ يَسُحُّ الماءَ حتّى تَرَيَّعَا

---

(١) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) آية ٤ .

(٢) المفضليات ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو عدد ٦٧ بيت ١٧ إلى ٣٥ ما عدا بيت ١٩) من طبعة اكسفورد ١٩٢١] .

سقى الله أرضاً حلَّها قبرُ مالكٍ ذِهابَ الغوادى المُدْجِنات فأَمْرَعا
وآثَرَ سَيْلَ الوادِيَيْن بِدِيمةٍ تُرشِّحُ وَسْمِياً من النَّبْتِ خِرْوَعا

ومن النابغين أيضاً أبو مِحْجَن الثَّقفِىّ من فُرْسان العرب شهِد يومَ القادسية سنة ١٦/٦٣٧ (١) وقصّته فيه مشهورة . وكان مولعاً بالخمر الذى يدور عليه مُعْظَم شعره ومن بين أبياته الشهيرة(٢) :

إذا مُتُّ فادْفِنّى إلى أصل كَرْمَة تروّى عِظامى فى التُّراب عروقُها
ولا تدْفِنَنّى بالفَلاة فإنّنى أخافُ إذا ما مُتُّ أنْ لا أذوقُها

ومنهم جَرْوَل بن أوس الحُطَيْئة « من فحول الشعراء ومتقدّميهم وفصحائهم متصرّف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب مجيد فى ذلك أجمع(٣) » ولكنّه دنِىء الطبع لئيم النفس كثير الطمع(٤) جعل الشعر متجراً فكان له من الهجاء معاشٌ ومكْسَب لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شرّه فقال الأصمعىّ : « كان الحطيئة جَشِعاً سؤُولاً مُلْحِفاً دنىء النفس كثير الشرّ قليل الخير بخيلاً قبيح المنظر رثّ الهيئة مغموز النسب فاسد الدين وما تشاء أن تقول فى شعر شاعرٍ من عَيْب إلّا وجدتَه وقلّما تجدُ ذلك فى شعره(٥) » . فمن غريب الاتّفاق أن هذا الشاعر الموصوف بدَناءة الخُلْق كان راوية كعب بن زهير بل إن صحّ الخبر راويةَ زهير بن أبى سُلْمى الذى شعره فى طلب العُلَى والمكارم . وكان الحُطَيْئة قد

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islam* (*Skizzen und Vorarbeiten* VI), Berlin 1899, p. 72-74; CAETANI, *Annali dell'Islām*, III, p. 629-633.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بعناية Abel و ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦ (فى LANDBERG, *Primeurs arabes*, I) وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ — ١٣٤٨] .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٤) انظر أيضاً كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٥) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٤٦ من طبعة بولاق .

ارتدّ فيمن ارتدّ بعد وفاة النبيّ وهجا حينئذ الخليفة أبا بكر في بيتين مشهورين[١] ثمّ أسلم ثانية إلاّ أنّه لم يزل يهجو أكابر الناس حتّى أمر عمر بن الخطّاب بحَبْسه فقال فى الحبس أبياتاً أشار فيها إلى حال أولاده الصغار المقيمين بذى مَرَخ (وهو وادٍ من أودية اليمن)[٢] :

ماذا تقول لِأفراخٍ بذى مَرَخٍ	حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسِبَهم فى قَعْرِ مُظْلِمةٍ	فاُغْفِرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ
أنتَ الأمينُ الذى من بَعْدِ صاحبهِ	ألقى إليه مقاليدَ النُّهَى البَشَرُ
لمْ يُؤْثِروكَ بها إذ قدّموكَ لها	لكنْ لأنفسهمْ كانت بها الخِيَرُ

فعفا عمر عنه . ولا يُعرَف تاريخُ وفاته الذى جعله أبو الفداء سنة ٦٩ بدون إيراد مصدر هذا الخبر . والمحقّق إنّما هو أنّه أدرك خلافة عثمان على الأقلّ . وكان الحطيئة رقيق الإسلام فكثُرت فى ذلك الحكايات .

ومن معاصريه الشمّاخ بن ضِرار الذُّبْيانىّ صاحب ديوان طُبع بمصرسنة ١٣٢٧هـ بعناية الشيخ أحمد بن الأمين الشِنْقيطىّ وقيل إنّه أوصف الشعراء للحمير والقوس وأرجز الناس على البديهة . وهو كثير الهجاء أيضاً مات بعد قتل عمر بن الخطّاب . وكان له أخَوانِ شاعران أعنى مزَرِداً وجَزْءاً اللذَيْن لم يُنقَل إلينا إلاّ مقطّعات صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ الزُّبَيْدىّ من سادات أهل اليمن وأشجع العرب أسلم فى يدى النبىّ فى السنة العاشرة وشهد وقعة القادسيّة فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم فى آخر خلافة عمر . وأكثر شعره فى الحماسة وذكر الفتوح ولشَجاعته وشُهْرته كثُرت فيه وفى سيفه المسمّى

---

(١) ديوان عدد ٣٤ بيت ٥—٦ من الطبعة بعناية Goldziher فى *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 47, 1893, p. 43.

(٢) ديوان عدد ٤٧ من الطبعة المذكورة .

الصِّمْصامة وفى كِبَر سنّه الحكايات المختلقة منها ما رُوى فى كتاب الأغانى[١] فيه مع عُيَيْنة بن حِصْن فى تحريم الخمر وتحليله[٢] .

ومنهم أيضاً هُذَليّان أحدهما أبو خِراش خُوَيْلِد بن مُرّة الذى مات فى خلافة عمر ابن الخطّاب « وكان ممّن يعدو فيسبق الخيل فى غارات قومه وحروبهم »[٣] . والثانى وهو أشعر منه أبو ذُؤَيْب خُوَيْلد بن خالد الذى غزا إفريقية مع عبد الله ابن سعد بن أبي سَرْح سنة ٢٦/٦٤٧ فأخذه الموت بعد انتهاء الغزاة سنة ٢٨ تقريباً . وله ديوان لم يُطْبَع بعد[٤] . ومما يُسْتجاد من شعره قصيدة طويلة يرويها صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب[٥] رثا بها بنيه الخمسةَ أو الثمانية الذين قُتلوا له أو هلكوا بالطاعون فى عام واحد . وأوّلُها :

أمِن المنونِ ورَيْبِها تتوجَّعُ	والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قالت أُمَيْمةُ ما لجسمك شاحباً	مُنْذ ابتذلتَ ومثلُ مالك ينفعُ
أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعاً	إلّا اقضّ عليك ذاك المضجعُ

(١) كتاب الأغانى ج ١٤ س ٣٠ — ٣١ من طبعة بولاق .

(٢) وفى ذلك الخبر ذى إسناد ضعيف جدا ترون عمراً بن معديكرب وعيينة يتباحثان كأنهما فقيهان ويذكران المتكلف بمراعاة أحكام الدين وهذا لا يعقل فى ذلك العهد عند رجلين فارسين فى الحرب قليلى الإسلام بعيدين عن الميل إلى البحث عن أمور الدين فظاهر أن الخبر كله من الروايات التى اخترعت فى أواخر أيام بنى أمية لما أخذت أهل التقى والدين والفقهاء يبذلون جهدهم فى النهى عن المنكر الشائع من شرب الخمر وإهمال الأحكام الشرعية فى الحياة العادية فأشاع أولو الأغراض عدة حكايات مصنعة عذراً لأميالهم وأعمالهم المكروهة . راجع — GOLDZIHER *Muhammedanische Studien*, I, p. 30-31.

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ س ٥٤ . [طبع ديوانه فى مدينة ليبسك سنة ١٩٣٣ بعناية J. Hell فى المجموعة *Neue Hudhailiten-Diwâne* ج ٢] .

(٤) [طبع ديوانه فى مدينة هانوفر سنة ١٩٢٦ بعناية J. Hell] .

(٥) جمهرة أشعار العرب س ١٢٨ — ١٣٣ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ — ١٣١٠ [ومفضليات عدد ١٢٦ من طبعة اكسفورد سنة ١٩٢١] وتوجد ١٥ بيتاً من هذه القصيدة فى شرح شواهد المغنى للسيوطى س ٩٢ — ٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ وتروى ثلثة عشر بيتاً فى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ س ٦٦٧ عدد ٢٩١٤ من طبعة حيدر أباد ١٣١٩ وفيه أيضاً ترجمة الشاعر (س ٦٦٥ — ٦٦٧) و ٧ أبيات من شعر يبكى أبو ذؤيب فيه النبي وفى آخر هذه الأبيات تفاؤل يشبه تفاؤل الجاهلية .

فأجبتها أمّا لجسمىَ أنه   أوْدى بنىَّ من البلاد فودّعوا
أودى بنىّ فأعقبونى حسْرة   بعد الرُّقاد وعبرةً ما تُقْلِعُ
سبقوا هوَىَّ وأعنقوا لهواهم   فتُخرِّموا ولكلّ جنبٍ مَصْرَعُ
فغبَرْتُ بعدهمُ بعيش ناصب   وإخال أنى لاحِقٌ مستتبِعُ
ولقد حرَصْتُ بأن أدافع عنهمُ   وإذا المنيّةُ أقبلَتْ لا تُدْفَعُ
وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفارَها   ألْفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفعُ

ولو أردتُ سَرْدَ أسماء جميع الذين زهَوا فى ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأىّ سبب لا يُظْهِر شعرُهم على وفْرته تأثيرَ الدين الإسلامىّ فى أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأنّ أحوالَهم ما تغيّرت منذ انتهاء عصر الجاهليّة قلتُ إنّ أهلَ البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمّل أمور الدين وفهمِها فصعُب دخولُ الايمان فى قلوبهم فلم يزالوا إلى أيامنا موصوفين بقلّة عواطفهم الدينيّة . ونُزّل فيهم فى سورة التوبة[١] : « الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ . . . » . ولكن قلّتْ الأعرابُ من هذا النوع الثانى فأغلب أهل الوبَر لم يُسْلِموا إلّا كارهين أو طامعين فيما كانوا يرجونه من الرِّبح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبىّ إلّا كأنّه مَلِك من الملوك القادرين الأعِزّاء الذين لا يمكن مُعاداتُهم . وحال أكثرهم كحال بنى عامر بن صَعْصَعة الذين لمّا وفدوا على النبىّ قال رئيسهم[٢] : يا محمّد ما لى إن أسلمتُ ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال أتجعل لى

(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ — ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .
(٢) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

الأمرَ مِنْ بَعْدِك ؟ قال ليس ذاك لك ولا لقومك . قال أفتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال لا ولكنّى أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس . قال أو ليست لى لأَمْلأنّها عليك خيلًا ورجالاً . ثمّ ولّى[١] . — ومع قطع النظر عمّا رأيناه من قلّة ميلهم إلى جلالة الدين لا شكّ فى أنّ لكراهتهم تلك أسباباً خاصّة . قد مرّ فى إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنّة أجدادهم كانت عند عرب الجاهليّة أفضل الفضائل ومُعظَم الأدب فظهر لهم الإسلام بدْعةً مكروهةً لا يتّبعونها نِبال الناس كما قالت زوجة العبّاس بن مرداس حين بلغها خبر إسلامه[٢] : (من الطويل)

لَعَمْرِى لَئِنْ تابعتَ دِينَ محمّدٍ وفارقْتَ إخوانَ الصّفا والصنائعِ
لَبدّلتَ تلك النفسَ ذُلاً بِعِزّةٍ غداةَ اختلاف المُرْهَفات القواطعِ

أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثنىّ يذمّ أخاه بُجَيْرًا حين أسلم[٣] : (من الطويل)

ففارقْتَ أسباب الهُدَى واتّبعْتَهُ على أىّ شىء ويبْ غيرُك دلّكا
على مذهبٍ لم تُلفِ أُمّا ولا أباً عليه ولم تعرفْ عليه أخاً لكا

ففى تمسّك العرب بسنن آبائهم نُزّلت بضعة آيات منها فى سورة البقرة[٤] : « إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وفى سورة المائدة[٥] : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وفى سورة الأعراف[٦] : « وَإِذَا فَعَلُوا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد فى ٤٢ .WELLHAUSEN, *Skizzen und Vorarbeiten*, IV, n. 96, p [الطبقات ج١ قسم٢ ص ٥١ سطر ١٩ — ٢٣ من طبعة ليدن] .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHER *Muhammedanische Studien*, I, p. 9-10.

(٣) انظر شرح بانت سعاد للشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصارى ص ٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٧١ — ١٨٧٤ بعناية I. Guidi

(٤) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .

(٥) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .

(٦) القرآن ٧ (سورة الاعراف) : ٢٨ .

فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » . وفى سورة الزُّخْرُف[١] :
« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ » . وفى سورة
لُقْمان[٢] : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا » . — وفى بعض الأشياء إنّ الشريعة الإسلاميّة خالفت سنن العرب القديمة
مخالفة شديدة . كانت العرب أفخرَ الناس بأنسابهم محتقرين من لم يكن منهم
أو كان مغموز النسب متكبّرين بالحَسَب الطويل فجاء القرآن بما يدلُّ على مساواة
الناس عند الله[٣] : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . — كانت العرب
يُذلّون من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا ردّ الشرّ بمثله أو بأكثر منه كما قال عمرو بن
كُلْثوم فى معلّقته[٤] :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أحدٌ عَلَيْنَا فنجْهَلُ فوْق جهْل الجاهِلينَا

أمّا الإسلام فنصَح للناس العفو والحلم ومدح « الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
النَّاسِ »[٥] بل أمر المؤمنَ : « إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ[٦] » . — وكانت
الأعراب مولَعين بشُرْب الخمر ولعْب المَيْسِر فجاء القرآن بتحريمهما وأمرهم بالصلاة
والصيام وغير ذلك من الأحكام المتْعبة لأبناء الفيافى . فخلاصة الأمر أنّه كان البون
الواسع بين قواعد المُروّة على رأى الأعراب وبين كثير من أحكام الإسلام[٧] فلا
عجب أنّ أهل البادية لم يعتنقوا الدين الجديد إلاّ رغماً عنهم .

(١) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢
(٢) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .
(٣) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .
(٤) معلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .
(٥) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٤ .
(٦) القرآن ٢٣ (المؤمنين) : ٩٥ .
(٧) راجع ما قاله الأستاذ Goldziher فى المروة والدين فى كتابه *Muhammedanische Studien*
ج ١ ص ١ — ٣٩ .

٤ — ولإتمام هذا الوصف الإجمالىّ لآداب العرب فى أيّام النبىّ والخلفاء الراشدين يبقى علىّ أن ألمح إلى نوع خاصّ من الشعر تليق به تسميةُ شعر الفتوحات . قد تقدّم انّ عرب الجاهليّة كانوا يخلّدون مآثر قبائلهم وذكر أيّامهم فى أبيات توارثها أهل كلّ قبيلة خَلَفاً عن سَلَفٍ . فكذلك لمّا فاضت الجيوش الإسلاميّة بأمواجها على ما خارج أنحاء جزيرة العرب وخفقت ألويةُ الجنود المظفّرة فى أطراف النواحى الأعجميّة وأقاصى الآفاق أخذت الأعرابُ الكائنون فى جملة المجاهدين يقولون الشعر ويُنشِدون القوافى وصفاً لما قاسَوْا من المتاعب وما شهدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من البأس وثبات الجَنان . فقال مثلاً قَيْس بن المكشوح المُرادىّ مفتخراً بقتله رستم أمير جيوش الفرس فى يوم القادسيّة سنة ١٦/٦٣٧ (١) :

جَلَبْتُ الخَيْلَ مِنْ صَنْعاء تَرْدِي	بِكُلِّ مُدَجَّجٍ كالليثِ سامِ
إلى وادى القُرَى فدِيار كَلْبٍ	إلى اليَرْموكِ فالبَلَدِ الشامِ
وجِئْنَ القادِسِيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ	مُسَوَّمَةً دَوابِرُها دَوامِ
فناهَضْنا هُنالِكَ جَمْعَ كِسْرَى	وأبناءَ المَرازِبَةِ الكِرامِ
فلمّا أنْ رَأَيْتُ الخَيْلَ جالَتْ	قَصَدتُ لِمَوْقِفِ المَلِكِ الهُمامِ
فأَضْرِبُ رَأْسَهُ فهَوَى صَريعاً	بِسَيْفٍ لا أَفَلَّ ولا كَهامِ
وقدْ أَبْلَى الإلهُ هناك خَيْراً	وَفِعْلُ الخيرِ عِنْدَ اللهِ نامِ

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار فى كتاب فتوح البلدان للبلاذُرىّ وفى تاريخ الطبرى وفى كتاب معجم البلدان لياقوت الحَمَوىّ لألّفنا منها ديواناً .

٥ — ومن الكتب الكثيرة التداول حتّى فى أيّامنا ديوان محتوٍ على قصائد ومقطّعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب . لكنه كتاب مختلق وهو ممّا صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصّة . وعلى قول بعض أهل السنّة المتأدّبين

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٦١ من طبعة ليدن ١٨٦٦ .

هو تأليف الشريف المرتضى أبي القاسم علىّ بن طاهر المتوفّى سنة ٤٣٦/١٠٤٤ . ونُسِبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علىّ القصيدة الزَّيْنَبِيّة فى الحِكَم والمواعظ التى من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول فى سنة ١٦٧ ﻫ فى أيام المهدى . أما مارُوى من شعر على بن أبي طالب فى كتب التاريخ وفى كتاب العُمدة[1] لابن رشيق فشىء يسير كله فى الحماسة ووصف الحروب .

٦ — أمّا المنثور المستظرف فى عهد النبىّ والخلفاء الراشدين فلم يخرج عمّا كان عليه فى زمان الجاهليّة من الحِكَم والمواعظ والوصايا والحكايات ما عدا الأحاديث النبويّة . ولم يدوَّن فى ذلك العصر كتابٌ وإن كان بعض الناس يقيّدون فى بطون الصحائف شيئاً من أحاديث النبىّ ومن الحكم . وفن الخطابة لم يزل فى رونقه القديم حتى أن نبغ فيه نفس النبىّ والخلفاء فمرّ فيما سبق ذكر نصّ مأخوذ من كتاب ابن سعد دالّ على ارتفاع منزلة الخطيب البليغ عند عرب القبائل وأهل المدن . ولكن لقلّة استعمال الكتابة لتسجيل المنثور لم يصل إلينا من خطب ذلك العصر إلاّ شىء يسير جدًّا وربّما وقع فى هذا القليل نقص أو زيادة أو تغيير أو اختلاق . فخطبة الوداع مثلاً على عَظمة شأنها وعلوّ أفكارها ورِفعة قائلها إنّما نُقلت بروايات مختلفة وعلى قطع متفرّقة . وأقبح الأمر ما عرض لأمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب فإنّ أصحاب الأهواء من الفِرَق الإسلاميّة اجترؤوا على تزوير أقواله وعَزَوْا إليه جمًّا غفيراً من المواعظ والحِكَم التى ليست له البتّة . فقال المسعودىّ فى مروج الذهب[2] إنّ « الذى حفِظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبةٍ ونيّفٌ وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناسُ ذلك عنه قولاً وعملاً » . وممّا نسِب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة الذى اختلف فيه بعض أهل السنّة أهو للشريف المرتضى أبى القاسم علىّ بن طاهر المتوفّى سنة ٤٣٦/١٠٤٤ أم لأخيه

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .
(٢) فى الباب الرابع والثمانين ج ٤ ص ٤٤١ — ٤٤٢ من الطبعة البارسية .

الشريف الرضى[١] وعلى كل حال أنه ليس من كلام علىّ وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه . وقال أبو عبد الله محمّد الذهبِىّ المتوفى سنة ٧٤٨ / ١٣٤٨ فى كتاب ميزان الاعتدال[٢] : « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنّه مكذوب على أمير المؤمنين علىّ رضه فإنّ فيه السبَّ الصريح والحطّ على السيّدين أبى بكر وعمر » . — وأحياناً عُزى إليه كتاب الجَفْر والحِجابُ العظيم وغير ذلك ممّا هو برىّ منه كليًّا .

ومن خطباء ذلك العصر سَحْبَان بن زُفَر الوائلىّ من قبيلة وائل باهلةَ وُلِد فى زمان الجاهليّة ومات مسلماً سنة ٥٤ وضُرِب فيه المثل فى البلاغة والبيان فقيل أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانِ وَائِلٍ أو أَنْطَقُ من سحبان . وما رُوى عنه فى كتاب الأمثال للمَيْدانىّ وفى شرح الشَّرِيشىّ على المقامات الحريريّة أشهر من أن احتاجَ إلى ذكره هنا .

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ٤١٦ من الطبعات المصرية .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ج ٢ ص ٦٢٢ من الطبعة القسطنطنية سنة ١٣١١ فى مادة « نهج البلاغة » .

الباب الرابع

الشعر فى عصر بنى أمية

١ الغزل فى مدن الحجاز — ٢ النسيب عند الأعراب — ٣ الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية — ٤ الأراجيز — ٥ شعر الجنود — ٦ شعر الفتن السياسية والدينية — ٧ شعر أهل الحضر فى مدن العراق والشأم — ٨ الشعر القصصى اليمنى — ٩ المراثى .

فلنُلْقِ الآن نظْرةً على الآداب العربيّة فى أيّام دولة بنى أُمَيَّة .

لا ريب فى أنّ نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة $\frac{٤١}{٦٦١}$ كان ذا عواقب متنوِّعة مهمّة يصعُب تقديرُها حقّ القدْر ولكن البحث عنها و بيانها يحقُّ من يعتنى بتاريخ الأمم الإسلاميّة . فاقتصر هنا على ذكر أنّ ذلك النقل الذى غُيِّر به مركز السياسة الإسلاميّة ثمّ الفِتَن التى حدَثت بين بنى أميّة و بين أهل الحجاز فى أيام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال فى الأنحاء البعيدة كانت سبباً فى وقوع اختلاف محسوس بين سَيْر الآداب فى جزيرة العرب لا سيّما الحجاز وسيرها فى الشام والعراق والجبال من قبل منتصف القرن الأوّل إلى أواخره . فلتحصيل الوضوح فى هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر فى أيّام الدولة الأمويّة تسعة أقسام أو أصناف : ١ الغزل فى مدن الحجاز ٢ الشعر الغرامىّ والتشبيب عند الأعراب . ٣ الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهليّة . ٤ الأراجيز . ٥ الشعر المتعلّق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود . ٦ الشعر المتعلّق بالفتن والخلافيّات الدينيّة والسياسيّة . ٧ الغَزَل والخمريّات والمديح بدمشق . ٨ الشعر القَصَصىّ اليمنىّ . ٩ المراثى .

١ — فابتدئ بالصنف الأول أى الغزل فى المدن الحجازية .

إنّ محبّة إلف النساء وهواهنّ وفرطَ الصَّبابة والشَّوق كانت فى كلّ زمن وعند كلّ أمّة مجالاً واسعاً وميداناً أفيح لقريض الشعر فلم تخلُ الأمم الساميّة عن أشعار معبّرة عمّا فى نفوسهم وقلوبهم من شدّة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزّل بل ضربوا فى ذلك بسهم مُصيب كما يتّضح مثلاً من سِفر نَشيد الأناشيد المُدْرَج فى كتب العبرانيّين المقدّسة . فمن طالع أشعار العرب القديمة استغرب قلّة ما فيها من الأبيات المختصّة بالتشبيب لأنّ أكثرَ ما يُرْوَى من هذا الباب أَلْيَق بتسمية النسيب منه بتسمية الغَزَل إذا امتثلنا فى تعريفهما قولَ أبى زكريّاء يحيى التَّبْريزىّ فى شرح حماسة أبى تمّام[1] : « النسيب ذكرُ الشاعرِ المرأةَ بالحُسْن والإخبارُ عن تصرّف هواها به وليس هو الغَزَلَ وإنّما الغزل الاشتهار بمودّات النساء والصَّبْوة إليهنّ والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه[2] » . ومن الجدير بالذكر أنّ فحول شعراء الجاهليّة لم يُفْرِدوا للنسيب اشعاراً طويلة خاصّة فاقتصروا على جمله فى أول قصائدهم يشكون فيه شدّة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزّل الحقيقىّ حصره فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يُدْرِجْهُ فى وسطها إلّا بأنْدَر النادر كما فعله عنترة بن شدّاد فى معلّقته حين قال نحو أواخرها :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ
فبعثتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبي ... فتجسَّسي أخبارَها لي وَاعْلَمي
قالت رأيتُ مِنَ الأعادي غِرَّةً ... وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ
وكأنما الْتفتتْ بجيدِ جدايةٍ ... رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

(١) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٣٨ من طبعة بن أوج ٣ ص ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) راجع أيضاً نقد الشعر لقدامة ص ٤٢ — ٤٣ من الطبعة القسطنطنية سنة ١٣٠٢ .

وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلّقة إلى غير الغزل والنسيب . — أمّا مقطّعات الشعر الجاهليّ المختصّة بالتشبيب المنقولةُ إلينا فى كتب الأدب واللغة فقليلة جدًّا وهى كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزُّل[1] . فلهذا الأمر الغريب على رأيى سَبَبانِ : الأوّل أنّ التعبير عمّا فى القلب من الهوى والعشق والشوق يستدعى كلاماً ليّناً سهلَ المأخذ بعيداً عن الألفاظ الغريبة قريب المعانى فاستنكفت من جَمْعه علماء اللغة فى القرن الثانى والثالث للهجرة لأنّ غرضهم من لمّ الأشعار القديمة وحِفْظ شَذراتها كان خصوصاً الغريبَ من الألفاظ والمهمّ من الأخبار . والسبب الثانى وهو الأخطر أنّ الشعر فى التشبيب المحض كان على ظنّي عند عرب الجاهليّة نوعاً عاميّاً تعاطاه أيضاً رَعاعُ الناس فأهانه نوابغُ الشعراء وأهملوه وامتنعوا عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب فى أوّل قصائدهم . ولعلّ سبباً ثالثاً أيضاً عمِل فى كراهة الشعراء المَجيدين المُفْلِقين للغزل وهو علوُّ منزلة النظم فى حياة العرب الاجتماعيّة لأنّ غاية الشعر العالى إنّما كان عندهم تعظيمَ الأكابر وتخليدَ ذكر مآثر القبائل والافتخارَ بالحماسة أو المَكرُمات وهجاء الأعداء فلذلك لم يكن التشبيب المحض ممّا عُدّ من مقاصد الشعر السامية .

أمّا فى خلافة علىّ بن أبى طالب وما يتبعها من الزمان فنجدُ بمكّة والمدينة نوعاً جديداً من الشعر أخذ يزهو بهما بَغْتَةً بل يغلب على سائر الأنواع فكادت أجْيد الشعراء فى مدن الحجاز لا يتعاطَوْن غيرَهُ خلافاً لعُرْفهم فيما قبل . وهذا النوع الجديد هو الغَزَل ولعلّ أوّلَ من اشتهر به أبو دَهْبَل الجُمَحىّ من أشراف الناس

(١) كذلك نجد فى أبيات عامر بن الحارث النميرى الشاعر الجاهلى الملقب بجران العود غزلا يشابه غزل عمر بن أبى ربيعة الشاعر الأموى الذى سيأتى ذكره فراجع القصيدة المروية فى آخر ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ [أو ديوان جران العود ص ١٣ — ١٩ من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية فى أمالى القالى ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أما سبب لقبه بجران العود فانظر ما قاله عبد القادر البغدادى فى خزانته ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة فى كتاب الشعر ص ٤٥٠ من طبعة ليدن .

بمكّة قال الشعر فى آخر خلافة علىّ ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير وغيرهما من الأكابر. وهواه لعَمْرة مشهور قيل فى كتاب الأغانى(١) إنه كانت تتحدّث به أشراف قريش فى مجالسها وسوقة الحجاز فى أسواقها والسُّقاة فى مواردها » وما صاغه أبو دهبل من الشعر فيها رقيقٌ ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل البادية المعروف. ويُرْوَى أنّه نظر عَرَضاً إلى عاتكة بنت الخليفة معاوية فى حجّتها وقال فيها أبياتاً شاعت بمكّة وشُهِرت فغنّى فيها المغنّون. فلمّا صدرت عاتكة عن مكّة « خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها فكانت تُعاهِدُهُ بالبِرّ واللطف حتّى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقائه(٢) ». فأنشد شعراً مشهوراً بلغ معاوية الذى أحضر أبا دهبل ولامه وقال له: « أمّا من جهتى فلا خَوْفَ عليك لأنّى أعلم صيانة ابنتى نفسها وأعرف أن فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب فى كلّ من جاز أن يقولوه فيه وكلِّ من لم يجُزْ وإنّما أكره لك جوار يزيد(٣) وأخاف عليك وَثَباتِهِ ». وإنّما أراد معاوية أن يهرُب أبو دَهْبَل. وفى ذلك قصّة طويلة وأشعار(٤) جارية مجْرًى غيرَ مجرى نسيبِ الجاهلية. ثمّ سلك غيره من نوابغ الشعراء بمكّة هذا المسلك المبتدَع فقيل: « كانت العرب تفضّل قريشاً فى كلّ شىء إلّا الشعر فلمّا نجم فى قريش عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزومىُّ والعَرْجىُّ وأبو دهبل وعبد الله ابن قيس الرُّقَيّات أقرّت لها العرب بالشعر أيضاً(٥) ».

وإن سألتمونى عن سبب هذا التقلُّب الشديد فى أساليب الشعر فى المدن الحجازيّة قلت: لا يخفى على أحد أنّ أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب فى أواخر خلافة علىّ بن أبى طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة

---

(١) كتاب الأغانى ج ٦ س ١٥٦ من طبعة بولاق.
(٢) كتاب الأغانى ج ٦ س ١٥٨ — ١٥٩ من طبعة بولاق.
(٣) وهو ابن معاوية وأخو عاتكة.
(٤) كتاب الأغانى ج ٦ س ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق.
(٥) كتاب الأغانى ج ٣ س ١٠١ وراجع أيضاً ج ١ س ٣٥ من طبعة بولاق.

والنُّسّاك من الأنصار والمهاجرين كأنّ الدنيا فى الشام والدين بمدينة النبىّ . وكثُرت فى ذلك العصر ثروةُ الحرمين ولا سيّما مكّة لاتّساع العلائق والمصارف التجاريّة ولزيادة الوافدين عليهما تأديةً لفريضة الحجّ . فبزيادة الثروة والنعمة واتّساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوسُ إليه من الشهوات والملاذّ والتنعّم بأنواع الترَف وفسُدت أخلاقُ الشُّبّان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التى لم تزل مجهولة عند العرب فى ذلك الزمان فاشتدّ ميلهم إلى التظرُّف والتغزُّل وسَماع الغِناء وحضور الملاهى . وجُلبت إلى مكّة والمدينة القيناتُ المغنّيات بالرومىّ أو بالفارسىّ ثمّ أخذت الموالى يغنّون بالعربىّ أيضاً فقيل إنّ « أصل الغِناء أربعة نفر مكّيّان ومدنيّان فالمكّيّان ابن سُرَيْج وابن مُحرز والمدنيّان مَعْبَد ومالك [بن أبى السَّمْح] »[١] . ومنهم بل أقدمهم طُوَيْس المولود يوم وفاة النبىّ وهو أوّل من غنّى بالعربىّ بالمدينة وأوّل من ألقى الخَنَث بها وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها[٢] . ومنهم أيضاً الغَريض المغنّى بمكّة والمدينة صاحب عمرو بن أبى ربيعة كثُرت فيه الحكايات ومات فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ — ٩٩/٧١٧) ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سَرْد أسمائهم هنا . وممّا يدلّ على سعة العيش بمكّة فى النصف الثانى من القرن الأوّل ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى[٣] أنّ عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجُمَحىّ

---

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق . — وابن سريج كان مولده فى خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى فى زمن عثمان بن عفان ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣ وابن محرز معاصر له — ومعبد ابن وهب غنّى فى أول دولة بنى أمية ومات فى أيام الوليد بن يزيد ١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤ بدمشق — ومالك بن أبى السمح مات فى أيام المنصور ١٣٦/٧٥٤ — ١٥٨/٧٧٥ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق — ويقال فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم — كان سائب مولى بنى ليث وقتل فى يوم الحرة ٦٣/٦٨٣ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٥٢ .

« قد اتّخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونَرْدات[١] وقِرْقات[٢] ودفاتر فيها من كلّ علم وجعل فى الجدار أوتاداً فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ثمّ جرّ دفتراً فقرأه أو بعضَ ما يُلْعَب به فلعِب به مع بعضهم » . وفى وادى العَقيق الذى كان منتزه أهل المدينة فى أيّام الربيع والمطر[٣] أو فى مِنىً وسائر نواحى مكّة كان المتظرّفون من الفتيان لا سيّما فى موسم الحجّ ينتظرون ويلتقون النساء والبنات الحرائر ويحدّثونهنّ ويتغزّلون بهنّ . فإن أردتم مثالاً ممّا كان قدر كريمات النساء عند أكابر مكّة والمتغزّلين فيها كم ما يُرْوى فى كتاب الأغانى من أخبار الحارث بن خالد بن العاصى المخزومىّ وهو أحد نوابغ شعراء قريش الغزَلَيّين السابق ذكرهم أخو عِكْرِمة بن خالد المخزومىّ وهو محدِّث جليل من وجوه التابعين . إن عبدالملك سنة ٧٥ ولّى الحارثَ أمارةَ مكّة « فحجّ بالناس وحجّتْ عائشة بنت طلحة عامئذ وكان الحارث يهواها فأرسلتْ إليه أخِّرْ الصلاة حتّى أفرَغ من طوافى . فأمر المؤذّنين فأخّروا الصلاة حتّى فرِغت من طوافها . ثمّ أُقيمت الصلاة فصلّى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله وكتب إليه يؤَنّبه فيما فعل فقال ما أهْون واللهِ غضبَهُ إذا رَضِيَتْ واللهِ لو لم تفرُغْ من طوافها إلى الليل لأخّرتُ الصلاة إلى الليل »[٤] . وله فى ذلك شعر مشهور[٥] . وربّما كان فتيان مكّة من الأغنياء الظرفاء يرتحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصْعَب الزُبَيْرىّ قال[٦] : « اجتمع نِسْوةٌ فذكرن عمر بن أبى ربيعة[٧] وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه فتشوّقْنَ إليه وتمنّينه

(١) النرد هو ما يعرف اليوم بالطاولة .

(٢) قرقات جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق ١٣٠٠ — ١٣٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرطونى ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغانى ج ٣ ص ١٠٣ وراجع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغانى ج ٣ ص ١١٣ — ١١٤ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغانى ج ١ ص ٤٧ .

(٧) وهو مقيم بمكة .

فقالت سُكَيْنة [بنت الحسين بن علىّ بن أبى طالب] أنا لَكُنّ به . فبعثت إليه رسولاً أن يوافِىَ الصَّوْرَيْن[١] ليلةً سمّتها فوافاهنّ على رواحله فحدّثهنّ حتى طلع الفجر وحان انصرافهنّ . فقال لهنّ والله إنّى لمحتاجٌ إلى زيارة قبر النبىّ صلعم والصلاةِ فى مسجده ولكنّى لا أخلِط بزيارتكنّ شيئاً ثمّ انصرف إلى مكّة فقال فى ذلك شعراً معروفاً[٢] » . ومما يُرْوَى أيضاً من هذا الباب[٣] : « واعد عمر بن أبى ربيعة نسوةً من قريش إلى العقيق ليتحدّثْنَ معه فخرج إليهنّ ومعه الغريض فتحدّثوا مليًّا ومُطِروا فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلّوا عليهنّ بمِطْرَفة[٤] وبرْدَيْن له حتّى استترن من المطر حتى سكن ثمّ انصرفن » فقال عمر فى ذلك أحد أشعاره[٥] . — وحسبنا هذا بياناً لأحوال عِيشة الظرفاء بالحرمين . فإن كان الأمر كذلك لا عجب فى ابتداء نوع جديد من الشعر لم يسبُق إليه فحولُ الجاهليّة ولا أهلُ البادية ثمّ لا عجب انّ أكثر شعراء المدن الحجازيّة لم يتجاوزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء وتركوا أسلوب القصيدة القديمة . ثمّ شاع حبّ التشبيب فى البلاد البعيدة عن الحجاز وغلب فى شعر بعض من أراد حفظ الأساليب القديمة والتكسُّبَ بالمديح فيروى فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيْبة[٦] انّ « بعض الرُّجّاز أتى نَصْر بن سيّار والى خراسان لبنى أميّة فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشْرة أبيات فقال نصر : والله ما بقّيْتَ كلمة عذبة ولا معنًى لطيفاً إلاّ وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك فإن أردتَ مديحى فاقتصد فى النسيب . فأتاه فأنشده .

هل تعرِف الدارَ لامّ الغَمْرِ ۞ دَعْ ذا وحَبِّرْ مِدْحَةً فى نَصْرِ

(١) الصوران موضع بجوار المدينة المنورة .

(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة عدد ٢١٨ من طبعة ليبسك ١٩٠٢ .

(٣) كتاب الأغانى ج ١ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

(٤) رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٥) ديوان عدد ٥٢ من الطبعة المذكورة .

(٦) ص ١٥ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

فقال نصر لا ذاك ولا هذا ولكن بين الأمرين » .

وأشهر شعراء الحرمين فى ذلك العصر وأنبههم عمر بن أبى ربيعة المخزومىّ المذكور وُلد فى ليلة قُتل عمر بن الخطّاب أعنى فى ٢٦ ذى الحجّة من سنة ٢٣ ومات على القول الأرجح سنة ١٠١ . أمّا قول البعض إنّ عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دَهْلَك القريبة من مدينة مصوّع على سواحل البحر الأحمر الغربيّة فخطأ نشأ من خَلْط وقع بينه وبين صاحبه الأَحْوَص . وكان عمر مفرطاً فى التشبيب بالنساء فكلّ جميلة رآها فى الشوارع أو فى الحجّ وقعت فى نفسه فذهب عقلُه عليها فلم يقلْ شيئاً من الشعر إلاّ فى النسيب والغزل فكثيراً ما أظهر فى أبياته أسماء الحرائر اللواتى هواهنّ مثل زينب بنت موسى ولُبابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثريّا بنت علىّ ونُعُوم وأسماء وغيرهنّ وربّما كاد يشين عِرْضهنّ . وفى القرن الثانى خاف بعضُ الناس على الفتيات ما يمكن أن يهيجه شعره لقلوبهنّ فتُنْسَب فى ذلك إلى الزبير بن بكّار هذه الرواية[١] : «قال حدّثنى ظَبْيَة مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصْعَب قالت : مررتُ بجدّك عبد الله بن مصعب وأنا داخلةٌ منزله وهو بفنائه ومعى دفتر فقال ما هذا معكِ ودعانى فجئته وقلت شعر عمر بن أبى ربيعة فقال ويحكِ تدخُلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعة إنّ لشعرِه لَمَوْقعاً من القلوب ومَدْخَلاً لطيفاً لو كان الشعرُ يسحَر لكان هو فارجعى به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً الزبير بن بكّار المتوفّى سنة $\frac{٢٥٦}{٨٧٠}$: « أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر ابن أبى ربيعة شاعراً من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلّى بمودّته والابتيار[٢] » . وجماعة من الأدباء أثنَوْا على شعره كلّ الثناء وقالوا إنّ عمر أشعر قريش لأنّه « رَقّ معناه ولطُف مَدْخَلُه وسهل

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغانى بعد هذا النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشىء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

مخرَجُهُ ومتُن حَشْوُهُ وتعطّفتْ حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته[١] » .
وممّن بلغ الغاية فى الإطراء مُصْعَب بن عبد الله بن مصعب حيث قال[٢] : « راق عمر بن أبى ربيعة الناسَ وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدّة الأسر وحسن الوصف ودقّة المعنى وصواب المصدر والقَصْد للحاجة واستنطاق الرَّبْع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفّة المقال وقلّة الانتقال وإثبات الحُجّة وترجيح الشكّ فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزَل ونهج العلل وعطف المسَاءة على العُذّال وحسن التفجّع وبُخْل المنازل واختصار الخبر وصِدْق الصفاء إن قدح أورى وإن اعتذر أبرى وإن تشكّى اشجى وأقدم عن خِبْرة ولم يعتذر بِغِرّة وأسَر النوم وغمّ الطير وأغذا السيْر وحير ماء الشباب وسهل وقوّل وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطَرْفه وأبرص بنعت الرُّسُل وحذر وأعلن الحبّ وأسرّ وبطن به وأظهره وألحّ وأسفّ » إلخ . ومن الحرىّ بالاعتبار أنّ شعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابهِ الحجازيّين مع مداره على الغزل فقط ومع قربه غير مرّة من الخَلاعة لم ينحطّ أبداً إلى الفحش والمجون المحض الكثيرِ وجودهُ فى غزل شعراء عهد العبّاسيّين ولكن ليس هنا موضع إيضاح سببَ ذلك . ثمّ من الجدير بالذكر أيضاً أنّ عمر بن أبى ربيعة وأكثرَ شعراء الحجاز لا سيّما مكّة فى زمن الأمويّين إلى أوائل القرن الثانى امتنعوا عن باب الخمريّات فى شعرهم امتناعاً تامّاً ولم يذكروا الخمر إلاّ فى التشابيه مثلَ قول عمر بن أبى ربيعة[٣] :

تَنْكَلُّ عن واضحِ الأنيابِ مُتّسِقٍ ... عَذْبِ المقبّلِ مصقول له أُشُرُ
كالمِسْكِ شِيبَ بذَوْبِ النَّحْل يخلِطُهُ ... ثَلْجٌ بصهباء ممّا عتّقتْ جدَرُ

---

(١) كتاب الأغانى ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأمالى القالى ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤] .
(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .
(٣) ديوان عدد ٥ بيت ١٣ — ١٤ من الطبعة المذكورة . وجدر قرية بين حمص وسلمية تنسب إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوربا .

أو مثل قوله(١) :

إذا ابتسمتْ قلتَ انكلالُ غمامةٍ خَفى برْقُها فى عارضٍ متهلّلِ
كأنَّ سحيقَ المِسْك خالَطَ طَعْمَهُ وريحَ الخُزامَى فى جَديدِ القرَنْفُلِ
بصهباء دِرْياقِ المُـدام كأنّها إذا ما صَفَا راووقُها ماءُ مَفصِلِ

وذلك مع أنّ شُرْبَ الخمر غيرُ مجهول فى ذلك العصر بالمدينة(٢) فكان مثلاً الوليد بن عثمان بن عفّان والوليد بن عُتْبة بن أبى سفيان وعبد الرحمن بن أرْطاة المعروف بابن سَيْحان وجُبَيْر بن أيْمن وغيرهم من الخواصّ معاقرين للخمر متنادمين على الشراب . بَيْد أنّ لم يذهب إلى مدحه إلاّ من ليس من الفحول المشهورين مثل ابن سَيْحان المذكور القائل الشعر فى الشراب والغزل والفخر والمديح وله مع ابن عمّه فى شرب الخمر قصّة غريبة وأبيات(٣) أو مثل عبد الله بن أبى مَعْقِل بن نَهِيك بن إساف الانصارىّ القائل(٤) :

فلولا ثلاثٌ هُنّ من عِيشة الفتى وجَدِّكَ لم أحْفِلْ متى قامَ رامسُ
فمنهنّ سَبْقِى العاذلاتِ بشَرْبة كأنّ أخاها مَطْلِعَ الشمسِ ناعسُ
ومنهنّ تجريدُ الكواعبِ كالدُّمَى إذا ابْتُزَّ عن أكفالِهنَّ الملابسُ
ومنهنّ تقْريطُ الجوادِ عِنانَهُ إذا استبقَ الشَّخْصَ الخَفِىَّ الفوارسُ

ويروى محمّد بن سلاّم الجُمَحىّ ما نصُّه(٥) : « وكان السَّرِىّ بن عبد الرحمن ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف وجُبَيْر بن أيْمَن بن أم

(١) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ الى ١٣ من الطبعة المذكورة .
(٢) راجع LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omaiyade Mo'âwia Ier*, Beirut, 1908, p. 412-415.
(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .
(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١١٨ من طبعة بولاق .
(٥) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أيمن مولى النبيّ (صلعم) وخالد بن أيوب الأنصاريّ وكانوا يشربون النبيذ وكلّهم كان على ذلك مقبول الشهادة جليل القدر مستوراً فقال السريّ :

إذا أنت نادمتَ العتير وذا الندى   جبيْراً ونازعتَ الزُّجاجة خالدَا
أمِنْتَ بإذْن الله أن تُقْرَعَ العصا   وأنْ يُنبِهوا من نَوْمة السُّكر راقدا

فقالوا قبّحك الله ماذا أردت إلى التنبيه علينا والإذاعة لِسِرِّنا إنّك لحقيقَ أن لا نادمك . قال والله ما أردت بك سوءا ولكنه شعر طفَح فَقَثَتُه عن صدرى .
قال وخالد بن أبى أيّوب الذى يقول :

ألا سَقِنى كأسى ودعْ قول مَنْ لَحَى   ورَوِّ عِظاماً قصرهنّ إلى بِلَى
فإنّ بُطوءَ الكاس موتٌ وحَبْسَها   وإنّ دِراكَ الكاس عندى هو الحيا »

فلنرجع إلى سياق الكلام . لو أردنا ذكر شىء من أخبار جميع الذين ذهبوا مذهب عمر بن أبى ربيعة فى مدن الحجاز فى العصر الأمويّ لاحتجنا إلى استغراق مدّة دروس . فحسْبُنا ذكر أسماء بعضهم منهم الأحْوَص المدنيّ الأنصاريّ الذى مات جدّه شهيداً يوم الرَّجيع فى السنة الرابعة للهجرة وخالُهُ يوم أُحُد فلمّا سمع يوماً سُكَيْنة بنت الحسين تفتخر بقرابتها بالنبيّ قال[1] :

فخَرَتْ وانتمتْ فقلتُ ذرينى   ليس جهلٌ أتيتِهِ ببديعِ
فأنا ابن الذى حمتْ لحْمَهُ الدَّبْـ   ـرُ قتيلِ اللِّحْيان يوْمَ الرجيعِ
غسَلَتْ خالِىَ الملائكةُ الأبـ   ـرارُ ميْتاً طُوبَى له مِنْ صريعِ

ولكن إن قطعنا النظر عن مرثيته لمعاوية التى قال فيها[2] :

مَلِكٌ تدينُ له الملوك مباركٌ   كادت لهيْبته الجبالُ تزولُ
تُجْبَى له بَلْخٌ ودجلةُ كلُّها   وله الفرات وما سقى والنيلُ

(١) كتاب الأغانى ج : س ٤٣ من طبعة بولاق .
(٢) مروج الذهب للمسعودى فى الباب الثانى والتسعين ج ٥ س ١٥٨ من الطبعة الباريسية .

وعن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز[١] لم يكن عيشه وشعره إلّا فى الغزل. فمن المعروف أنّ عمر بن عبدالعزيز نفاه إلى جزيرة دَهْلَك لفرْط تشبيبه بنساء ذوات الاخطار من أهل المدينة. ثم عُفى عنه. ومات بدمشق بعد المائة بسنين قليلة. ولسان حال عِيشته ما قاله فى أحد أشعاره[٢] :

أَلاَ لا تَلُمْهُ اليومَ أنْ يَتَبلَّدَا ... فقد غُلِبَ المحزونُ أنْ يتجلَّدَا

وما العيشُ إلّا ما تلَذُّ وتشتهى ... وإنْ لام فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَدا

بكَيْتُ الصِّبا جهْداً فمَنْ شاءَ لامَنى ... ومَنْ شاءَ واسى فى البُكاء وأسْعَدا

وإنّى وإن عُيِّرتُ فى طلَب الصِّبَا ... لَأَعْلَمُ أنّى لستُ فى الحبِّ أوْحَدا

إذا كنتَ عِزْهاةً عن اللَّهْو والصِّبا ... فكُنْ حَجَراً من يابس الصخرِ جَلْمَدَا

ومن شعراء قريش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبى ربيعة فى ذلك المُجيدين العَرْجىّ[٣] وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفّان من نَسْل عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممّن ذكروا نساء قريش فى شعرهم وشبّبوا بالحاجات كما قال[٤] (من بحر الطويل) :

أماطتْ كِساء الخزّ عن حُرِّ وجهها ... وأدْنَتْ على الخدّيْن بُرْداً مهلهَلاَ

من اللاء لم يَحْجُجن يَبْغِينَ حِسْبة ... ولـكن ليقتُلْن البرىء المغفّلا

أو كما قال[٥] فى جَيْداء أمّ محمّد بن هشام أعنى أمّ خال الخليفة هشام بن عبد الملك ($\frac{١٢٥}{٧٤٣}$ — $\frac{١٠٥}{٧٢٤}$) :

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ — ٣٣١ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغانى ج ١٣ ص ١٥٩ من طبعة بولاق.

(٣) مات بمكة فى أيام هشام بن عبد الملك.

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦١ من طبعة بولاق — ماط أبعد وحرّ الوجه ما بدا من الوجنة وحِسْبة الأجر والثواب.

(٥) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٦٢ و ج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفى الـكامل للمبرد ص ٣٩١ من طبعة ليبسك سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أو ج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ الأبيات مروية بغير اسم الشاعر.

لامنس : « أمّا النّواحى التى كانوا يحِلّون فيها فكانت غالباً فى بادية الشام أو ما كان بجوارها . فإنّ معاوية كان يشتو بالصِّنَّبْرة[١] فى الأُرْدُنّ . . . وكذلك عبد الملك سكن الصِّنّبْرة مدّة . إلّا أنّ أكثر الأمويّين اتخذوا لهم منازل فى بادية الشام كما روى صاحب الأغانى والطبرىّ وابن عساكر فإنّ هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلّا ذكروا أيضاً تبدّيه . فإنّ يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته فى حُوّارين[٢] . وسكن ابنه خالد فى البلقاء فى قصر فُدَيْن حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصِّنَّبْرة يقضى شهر إذار فى الجابية وكان له منتزه آخر فى دُومة الجَنْدَل . وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبدّى الّا عمر بن عبد العزيز [٩٩/٧١٧ — ١٠١/٧٢٠] الذى سكن بلدة خُناصرة . — أمّا منزل الخلفاء فى البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفى بضرب الخِيَم والسكن فى المضارب كما أخبر . . . عن هشام بن عبد الملك [١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣] . . . لكنّ تلك المنازل إنّما كانت موقّتة فلم يرضَ بها الخلفاء فآثروا بناء الدُّور الرحْبة والقصور الجميلة . والمرجّح أنّ بعضهم لم يعمِدوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأن أصلحوا ما وجدوه من الأبنية القديمة فى طرف البادية حيث كانت تُخوم الرومان . . . وإنّما احتلّوا تلك المبانى التى سبقهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالاً بما ألحقوا بها من المقاصير وزيّنوها بالزخارف والمحسّنات فاتّخذوا الحمّامات وجعلوا فيها الأحواض وشيّدوا لها المشارب[٣] والعُليّات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير » .

ليس هذا موضع وصف قصور بنى أميّة فى البادية لا سيما فى البلقاء عن شرقىّ بُحيْرة لوط التى اكتشفها فى العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيات وألّفوا فيها الكتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد أسماؤها فى نفس

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .
(٢) حوارين موضع بين دمشق وتدمر على مرحلتين من تدمر وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ (٣) مشارب جمع مشربة وهى الغرفة العلية .

تأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقَّر والقَسْطَل والزَّيْزاء وفُدَيْن وأباثر والنَّجْراء والأزرق والأغْدَف وبعضها لا نعرف إلّا أسماءها المتداولة فى أيّامنا عند أهل تلك البرارى وأفخرها وأفخمها قُصَيْر عَمْرة المزخرَف حيطانها بالتصاوير الملوّنة العجيبة وهو ممّا بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ — ٩٦/٧١٥) والمَشْتَى (أو المُشْتَّى على نطق الأعرابِ) ذو النقوش البديعة المحفوظة الآن فى أحد متاحف برلين وهو على الرأى المرجَّح المقبول قصر بناه يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٠ — ١٠٥/٧٢٤) ليعيش فيه مع جاريته حَبابة ولم يُتِمّه لموت عشيقته الذى سبق قتله بيسير[1] . فمن اعتبر تلك الأبنية استجاد قول عثمان بن الوليد بن عُمارة القرشىّ بعد ما ذكر فعلَ الدهر بملوك بنى أميّة[1] :

فأصبحوا لا ترى إلّا مساكنَهُمْ قَفْرًا سوى الذكرِ والآثارِ إن ذُكِرُوا

استطردت قليلًا بهذا البيان لأهميّته ولا أرى فى ذلك ضررًا لأنّى فى هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصّة أُحبّ إيجاز الكلام فيما هو معروف والإطناب فيما هو غير متداوَل وإن عدمت موازنةُ أجزاء البيان . — أمّا خلاصة ما شرحته فى الصحف السابقة فإثبات ما آتٍ : ١ً أنّ مُعظَم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة بها فى زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيّما اليمنيّة أو المنسوبِ أصلها إلى اليمن . ٢ً إنّ رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من أهل العقد والحلّ مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبّتهم له وتعظيمهم لقائليه ٣ً إنّ سكّان المدن الشاميّة الكبرى وهم سريان وروم لم يزالوا مدّة طويلة بعد الفتح قليلى المعرفة باللغة

---

(١) خطأ جرجى أفندى زيدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرهما إلى بنى غسان (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم فى مقالته فى حوران المدرجة فى مجلة الهلال السنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ — ١٤٤) وإنما اغترّ بترجمة رجمه دوسو (Dussaud) فى أول اكتشاف تلك المبانى وهو ظنّ فاسد كما أظهره بعد دوسو علماء المشرقيات .

(٢) حماسة البحترى ص١٣٤ سطر١ من طبعة ليدن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت .

العربيّة غيرَ معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك فى العراق إلاّ أن سكّانها الأصليّين فرس وارامّيون . ٤ إنّ الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواصّ أم من العوامّ لم تزالوا هائمين ببوادى أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها . — فإن كان الأمر كذلك لم نتعجّب أنّ الشعراء الوافدين إلى خلفاء بنى أميّة وأمرائهم فى القرن الأوّل صاغوا نظمهم فى قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهليّة ونهجوا طُرُقهم فى عمل القصائد على الأسلوب القديم فى المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر الخمر .

اجمع علماء اللغة والأدب على أنّ الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربىّ فى أيّام بنى أميّة ثلاثةٌ : الأخطل والفرَزْدَق وجَرير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذى نحن بصدده . وأقدمهم سنًّا الأخطل[١] الذى لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق[٢] وما يُستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنّما هو أنّ الأخطل أخذ يشتهر فى الشعر وهو شابّ على عهد معاوية ($\frac{٤١}{٦٦١}$ — $\frac{٦٠}{٦٨٠}$) كما يظهر أيضاً من ديوانه وانّه مات فى خلافة الوليد بن عبد الملك الذى تولّى الأمر من سنة $\frac{٨٦}{٧٠٥}$ إلى سنة $\frac{٩٦}{٧١٥}$. وكان نصرانيًّا كمُعظَم بنى تغلب[٣] وهم قبيلة عظيمة من ربيعة سكنت فى القرن الأوّل قسمًا كبيرًا من برّيّة الجزيرة أعنى القسم المحدود بمدار المَوْصِل وسِنجار شمالاً ونهر دِجْلة شرقاً ومدار تَكْريت وعانة ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهى برّيّة متّسعة جدًّا يقطعها نهر الثّرثار . ولكن لولا ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى من تمسُّكه بدينه ومن احترامه وخضوعه التامّ لرؤساء ديانته[٤] ولولا الأبياتُ الثلاثة التى قالها انكاراً لدُعاء عبد الملك إيّاه إلى

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبي .

(٢) قال الأب صالحانى فى مقالته التى سماها الأخطل ومصقلة بن هبيرة (فى مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٣٣ — ٨٤٣) إن الأخطل ولد فى سنة $\frac{٨}{٦٢٩ — ٦٣٠}$ بالتقريب ومات سنة $\frac{٩١}{٧١٠}$ تقريباً وفى هذه المقالة أيضاً بحث نقدى فى فن الأخطل .

(٣) وهم من الذين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites) .

(٤) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٧٩ و١٨٢ و١٨٣ من طبعة بولاق .

الإسلام[١] ثمّ لولا ما قال فيه جرير معرِّضاً به[٢] هاجياً له لتشككنا فيه بعد
مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصرانيّ . فإنه مزج أحيانًا الديانتين فقال[٣] :

إنّى وربِّ النصارى عند عيدِهِمِ   والمسلمين إذا ما ضمَّها الجُمَعُ
وربِّ كلِّ حَبيسٍ فوق صَوْمَعَة   يُمْسِى ولا همُّهُ الدنيا ولا الطَّمَعُ
لقد مدَحْتُ قُرَيْشًا واستغثْتُ بهِمْ   إذ ما أنامُ إذا ما صُحْبَتِى هَجَعُوا

وقال يهجو بنى أسد[٤] :

فأمّا تَمَنِّيكُمْ قُرَيْشًا فإنَّها   مصابيحُ يَرْمِيها بعينيه ناظِرُ
فما أنتم منها ولكنَّكم لها   عَبِيدُ العَصَا ما دام للزَّيْتِ عاصِرُ
فما خُتِمَتْ أكْتافُكُمْ لنُبُوَّةٍ   وأستاهُكُمْ قد أنكرَتْها المنابِرُ

وقال أيضاً[٥]

إنّى حلفْتُ بربِّ الراقصات وما   أضْحَى بمكّة من حُجُبٍ وأستارِ
وبالهَدِىِّ إذا احمرَّتْ مَذارِعُها   فى يوم ذَبْحٍ وتشريقٍ وتَنْحارِ

---

(١) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ — ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [— ١٩٢٥]
(٢) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٣٤ ، ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ٠
و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ — ٢٩٢ و ١٤
و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .
(٣) ديوان ص ٧١ — ٧٢ من الطبعة المذكورة .
(٤) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشى الأب صالحانى ص ٥٠٠ . أما الشطر الثانى
من البيت الثانى فراجع بيت جرير :

يا خزر تغلب إن اللؤم حالفكم   ما دام فى ماردين الزيت يعتصر

فى ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .
(٥) ديوان ص ١١٩ — هدى ما أهدى الى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدْى —
مذارع قوائم — أشمط الذى شعر رأسه أبيض وأسود — العون جمع العوان وهى المرأة النصف
سنها والتى كان لها زوج .

وما بِزَمْزَمَ من شُمْطٍ مُحلِّقةٍ   وما بيثْرِبَ من عُونٍ وأبكارِ
لألجأتنى قُرَيْشٌ خائفاً وَجِلاً   ومَوَّلَتْنِى قريشٌ بعد إقْتارِ

وقال أيضاً[١] :

وقد حلَفْتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ   بالله ربِّ ستورالبيتِ ذى الْحُجُبِ

وقال فى الوليد بن عبد الملك[٢] :

خليفـةُ الله يُسْتَسْقَى بسُنَّتِهِ   الْغَيْثُ من عند مُولِى العِلْمِ مُنْتَخِبِ

وقال حالفاً[٣] :

حَلَفْتُ بِمَنْ تُساقُ له الهَدايا   ومَنْ حَلَّتْ بكعبتِهِ النُّذورُ

ولعلَّ لسانَ حال هذه الأبيات فى شعر الأخطل قولُ القاضى عبد الوهّاب بن علىّ البغدادىّ فى مدينة بغداد[٤] :

ظِلْتُ حَيْرانَ أمشى فى أزقّتِها   كأنّنى مصحفٌ فى بيت زنديقِ

ولـكنّها وإن كانت من أغرب الغرائب بادىء نظر تُعْقَلُ إذا تذكّرنا ما شرحتُهُ فى إحدى الصحف السابقة من قلّة العواطف الدينيّة عند أهل الوبر ثمّ إذا افتكرنا فى ورود مثل تلك العبارات والأيمان فى شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهَج مناهجهم ويحذوَ حذْوَهم ثمّ إذا لاحظنا أنّ جميع تلك الأبيات الإسلاميّة المذكورة وردت فى قصائد فى مدح بنى أميّة . ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عدىّ بن زيد العِبادىّ النصرانىّ الذى عاش فى عهد الجاهليّة حسبما مرّ ذكره قد سبق الأخطل فى مَزْج ديانتين حيث قال[٥] :

---

(١) ديوان ص ١٨٤ . (٢) ديوان ص ١٨٥ — بسنته بوجهه وطرائقه – مولى العلم معطيه – منتخب يعنى الله . (٣) ديوان ص ٢٠٤ . (٤) المتوفى سنة ٤٣٧ / ١٠٤٥ — البيت مروى فى وفيات الأعيان لابن خلـكان عدد ٤١١ من طبعة غوتنجن أو ٣٧٣ من الطبعات المصرية وفى فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .
(٥) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

سعى الأعداء لا يألون شرًّا   عليكَ وربِّ مكّةَ والصليبِ

ويروى أبو الحسن علىّ بن محمّد المدائنىّ المتوفّى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أنّ بنى بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت فى شىء رضيتْ بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدّمون إليه[١]. فمن هذا القبيل أيضاً قصّة الأخطل مع عِكْرِمة بن رِبْعِىّ الفيّاض فى مسجد الكوفة رواها صاحب الأغانى عن نفس المدائنىّ[٢]، وليس ذلك بغريب فى ذلك العصر لأنّ من أدمن الفكر فى النصوص والشواهد القديمة عرف أنّ المساجد لم تُخَصَّصْ أوّلاً بالأمور الدينيّة بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأندية يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسيّة وغيرها من الأمور الدنيويّة فلم يُمْنَع النصارى عن المرور والوقوف بها[٣]. أمّا تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلّق بالدين فابتدأ فى أيّام بنى العبّاس وهو أيضاً زمان حَصْر الخطبة على المنبر فى أمور الدين[٤].

أمّا اتّصال الأخطل بخلفاء بنى أُميّة وأمرائهم فأشهر من أن أحتاج إلى وصفه فى هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتّصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القدماء وأميالهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام فى القرن الأوّل . قد تشبّب عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصارىّ أو بالأحرى أظهر أن يتشبّب برَمْلَة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعراً مرويًّا فى كتاب الأغانى[٥] كاد يهتك به عِرْضَها والمرجّح أنّه فعل ذلك لبُغْضه للأمويّين . فغضِب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جُعَيْل التغلبىّ أن يهجو الأنصار كلّهم فأبى خوفاً منهم ودلّ على الأخطل . فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٧٩ .   (٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٨٧ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*, p. 8 n., 13 n., 58 n., 205 n., 372, 435-436.

(٤) راجع GOLDZIHER, *Der Chaṭîb bei den alten Arabern* (*Wiener Zeitschr. der Kunde des Morgenlandes*, VI, 1892) p. 99-101; C.H. BECKER, *Die Kanzel im Kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldeke gewidmet, Giessen 1906) p. 331-351.

(٥) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بولاق .

المشهورة[١] . وإنّ في ذلك لنظرًا لأنّكم لو سمعتم هذا الخبر مجرّدًا عن أسماء أصحابه لظننتم أنّه من روايات عرب الجاهليّة لما فيه من استعمال الهجاء مدافعةً عن العِرْض بل من عمّ قوم الخصم قاطبةً بالهجاء والإقذاع . — وفي ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجوا بها الأنصار والسبب في ذلك سياسيّ لأنّ الأنصار سوى نفر قليلين تحزّبوا لعليّ بن أبي طالب وقاتلوا معاوية في يوم صِفّين ثمّ لم يزالوا مُبغضِين بني أميّة إلى أواخر القرن الأوّل .

إنّ الأقطاب التي يدور عليها ديوانه هي مدح الخلفاء والأمراء من بني أميّة وهجاء أعدائهم من العَلَويّين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزُّبَيْر والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيّين وذكر الخمر وما في شربها من اللذّات . أمّا المراثي فلا يوجد منها في ديوانه إلّا قطعة واحدة وهي أربعة أبيات يرثي بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب[٢] . ومن مدائحه الشهيرة القصيدة التي مطلعها[٣] :

خَفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكَروا   وأزعجتْهم نوًى في صَرْفها غِيَرُ

وهي أفخر ما قيل من الشعر باللغة العربيّة .

من المشهور أنّ الأخطل كان معاقرًا للخمر كأنّه رأى أنّها تجوّد قريحة الشاعر فقال مرّة للمتوكّل اللّيثيّ الشاعر: « لو نبحتَ الخمرُ في جوفك كنتَ أشعر الناس ». وفي ديوانه ما نصّه[٤] : «قال له عبد الملك وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين

(١) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة العثمانية ألغيت الأبيات في نسخ الديوان المطبوع غير المرسلة إلى أوربا مع ورودها في الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ وج ١٤ ص ١٣٢ وفي كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية في مقالته *Le chantre des Omiades* (*Journal Asiatique*, sér. IX, t. IV, 1894) p. 135.

(٢) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لامنس في مقالته المذكورة سابقاً ص١٣٩ — ١٤٠ وأول من نبه إلى ذلك هو الأب ا . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٣) ديوان ص ٩٨ — ١١٢ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ .

إذا شربتُها فالموتُ أهوَنُ عليَّ من شِسْعِ نعلي . فقال له قل فيه شعرًا و إلاّ ضربتُ عنقك » . فقال[١] .

إذا ما نديمي علّني ثم علّني   ثلاثَ زُجاجاتٍ لهن هديرُ
جعلتُ أجرُّ الذيل منّي كأنني   عليكَ أميرَ المؤمنين أميرُ

أمّا على ظنّي فالمرجّح أنّه لم يتعاطَ الخمريّات لمحض حبّه للخمر وأنّ غرضه في نعوت الحميّا وأوصافها كان أيضاً الاقتداء بكثير من شعراء الجاهليّة البارعين كما اقتدى بهم في سائر أفانين شعره . ولعلّه إلى ذلك أشار بقوله في أوّل إحدى خمريّاته[٢] :

شربنا فمتنا ميتةً جاهليّةً   مضى أهلُها لم يعرفوا ما محمّدُ

وعلى منوال القدماء النوابغ لم يأتِ بالنسيب إلّا في أوائل القصائد غير أنّه في نسيبه سلكَ أحيانًا مسلكًا غير المألوف في قصائد الجاهليّة البارعين فبدلاً من أطلال قوم معشوقته ذكر فيه الفتيات ذوات شكل ودلال مثل قوله في قصيدة هجا بها جريرًا وافتخر على قيْس[٣] :

وتغوّلَتْ لِترُوعَنا جِنّيّةٌ   والغانياتُ يُرِينَكَ الأهْوالَا

(١) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الأغاني ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ — ٢٣ وفيه زياد (يعني زياد ابن أبيه المتوفى سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلا من نديمي وزهواً بدلا من مني وخرجت بدلا من جعلت و ص ٥ سطر ٨ — ٩ بروايتي خرجت وزهواً — ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن وحماسة أبي تمام ص ٢٦٦ — ٢٦٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سكرت فإنني   رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني   رب الشويهة والبعير

أما جر ذيل المطرف فهو دليل على الغضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ من الأبيات والأحاديث النبوية [وغير ذلك مما أورده الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠ حاشية ١] .

(٢) ديوان ص ٣٢١ .

(٣) ديوان ص ٤٢ — ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ — ١٠٠ في القصيدة التي قالها يمدح بني أمية .

يَعْدُدْنَ من هَفَواتِهِنَّ إلى الصِّبَى　　سبباً يَصِدْنَ به الغُواةَ طِوالَا

ما إنْ رأيتُ كَمَكْرِهِنَّ إذا جرى　　فينا ولا كحِبالِهِنَّ حِبالَا

المُهْدِياتُ لمن هَوِينَ مَسَبَّةً　　والمُحْسِناتُ لمن قَلَيْنَ مَقالَا

يَرْعَيْنَ عَهْدَكَ ما رأَيْنَكَ شاهِدًا　　وإذا مَذِلْتَ يَصِرْنَ عنك مِذالَا الخ

ثم من الحرىّ بالاعتبار قول عمر بن شَبَّة المتوفى سنة ٢٦٢/٨٧٦ : كان مما يقدّم به الأخطل أنّه كان أخبثهم هِجاء فى عفاف من الفحش . وقال الأخطل ما هجوت أحداً قط بما تستحى العذراء أن تُنْشِده أباها[١] » . وهذا القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف الأخطل فى عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصرَيْه الشهيرَيْن جرير والفرزدق والذين ملؤوا هجاءهم ما يستنكِف ذو أدب من إنشاده وتنبو عنه الآذان .

قد سبق تلميح إلى نقائض الأخطل وجرير وكان سبب اضطرام نار العداوة بينهما مناضلة الأوّل عن الفرزدق لمّا أخذ جرير هاجاه . والفَرَزْدَق واسمه همّام بن غالب كان من بنى دارم حىّ من تميم أقامت بنواحى البصرة بعد الفتح الإسلامىّ فوُلد فى أواخر خلافة عمر بن الخطّاب المتوفّى سنة ٢٣/٦٤٤ أمّا سنة مماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ و بعضهم سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤[٢] . وكان

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ س ١٧٨ من طبعة بولاق .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٥٥ من الطبعات المصرية وقال صاحب كتاب الأغانى (ج ١٩ س ٦) فى رواية عن أبى زيد النحوى : « وتوفى الفرزدق فى سنة عشر ومائة فى خلافة هشام [١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٣٤] وجرير والحسن وابن سيرين فى ستة أشهر . وحكى ذلك عن جماعة منهم الغلابى عن ابن عائشة عن أبيه » وقال فى نفس الجزء (ص ٤٥) «وقال أبو زيد مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير فى سنة عشر ومائة... وهذا غلط من أبى زيد وابن شبة لأن الفرزدق مات بعد يوم كاظمة وكان ذلك فى سنة اثنتى عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره فى مواضع من قصائده ويقوى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : حدثنى ابن النطاح عن المدائنى عن أبى اليقظان وأبى عام المجاشعى أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة ومائة » ثم قال فى ص ٤٦ : « وقال ابن زكرياء الغلابى عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير فى سنة عشرة

كأكثر أهل البادية رحّالاً ينتقل من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل
فنجده تارة بالبصرة وتارة بالكوفة ومرّة بالمدينة ومرّة فى أرض البلقاء من الشام وافداً
على خلفاء بنى أميّة مثل الوليد وسليمان ابنَىْ عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. ويلوح
ممّا جاءنا من أخباره وأشعاره العديدة أنّه كان على جيّد شعره دنىء النفس فمدح من
نال منه الجوائز وهجا من لم يشذُف منه ما رجا فربّما بعد الثناء الوافر على أحد
الكبار فى قصيدة أخذ يشتِمه شَتْماً قبيحاً فى قصيدة أخرى. فأطرأ مرّةً عمر
ابن هُبَيْرة الفَزارىّ والي العراق بعد موت الحجّاج بن يوسف وعدّ مفاخر قومه ثمّ
بدّل المدح سبّاً فقال فيه وفى بنى فزارة شعرًا بَشِعًا[1] وهجا فى بضع قصائد آل
المهلَّب بن أبى صُفْرة الأزدىّ من أشهر بيوتات البصرة وقال مثلاً[2]:

وَجَدْنا الأَزْدَ من بَصَلٍ وثُومٍ وأَدْنَى الناس من دَنَسٍ وعارِ
صَرارِيُّونَ ينضِحُ فى لِحاهُمْ نَقِيُّ الماء من خَشَبٍ وقارِ

مع ما يليها من الكلام القَذِر الذى يُستقْبَح إيراده هنا. ولكن لم يمنعه هذا وهجاء

[كذا] ومائة ومات جرير بعده بستة أشهر ومات فى هذه السنة الحسن البصرى وابن سيرين »
وفى ص ٤٨ : « قال أبو عبيدة ومات الفرزدق فى سنة عشر ومائة » . ويقال فى كل الروايات
أن جريراً توفى بعد خصمه .

(١) فى المدح : ديوان ص ١٧٨ — ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بعناية Boucher
الذى نقل أيضاً القصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ — ٢٨٢ من طبعة مصر ١٣٥٤]
ولا توجد هذه القصيدة فى طبعة مصر ١٢٩٣ — فى الهجاء : ديوان ص ١٧٩ — ١٨١ من
طبعة باريس [أو ص ٢٨٢ — ٢٨٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد فى طبعة مصر ١٢٩٣ .
وروى التبريزى فى شرحه على حماسة أبى تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أو ج ١ ص ٢٠٥ من
طبعة بولاق) بيتين من هذه القصيدة التى تحتوى على ٣٧ بيتاً .

(٢) ديوان ص ٨٥ — ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ — ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٢٥٢ — ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 59, 1905, p. 595-600) [et SCHWARZ, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitsch. d. deutschen morgenländ. Gesell*, 73, 1919. p. 80-85] — الصرارى الملاح — أما الأزد فهم ساكنون على شاطىء البحر فى العمان.

آخر مثلهُ عن الثناء على آل المهلَّب حين تغيّرت منزلته عندهم فقال مثلاً[١] :

لَأَمْدَحَنَّ بنى المهلّب مِدْحةً ... غرّاء ظاهرةً على الأشعار

مثلَ النجوم أمامَها قمرٌ لها ... يجلو الدُّجى ويُضىء ليلَ السارى

ورِثوا الطِعانَ عن المهلّب والقِرى ... وخلائقاً كتدفُّق الأنهارِ

كلُّ المكارم عن يديه تقسّموا ... إذ مات رِزْقُ أراملِ الأمصارِ

كان المهلّب للعراق سكينةً ... وحَيَا الربيع ومَعْقِلَ الفرّارِ

وكان علويًّا فلمّا حجّ هشام بن عبد الملك فى أيّام أبيه والتقى فى الطواف زين العابدين علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وقال هشام لا أعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، قال الفرزدق وهو كبير السنّ قصيدة غرّاء مدح بها زين العابدين وأوّلها[٢] :

هذا الذى تعرف البطحاء وطْأتَه ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

---

(١) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة ليدن ١٩٠١ بعناية Hell [ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى هذه القصيدة فى الطبعتين الأخريين . وجمع J. Hell كل القصائد التى يمدح الفرزدق فيها آل مهلب أو يهجوهم فى المقالة المسماة *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* المطبوعة فى المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft* ج ٥٩ ص ٥٨٩ — ٦٢١ و ج ٦٠ ص ١ ــ ٤٨. [وقد اعتنى P. Schwarz بتصحيح هذه المقالة فى المجلة نفسها ج٧٣ سنة ١٩١٩ ص ٨٠ — ١٢٦] .

(٢) ديوان ص ١٩٨ — ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ — ٨٤٩ من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة فى طبعة باريس فانظر أيضاً كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٠ — ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو ٧٥٥ من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وترتيبها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى الحزين الليثى (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذى « قالها فى على بن الحسين بن على بن أبى طالب » فى حماسة أبى تمام ص ٧١٠ — ٧١١ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٨٢ — ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات) وكتاب الأغانى ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغانى فى نفس هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها للفرزدق ويروى ٧ أبيات فقال التبريزى فى شرحه على الحماسة : « ويقال إنها للفرزدق » .

وروى بيتان منها فى كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٧ من الطبعة الليدنية) هكذا : « كقول

هذا ابن خير عِباد الله كلّهمُ ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العَلمُ
هذا ابن فاطمة إن كنتَ جاهلَهُ ... بجَدّهِ أنبياء الله قد خُتِموا
وليس قولكَ مَنْ هذا بضائرِهِ ... العُرْبُ تعرف مَنْ أنكرتَ والعجَمُ

ومنها :

إذا رأتْهُ قريش قال قائلها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكرمُ
يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابتِهِ ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسِمُ

فغضِب هشام وحبس الفرزدق بين مكّة والمدينة . بيد أنّ ميله هذا إلى العلويّين وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة فى مدح الأمويّين ووصفهم أحياناً فيها بعبارات دينيّة أصبحت كأنها ضالّة فى أثناء مثل تلك القصائد المنسوجة على أساليب عرب الجاهليّة . فقال فى سليمان بن عبد الملك : ($\frac{٩٦}{٧١٧}$ — $\frac{٩٩}{٧٢٠}$)(١) :

وبالمسجد الأقصى الإمامُ الذى اهْتَدَى ... به من قلوب المُمْتَرين ضلالُها
به كشفَ اللهُ البلاءَ وأشْرَقَتْ ... له الأرضُ والآفاقُ نحسٌ هلالُها

ومنها :

وَجَدْنا بنى مروان أوتادَ دِينِنا ... كما الأرضُ أوتادٌ عليها جِبالُها
وأنتمْ لهذا الدين كالقبلة التى ... بها أن يضِلَّ الناسُ يُهْدَى ضَلالُها

وقال يمدح هشام بن عبد الملك ($\frac{١٠٥}{٧٢٤}$ — $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$)(٢) :

وما تركَتْ كفّا هشامٍ مدينةً ... بها عِوَجٌ فى الدين إلاّ تقوّمَا

القائل » وقيل فى بعض النسخ : « فى بعض بنى أمية » والأبيات مروية أيضاً لداود بن سلم أو خالد ابن يزيد فى قثم بن العباس أو على بن الحسين (كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٧٨ — ٧٩) وروى الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها « الشاعر فى بعض بنى مروان » .

(١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ سطر ٩ — ١٠ من طبعة باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة فى طبعة ١٢٩٣ .

يُؤدِّى إليه الخرجَ مَنْ كان مشركاً ويَرْضَى به مَنْ كان لله مُسْلِما

وقال فى يزيد بن عبد الملك ($\frac{١٠١}{٧٢٠}$ — $\frac{١٠٥}{٧٢٤}$) (١) :

ورِثْت ابن حرب وابن مروان والذى به نَصَرَ اللهُ النبىَّ مُحمَّدا

ترى الوحشَ يَسْتَحْيِنَهُ إذ عرَفْنَهُ له فوق أركانِ الجراثيمِ سُجَّدا

ومنها :

ولو صاحَبَتْهُ الأنبياء ذوو النُّهَى رأَوْهُ مع المُلْكِ العظيمِ المسوَّدا

وقال يمدح هشام بن عبد الملك (٢) :

رأيتُ بنى مَرْوانَ يَرْفَعُ مُلْكَهمْ ملوكٌ شَبابٌ كالأُسُودِ وشِيبُها

هم جمع الله الصلاة فأصبحتْ قد اجتمعتْ بعد اختلافٍ شعوبُها

ومَنْ ورِثَ العُودَيْن والخاتَم الذى له المُلْكُ والأرضُ الفَضاء رحيبُها

أمّا سائر مدائحه لبنى أُميّة فجارٍ فى قالب المدح الجاهلىّ الخالص وربّما اجترأ الفرزدق بهجاء نفس الخلفاء مثل قوله حين أعطى معاويةُ الحُتَاتَ بن يزيد المجاشعىّ من أصدقاء الشاعر أربعين ألف درهم فلم يخرج الحُتات من دمشق حتّى مات فردَّ المال إلى بيت المال فقال الفرزدق (٣) :

أتأكُلُ ميراثَ الحُتاتِ ظَلامةً وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ

أبوك وعمّى يا معاوِىَ أوْرَثَا تُراثاً فيَحْتازُ التُّراثَ أقاربُهْ

(١) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ — ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة فى طبعة ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] العودان منبر النبى وعصاه .

(٣) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ — ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩ من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٩٧ من طبعة ليدن . ويروى فى ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذى تولى الأمر وهو ابن أربع وثلاثين سنة ولذلك قال الشاعر إنه « غلام » .

فلو كان هـذا الدِّينُ فى جاهليّةٍ   عَرَفْتَ مَن المَوْلَى القليلُ حلائبُهْ
ولو كان هذا الأمرُ فى غيرِ مُلْكِكُمْ   لَأبْدَيْتُهُ أو غَصَّ بالماء شاربُهْ
وكم من أبٍ لى يا معاوىَ لم يَكُنْ   أبوكَ الذى من عبد شمسٍ يُقاربُهْ

إنّ هذا الكلام السفيه غريب جدًّا من رجل جعل شعره مَكْسَبًا وطمِع فى هدايا الملوك والأكابر ولكنّه على ذلك معقول إذا تأمّلنا أحوال المُلْك والمسلمين المنتقلين إلى أراضى الشام والعراق بعد الفتوح . كان مُعْظَم العرب المسلمين فى تلك الأنحاء من أهل القبائل فلم يزالوا هناك على ما كانوا اعتادوه منذ الزمان القديم من العوائد والأخلاق والأفكار والآراء سوى الدينيّة فما برِح ينبِض منهم عِرْقُ العَصَبيّة فما فتئوا مولَعين بالحرّيّة والاستقلال التامّ قليلى الطاعة غيرَ منقادين لا يفهمون وجوب قوّة شديدة وحيدة وأمر متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أمم مختلفة ولدفاع سطَوات العدوّ عنها . إنّهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة فى جملة الأمّة الإسلاميّة كمنزلة السيّد البدوىّ فى قومه أعنى أنّ أمير المؤمنين على رأيهم إنّما كان رجلاً وكّلتْهُ الجماعة به بالسودد وتولّى مصالحها فلا يطاع إلّا فيما رضِيَتْ الجماعة به . فلو أراد الخليفة إلزامَهُم مثل ما أُلزم أهل الحضر المتمدّنين لما بلغ مَرامَهُ بل آثار الفتن والعِصْيان وعرّض المملكة على خطر عظيم . وفطَن بذلك معاوية لما جُبل له من البراعة والحيلة فى أمور السياسة فتحمّل من أعرابه ما لم يتحمّله من غيرهم كما يتّضح من عدّة أخبار متفرّقة فى كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربّه وتاريخ الطبرىّ وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب كأنّ حكمة سيرته القول المنسوب إلى علىّ بن أبى طالب : « حلمك على السفيه يُكثِر أنصارك عليه[١] » . ولكنّ حلمه ذلك الذى وُصِف به فى القصائد والكتب لم يكن عنده الشفقةَ والرحمة بل إنما كان العقلَ وقهر الغضب كلّما صلح له قهرُهُ . فلهذا السبب لم يكن يحنق إن خاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عمّى مكان يا أمير المؤمنين

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

لمصاهرة معاوية فى قبائل قيس وكلب ولا غضب إذا ردّ كلامه بما يُحْمَل على قوانين أدب أهل البادية وإن لم يُحْمَل على مقتضى أدب المتمدّنين . وكان معاوية يقول : « إنّى لا أحمِلُ السيْفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تكن إلّا كلمةٌ يَشْتَفِى بها مشْتَفٍ جعلتُها تحت قدَمِى ودُبُرَ أُذُنى[١] » . والحقّ يقال إنّ هذا النوع من الحلم كان له أوثقَ الوسائل وأنفعها لاستميال أهل القبائل وقيادتِهم والنجاح فيما لم ينجح فيه قبله علىّ بن أبى طالب[٢] . فاقتدت به كثير من الخلفاء والأمراء الأمويّين فقال عبد الله بن الزَّبِير الشاعر فى بشر بن مروان[٣] :

وطَدْتَ لنا دِينَ النبىّ محمّدٍ بحِلْمك إذ هرّتْ سفاهًا كلابُها

وقال أيضًا[٤] :

أقام لنا الدينَ القويمَ بحلمه ورأىٍ له فضلٌ على كلّ قائلِ

فإذًا يُعْقَل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقًا ويُعْقَل أيضًا قول الأخطل لمّا شكا إلى عبد الملك بن مروان ($\frac{٦٥}{٦٨٥}$ — $\frac{٨٦}{٧٠٥}$) إغارةَ سُلَيْم على تغلب يوم البشر[٥] :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْرِ وَقْعةً إلى الله منها المُشْتَكَى والمعوّلُ

فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذِمّةٍ وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يُوصَّلُ ....

فإنْ لا تُغَيِّرْها قريشٌ بمُلْكِها يكُنْ عن قريشٍ مُسْتَمازٌ ومَزْحَلُ

فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله فى قصائد شعراء هذا الصنف أبياتٌ دينيّة أدرجها فى قصيدة مدح بها الوليد بن عبد الملك

---

(١) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

(٢) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*. chap. V, p. 66-108.

(٣) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٥ .

(٥) ديوان الأخطل ص ١٠ — ١١ ، الجحاف شاعر بنى سليم ورئيسهم — يرجع الضمير فى يغيرها إلى حال محذوف — استماز انتقل من مكان إلى مكان .

($\frac{٨٦}{٧٠٥}$ — $\frac{٩٦}{٧١٥}$) وذكر هَدْمَه بِيعة النصارى بدمشق وجعْلَه إيّاها مسجداً [١] :

فرّقْتَ بين النصارى فى كنائسهم	والعابدين مع الأسْحَارِ والعَتَمِ
وهمْ معًا فى مصلّاهم وأوْجُهُهم	شتّى إذا سجَدوا لله والصَّنَمِ
وكيف يجتمع الناقوسُ يضربُهُ	أهلُ الصليبِ مع القُرّاء لم تَنَمِ
فُهِّمْتَ تحويلَها عنهمْ كما فَهِمَا	إذْ يحكُمانِ لهم فى الحرْث والغنَمِ
داوُدُ والملِكُ المَهْدِىُّ إذْ حَكَمَا	أولادَها واجتزازَ الصُّوفِ بالجَلَمِ
فهمـك اللهُ تحويلًا لبيعتِهمْ	عن مسجدٍ فيه يُتْلَى طيّبُ الكَلِمِ

وخلافًا للأخطل قد تعاطى الفرزدق الرثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذله جرير [٢] لحبّه لشرب الخمر ولكنّه لم يقلْ فيها إلّا شعراً قليلاً جدًّا أعنى ثلاثة أبيات وردت فى ديوانه [٣] وتُشْبِه خمريّات أبى نواس ثمّ أربعة أبيات رويت فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة [٤] وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى [٥] . أمّا الغزل فله فيه قصيدة طويلة [٦]

---

(١) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] — الملك المهدى هو سليمان عم فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) ٧٨ — ٧٩ .

(٢) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من طبعة ١٣٥٤] والنقائض ص ٥٤٣ سطر ١٥ من طبعة ليدن .

(٣) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وإجّانةٍ رَيّا الشروبِ كأنّها	إذا اغتمست فيها الزُّجاجة كوكبُ
مختّمةٍ من عهد كسرى بن هُرْمز	بكرنا عليها والفراريجُ تَنْعَبُ
سبقتُ بها يومَ القيامة إذ دنا	وما للصِّبا بعد القيامة مطلبُ

(٤) ص ٢٩٤ من طبعة ليدن .

(٥) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من طبعة بولاق .

(٦) ديوان ص ٩٩ — ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ — ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ٢٥٥ — ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

ومقطّعتان[١] غير أنّها جميعها فى غاية الخَلاعة والفسق لا سيّما المقطّعتان الشبيهتان بمجون أبى نواس . فختم القصيدة قائلاً[٢] :

فيا ربِّ إن تغفِرْ لنا ليلة النَّقَا فكلُّ ذنوبى أنْتَ يارَبِّ غافِرُهْ

وربّما افتخر بقبيلته وهى تميم فجعلها فوق سائر الناس حتّى قال[٣] :

وأفضَلُ مَنْ يمشى على الأرض حيُّنا وما ضَمِنَتْ فى الذاهبين قبورُها..

ولو أنّ أرض المسلمين يحُوطُها سِوانا من الأحياء ضاعت ثغورُها

لنا الجنّ قد دانت وكلُّ قبيلةٍ يَدينُ مُصلُّوها لنا وكَفورُها

وأراد أيضاً الفخر بنفسه فحيث أنّه كان من أجبن الناس لم يقدر على تخليد ذكر مآثره فى الحرب فاكتفى بوصف ذبحه الغنم للقِرَى كأنّه واصف قتالاً شديداً وملحماً هائلاً مُرْعِباً[٤] . وكان الفرزدق من أهجى الشعراء فكاد الهجاء يملأُ نصف ديوانه وهو هجاء بَشِع قبيح كلّه شتمٌ سافل وتعيير وابتهار فى الأَخوات والأمّهات وقذْفٌ للمُحْصَنات الغافلات توافق بذاءةُ ألفاظه دَناءةَ معانيه . ولعلّه تاب إلى الله أحيانًا وهو مُسِنّ فى سوء هجائه فيروى فى ديوانه أنّ رجلاً من موالى باهلة يقال له حُمَام أعطى الفرزدق نِحيًا من سَمْن بشرط أن يهَبَ له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا إبليس فى قصيدة كأنّه[٥] مُلْهِم ما قد مرّ من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

---

(١) ديوان ص ٢٢٩ — ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ — ٣٠٩ و ٨٩٤ — ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة البارسية [أو ص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى القصيدة فى طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أو ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٥٤].

(٥) ديوان ص ١٠٩ — ١١١ من طبعة باريس أو ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٩ — ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٥٤] ويروى البيت الأول والثانى والثالث فى ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة

أَلَمْ تَرَنِى عاهدتُ ربّى وإنّنى لَبيْنَ رِتاجٍ قائمٌ ومَقامِ

على قَسَمٍ لا أشتِمُ الدَّهْرَ مسلِمًا ولا خارجًا مِنْ فِىَّ سوءُ كلامِ

أَلَمْ ترنِى والشِّعْرَ أصبح بيْننا دُرُوءٌ من الإسلام ذاتُ حَوامِ ....

ومنها :

لَعمرى لنِعْمَ النِّحْىُ كان لقومهِ عشيّةَ غبَّ البيْعِ نِحْىُ حُمامِ

بتوبة عبدٍ قد أناب فؤادُهُ وما كان يُعْطِى الناسَ غير ظَلامِ

أطَعْتُك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلمّا انتهى شَيْبِى وتَمَّ تمامى

فررتُ إلى ربّى وأيقنتُ أنّنى مُلاقٍ لأيّامِ المَنونِ حِمامِى ....

ومنها :

ألا طال ما قد بِتُّ يُوضِعُ ناقتى أبو الجِنِّ ابليسٌ بغير خِطَامِ

يظَلُّ يُمنّينى على الرَّحْلِ فاركًا يكون وَرائى مرّةً وأمامِى

يبشّرنى أن لَنْ أموتَ وأنّه سيُخْلِدُنى فى جنّةٍ وسلامِ

ولكن لا شكّ أنّ إبليس عاد يزور الشاعر بعد مدّة قليلة لأنّه لم يزل يهجو الناس إلى مماته .

قال يونس بن حبيب النحوىّ المتوفّى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثُلْث لغة العرب(١) » . والحقّ يقال إنّ شعره أوفر ألفاظًا من شعر الأخطل(٢) . إلّا أنّ الفرزدق كان أيضًا أكثر الشعراء تنحُّلًا فسرق أبيات السابقين والمعاصرين

مصر ١٣١٣) وفى شرح اليزيدى على النقائض ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التى قال الشاعر فيها هذه القصيدة فما يحكى فيها فى الديوان مختلف عما يحكى فى النقائض . — الرتاج الباب العظيم وهنا باب الكعبة ومقام مقام إبراهيم — دروء جمع دره وهو نادر يندر من الجبل — حوام جمع حامية ونحى زق السمن .

(١) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٨ .

(٢) راجع J. HELL, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590,2.

بدون حياء بل اضطرّ أحياناً بعض الشعراء إلى ترك شيء من شعرهم له[١] كأنه أحقّ به.

لا يُتصوَّر الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصرهما وخصمهما الشهير أعنى جريرًا . وهؤلاء الثلاثة كلّهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق فى أيّام بنى أميّة . وجَرير بن عَطِيّة ابن الخَطَفَى من بنى كُلَيب حيّ من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة[٢] وبها مات وقُبِرَ ولكنّه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجّاج ابن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه . واُختُلِفَ فى تاريخ مماته فقيل إنّه توفّى سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقيل أيضاً إنّه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة[٣] . ومن المُثْبَت[٤] أنّه قد صاغ أشعاره الأولى فى مدّة خلافة معاوية بن أبى سفيان ($\frac{٤١}{٦٦١}$ — $\frac{٦٠}{٦٨٠}$) ففى قصيدة نسجها فى هذه المدّة وصف نفسه كأنّه قد أدرك آخر الشباب[٥] :

لقد خَبَّرَتْنى النفسُ أنّى مُزايِلٌ   شَبابى ووَصْلَ المُنفِساتِ الأوانسِ

وموضوع جميع ديوانه ثلاثة : الهجاء والمديح والرِّثاء . والرثاء يسيرٌ وكلّ مقطعة منه لا تشتمل إلاّ على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة[٦] . والمديح

---

(١) انظر كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١١٦ و ج ١٩ ص ٢٢ — ٢٣ (فيه أربعة أبيات لذى الرمة) و ج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمردل) و ج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق وجميل) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ٤٦ : « ونسبت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها من اليمامة وقبر جرير باليمامة وبهامات » .

(٣) كتاب وفيات الأعيان عدد١٢٩ من طبعة غوتنجن أو ١٢٧ من الطبعات المصرية وكتاب الأغانى ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وانظر أيضاً ما قلته فى تاريخ موت الفرزدق ص١٣٧ حاشية ٢ .

(٤) كتاب الأغانى ج٧ ص٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص١٧ حاشية ١ .

(٥) النقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٣٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] — المنفس كل شىء له قدر وخطر وقال شارح النقائض أن المنفسات هى العظيمات الأقدار .

(٦) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ — ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١

فى الحجّاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلا[١] :

دعا الحجّاجُ مثلَ دعاء نوحٍ　　فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا ....

ولولم يرْضَ ربُّك لم يُنزِّلْ　　مع النصر الملائكةَ الغِضابا

إذا سعَر الخليفةُ نارَ حربٍ　　رأى الحجّاجَ أثقبَها شِهابا

ترى نصرَ الإمام عليك حقًّا　　إذا لبِسوا بدينهِمِ ارتيابا ....

عفاريتُ العراق شُفيتَ منهمْ　　فأمسوا خاضعين لك الرقابا

وأعاد تشبيهَ الحجّاج بأحد الأنبياء المنذِرين فى قصيدة أخرى قال فيها[٢] :

رأى الحجّاجُ عافيةً ونصرًا　　على رغم المنافق والحَسودِ

دعا أهلَ العراق دعاءَ هودٍ　　وقد ضلّوا ضلالةَ قوم هودِ

كأنّ المُرْجِفين وهمْ نَشاوى　　نصارى يلعَبون غداة عيد

وظنّوا فى اللقاء لهمْ رواحًا　　وكانوا يصعَقون من الوعيد

ومدح عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) ومَنْ خلَفه من خلفاء بنى أميّة إلى هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) فأدرج فى تلك المدائح أحيانًا عباراتٍ دينيّة وإشاراتٍ قرآنيّة مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال فى عمر بن عبد العزيز[٣] :

خليفةَ الله ماذا تأمرون بنا　　لسنا إليكم ولا فى دار منتظر

أنت المباركُ والمهدىُّ سيرتُهُ　　تَعْصى الهوى وتقومُ الليلَ بالسُّوَرِ

أصبحتَ للمِنْبَرِ المعمورِ مجلسُهُ　　زينًا وزينَ قِبابِ المُلْكِ والحَجَرِ

— ١٥٢ و ١٦٩ — ١٧٠ و ج ٢ س ٢١ — ٢٢ و ٣٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [ورويت فى طبعة مصر ١٣٥٤ اثنتان وعشرون مرثية فانظر س هـ من الفهرست] .

(١) ديوان ج ١ س ٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو س ١٦ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أو س ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ج ١ س ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أو س ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤] .

نال الخلافةَ إذ كانت له قدَرًا   كما أتى ربَّهُ موسى على قدَرِ

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك[1] :

فأنت لِربِّ العالَمين خليفةٌ   ولىٌّ لعهد الله بالحقّ عارفُ

هداكَ الذى يهدى الخلائقَ للتُّقَى   وأعطِيتَ نصرًا لم تَنَلْهُ الخلائفُ

وأدّتْ إليك الهندُ ما فى حصونها   ومن أرض صِينِسْتانَ تُجْبَى الطرائفُ

وأرض هِرَقْلَ قد قهرْتَ وداهرا   وتَسْعَى لكم من آل كسرى النواصفُ

وذاك من فضل الذى جُمِعَتْ له   صفوفُ المصلّى والهدِىُ العواكفُ

وفى قصيدة أخرى يمدح الوليد بن عبد الملك أيضاً قال[2] معرّضاً بهدم كنيسة النصارى بدمشق الذى تقدّم قول الفرزدق فيها :

ولقد سمَوْتَ إلى النصارى سَمْوَةً   رجَفَتْ لوقعتها جبالُ الدَّيْلَمِ

إنّ الكنيسة كان هدْمُ بِنائها   نصرًا فكان هزيمةً للأخرمِ

فأراكَ ربُّكَ إذْ كسرْتَ صليبهم   نورَ الهدى وعلِمْتَ ما لم تعلمِ

ولكن أكثر مدائحه لا تنفكّ أن تجرى مجرى شعر الجاهليّة فى مدح سادة القبائل والأشراف . وممّا نتعجّب منه فى نظم شاعر مثل جرير هو نوع الافتخار الوارد فى إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم السالفين فقال وهو افتخار

---

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ — ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٨٤ — ٢٨٥ من طبعة ١٣٥٤] ونجد مثل هذه العبارات الدينية فى قصائد قالها فى الخلفاء وأمرائهم (راجع ديوان ج ١ ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣ و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] — أخرم الذى شق وترة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثانى فليراجع ما يحكى المسعودى فى الباب السادس والتسعين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١—٣٨٢ من طبعة باريس) فى هدم البيعة والأخرم .

إسلامىّ محضٌ فريد فى ديوانه المصوغ فى قالب القدماء[١] :

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا ... أبٌ كان مهديًا نبيًا مطهّرا

ومنّا سليمانُ النبىُّ الذى دعا ... فأُعطِىَ تبيانًا ومُلكًا مسخّرا

وموسى وعيسى والذى خرّ ساجدًا ... فأنبت زرعًا دمعُ عينيه أخضرا

ويعقوبُ منّا زاده اللهُ حكمةً ... وكان ابنُ يعقوب أمينًا مصوّرا

فيجمعنا والغرَّ أبناءَ سادةٍ ... أبٌ لا نبالى بعده من تعذّرا

أبونا خليل الله والله ربُّنا ... رضِينا بما أعطى الإلهُ وقدّرا

بَنَى قبلةَ اللهِ التى يُهْتَدَى بها ... فأَوْرَثَنا عزًّا ومُلكًا معمّرا

وشتّانَ ما بين هذا القول وبين الافتخار المعتاد فى سائر أشعار جرير المقتفى أثر الأقدمين مثل أبياته فى الأخطل[٢] :

إنّ الذى حرَمَ المكارمَ تغلبًا ... جعل النبوّةَ والخلافةَ فينا ...

مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكمْ ... يا خُزْرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا

هذا ابنُ عمّى فى دمشقَ خليفةٌ ... لو شئْتُ ساقكمُ إلىَّ قَطِينا

وكمثل الأخطل لم يصُغْ جرير الشعر فى الغزل أبدًا لبعده عن أساليب أهل القبائل فيروى فى كتاب الأغانى[٣] أنه قال فى شعر عمر بن أبى ربيعة : شعرٌ تِهامىّ إذا أنجد وجد البرد . وسمِع مرّة بعض الأبيات لعمر بن أبى ربيعة فأعجبتْهُ فقال :

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو النقائض عدد ١٠٤ بيت ٢٧ — ٣٤ ج ٢ ص ٩٩٤ — ٩٩٥ من طبعة ليدن .

(٢) ديوان ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٥٧٨ - ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤] وانظر أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٢٦ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

(٣) كتاب الأغانى ج١ ص٣٨ و٧٢ من طبعة بولاق وراجع العقد لابن عبد ربه ج٣ ص ١٣٣ سطر ٢ — ٤ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تحريف - تهامى يعنى مكيا ومن المشهوران مكة فى التهامة ، وهذى تكلم بغير معقول لمرض أو غيره .

ما زال هذا القرشيّ يَهْذِي حتّى قال الشعر . وهذا يوافق ما أوضحت فى أحد الصفحات السابقة من الفرق بين شعر المدن الحجازيّة وشعر أهل الوبر فى القرن الأوّل للهجرة . — أمّا النسيب فى أوائل القصائد فعاطاه جرير فى الأغلب على منوال أشعار الجاهليّة وذكر الأطلال والدِّمَن والاسَى والعاذلات ولكنّه ربّما عدل عنه كأنّه مقتدٍ ببعض قصائد الأخطل فجاء بذكر الغوانى الفاتنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل(١) :

إنّ الغوانِيَ قد قطعن مودّتى — بعد الهوى ومنعن صَفْوَ المشربِ
وإذا وعدنك نائلاً أخلفنه — وجعلن ذلك مثل بَرْقِ الخُلَّبِ
يُبْدِين من خَلَل الحِجال سوالفاً — بِيضًا تُزَيَّن بالجُمان المذهَّبِ
أعْناقُ عاطيةِ الغصون جوازئٌ — يبحثن بالأُدْمَى عروقَ الحُلَّبِ

ولعلّ ثُلُثَيْ شعر جرير فى الهجاء وهو فى الأغلب هجاء لاذع جدًّا لا تخلو إحدى مقطّعاته أو قصائده عن قذف النساء بالفواحش وعن الكلام السافل البذىء المستقبَح مثلِ الوارد فى أهاجى الفرزدق . قال ابن رشيق القيروانىّ فى كتاب العمدة(٢) : « وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح لاتّساع الظنّ فى التعريض وشدّة تعلُّق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٨ — ١٩ من طبعة ١٣٥٤] — الخلب السحاب لا مطر فيه كأنّه يخدع الشائم ويقال لمن يعد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب) — خلل جمع خلة وهى الثقبة — حجال جمع حجلة وهى ستر العروس فى جوف البيت وفى الصحاح : « بيت يزين بالثياب والأسرّة والستور » — سوالف جمع سالفة وهى صفحة العنق وقيل ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان — الجوازئ الوحش بأسره لاستغنائها بالكلا عن كثرة الماء — الأدمى موضع فى أواسط جزيرة العرب — حلب نبت ينبت فى القيظ بالقيعان وشطآن الأودية ويلزق بالأرض حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفى البيت الثالث قرأت « بالجمان » بدلا من « بالجمال » كما فى الديوان — فانظر نسيباً ثانياً فى ديوانه ج ١ ص ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] .
(٢) كتاب العمدة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

النفسُ علماً وقبِلَته يقيناً فى أوّل وَهْلة فكان كلَّ يوم فى نقصان لِنسْيان أو ملل » .
ولكن لم يكن هذا رأىَ شعراء الصنف الذى نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق :
« وجميع الشعراء يرون قِصر الهجاء أجْودَ وترْكَ الفُحْش فيه أصْوبَ إلّا جريرا
فإنّه قال لبنيه إذا مدحتم فلا تُطيلوا الممادحة وإذا هجوتم فخالِفوا » . ومن المشهور
أنّ جريرًا لم ينفكّ يهجو غيره من الشعراء وعشائرهم طولَ عمره فقال الأصمعىّ[1] :
« كان ينهِشَهُ ثلاثة وأربعون شاعرًا فينبِذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدًا واحدًا
ومنهم من كان ينفُخه[2] فيرمى به وثبت له الفرزدق والأخطل » . فذكر بضع
أخصامه من الشعراء فى قصيدة قال فيها[3] :

خزِىَ الفرزدقُ والأُخَيطِلُ قبله   والبارقىُّ وراكبُ القَصْواء
ولأعْوَرَىْ نَبْهانَ كأسُ مُرَّةٌ   ولتَيمِ بَرْزَةَ قد قضيْتُ قضائى
ولقد تركتُ أباكَ يا أبن مسحّب   حَطِمَ القوائم دامِىَ السِّيساء
والمستنيرُ أجيرُ بَرْزَةَ عائذًا   أمسى بألأم مَنْزِلِ الأحياء
وبنو البَعيث ذكرتُ حُمْرة أمّهِ   فشفَيْتُ نفسى من بنى الحمراء

وإذا تأمّلنا حكاية ابتداء التحام التهاجى بين جرير والفرزدق خلناها من روايات
زمان الجاهليّة . فهى أنّ الأهاجى كانت تدور بين جرير والبَعيث من بنى مجاشع رهط

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) [وفى طبعة دار الكتب المصرية ج ٨ ص ٨ ينفحه بالحاء المهملة بدلا من ينفخه بالخاء المعجمة وهو على ظنى الأصح] .

(٣) ديوان ج ١ ص ٦ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١١ من طبعة ١٣٥٤] . — البارقىّ هو سراقة بن مرداس البارقى — القصواء ناقة للعرار بن منقذ من بنى العدوية (انظر كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤٦) — أعور نبهان اسمه نعيم بن شريك وقيل حرَيث بن عناب وقيل سحمة بن نعيم وقيل سحيم بن شريك (انظر النقائض ج ١ ص ٣١ — ٣٢ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٦ سطر ٦ ولسان العرب ج ١٧ ص ٢١٥) — تيم برزة يعنى عمر بن لجأ التيمى وبرزة اسم أمه (انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٧٤ سطر ٦) — المستنير بن سبرة العنبرى — البعيث المجاشعى ويقال له ابن حمراء العجان (انظر نقائض عدد ٣٣ بيت ٢٩ و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مثلا) .

الفرزدق فلمّا أحسّت بنو مجاشع بغَلَبة جرير على شاعرهم وبلغهم فُحْش جرير بنسائهم اضطرّوا الفرزدق إلى الدخول بينهما ففعل كارهاً فاكتفى أوّلًا بالدفاع عن عشيرته بدون ذكر جرير ولا شَتْم بنى كُلَيْب فأجابه جرير وصاوله وعشيرتَهُ صَوْلةً شديدةً فالتهب نيران شرّ العداوة بين الشاعرين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرَج أنّ ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية (٦٤/٦٨٣) بقليل وقد مضى لكليهما عُنْفُوان الشَّباب[١] . أمَامدّة هذا التهاجى بينهما فأطْوَلُ من أربعين سنةً لأنّنا نعثر فى إحدى قصائد الفرزدق فيه على ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذى ابتدأ يتولّى الأمر سنة ١٠٥/٧٢٤[٢] .

من المشهور أنّ نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبى عُبَيْدة مَعْمَر ابن المثنّى التيمىّ المتوفّى سنة ٢٠٧ ثمّ انكبّ على شرحها غيره من علماء اللغة حتّى وصلت إلينا بشرح أبى عبد الله محمّد بن العبّاس اليزيدىّ المتوفّى سنة ٣٠٠ روايةً عن الحسن بن الحسين السُّكّرىّ المتوفّى سنة ٢٧٥ عن أبى جعفر محمّد بن حبيب المتوفّى سنة ٢٤٥[٣] . فلا أحد يجهل أنّ النقيضة فى اصطلاح علماء اللغة والأدب هى قصيدة ينسِجُها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفَظ بَحْرَ ورَوِيَّ القصيدة التى يخالفها و يعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخم يتضمّن ١١٣ قصيدةً منها ٦٢ لجرير و٣٨ للفرزدق و٦ للبَعيث المجاشعىّ و٥ لغسّان بن ذُهَيْل واحدى لعُقْبة بن مُلَيْص واحدى لنُعَيم بن شَرِيك وذلك ما عدا الأشعار العديدة المرويّة فى الشرح الوافى الوافر الآتى بقِصَص الحوادث وأيّام العرب الوارِدِ ذكرُها فى متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد فى ديوانَىِ الشاعرَيْن . وأهمّيّتها يتجاوز

(١) انظر ما قاله الأستاذ Bevan فى مقدمته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ — ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ — ١٣ . وأدخلت بعض النقائض فى ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ فراجع ما قاله Bevan فى ص ١٩ — ٢٠ من مقدمته [وأدخل محمد إسمعيل عبد الله الصاوى كل نقائض جرير والفرزدق الشاعرين فى ديوانى اللذين اعتنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

حدود علم الآداب لأنّ الشاعرَ فى مثلها دفاعاً عنه وعشيرتهِ وهُجومًا على أخصامه « يضطرّ إلى تعداد مساوئ أعدائه وذكر الأيّام التى تواليت بين قومه وقبائل الذين يهجوهم موضِحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعْضُع . فمثل هذه القصائد هى كتاريخ منها نعلَم أحوالهم ونطّلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وفرسانهم المذكورين ونتحقّق الأزمنة والأمكنة التى عاشوا فيها . فكم من الأماكن والبلدان والجبال والوديان والمياه والقُرَى ورد ذكرها فى تلك القصائد وكم من الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم تُعْلِنهم لنا النقائض »[١] .

وفى مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينيّة نسخة خطّيّة من نقائض الأخطل وجرير جمعها وشرحها شرحاً صغيرًا أبو تمّام صاحب الحماسة المتوفّى على القول المرجَّح سنة ٢٢٨[٢] . ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجرير لا يتضمّن هذا الكتاب إلّا قصائدَ مثْبَتةً فى ديوانى الشاعرين لم يتّضح أنّها من النقائض إذا راجعنا كلّ ديوان على حِدَة . — وممّا يجدُر ذكره أنّ جريرًا فى نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشارات إسلاميّةً كأنّه من أتقى الناس وسبّ دين النصارى فقال مثلاً[٣] :

لَعَنَ الإلهُ مَنِ الصليبُ إلهُهُ والّلابسين برانسَ الرُّهْبانِ

---

(١) قاله الآب أنطون صالحانى فى مجلة المشرق السنة الثالثة عشرة ١٩١٠ ص ٩٧

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, *Über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel* (*Orientalische Studien Th. Noeldeke...gewidmet*, Giessen 1906, p. 385-392) . والآب صالحانى فى مقالته المسماة بنقائض جرير والأخطل فى المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ — ١٠٧ [وطبعت نقائض جرير والأخطل عن نسخة الأستانة الوحيدة فى بيروت سنة ١٩٢٢] .

(٣) ديوان ج٢ ص١٤٩ من طبعة ١٣١٣ [أو ص٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤]. أما مارسرجس المذكور فى البيت الأخير فهوقديس أكرمه بنو تغلب انظر ديوان جرير طبعة١٣١٣ ج١ ص١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (حج بنى تغلب لمار سرجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استنصر بنو تغلب بمارسرجس وابنه) ثم ج٢ ص٢٩ سطر١٠ (استنصر التغلبيون بمار سرجس) و ص٥٦ السطر الأخير (دعا الأخطل مار سرجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة فى طبعة ١٣٥٤

والدائحين إذا تقارب فِصْحُهم ... شُهْبَ الجلود خسيسةَ الأثمانِ

من كلِّ ساجى الطَّرْف أعصل نابهُ ... فى كلِّ قائمة له ظِلْفانِ

تَغشى الملائكةُ الكرامُ وفاتَنا ... والتَّغْلَبيُّ جِنازةُ الشَّيْطانِ

يُعْطِى كتابَ حسابهِ بِشمالهِ ... وكتابُنا بأكُفِّنا الإيمانِ

أيصدّقون بمار سِرْجِسَ وابنهِ ... ويكذّبون محمَّدَ الفُرْقانِ

وغير مرّة عيَّب الفرزدق لما كان بينه وبين الأخطل من الصداقة فجعله من الكفّار على أنّه مسلم(1):

إنّ الفرزدق حين يدخُلُ مسجداً ... رِجْسٌ فليس طُهورهُ بطُهورِ

إنّ الفرزدق لا يبالى مَحْرَماً ... ودمَ الهدِىّ بأذْرُعٍ ونُحورِ

إنّ الفرزدق فى جُلاجل كُرَّجٍ ... بعد الأُخَيْطل ضُرَّةٌ لجريرِ

رهطُ الفرزدق من نصارى تغلبٍ ... أو يدّعوا كَذِباً دَعاوةَ زورِ

حُجّوا الصليبَ وقرِّبوا قُرْبانكُمْ ... وخُذوا نصيبكُم من الخنزيرِ

ومن هذا الضرب أيضاً(2):

ألا قبّح اللهُ الفرزدقَ كلّما ... أهلَّ مُصَلٍّ للصلاة وكبّرا

فلا يقربَنَّ المَرْوَتَيْن ولا الصفا ... ولا مسجدَ الله الحرامَ المطهّرا

ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٣ و ص ٤٥١ سطر ٢] . وراجع أيضاً بيت الأخطل فى ديوانه ص ٣٠٩ :

لما رأونا والصليبَ طالعاً ... ومار سرجيس وسمّاً ناقعا

فيسبّ جرير دين النصارى أيضاً فى أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و١١٦ و ١١٧ و ١٣٤ و ١٣٥ و ج ٢ ص٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و٢٩١ و ٢٩٣ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة فى قصائد يهجو فيها الأخطل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعه ١٣١٣ [أو ١٩٣ — ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤]

فإنَّك لو تُعْطِى الفرزدقَ درهماً   على دينِ نصرانيّةٍ لتنَصَّرَا

وقوله[١] :

وقد لحِق الفرزدقُ بالنصارى   لِيَنْصُرهمْ وليس به انتصارُ

ويسجُد للصليب مع النصارى   وأَفْلَجَ سهمُنا فلنا الخيارُ

ولـكن واضح أنّ مثل هـــذا الكلام عند جرير تعصُّب قومىّ فى الحقيقة ولا تعصُّب دينىّ .

اختلفت العلماء فى تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفى أيّهم المتقدّم وأغزرهم بحراً وأرقّهم شعراً وأهتكهم لعدوّهِ فلو أردت إيراد جميع أقوالهم لاحتجْتُ إلى إفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على نتيجة لا تنازَعَ فى صحّتها[٢] . — والذى يجتمع على رأيى من مراجعة دواوينهم ونقائضهم أنّ الأخطل فاق معاصرَيْهِ فى التصرُّف فى النسيب الخالى عن التكلُّف الصادر عن القلب ثمّ فى فخر المدائح وفى العَفاف عن الفُحْش . وهو انفرد بتعاطى الخمريّات لأنّ ما للفرزدق من هذا الضرب إنّما شىء قليل جدًّا كاد لا يُذْكَر وله الفضل أيضاً فى وصف المناظر الطبيعيّة يصوّرها بغاية الإتقان والقوّة فى التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارئ أن يشاهدها فلم يُدْرِك الفرزدق ولا جرير براعته فى ذلك[٣] . والفرزدق فاق سائر الثلاثة فى وفرة المراثى وجُودتها ورشاقتها ثمّ فى التصرُّف فى اللغة لكنّه أخبثُهُمْ فيما يمُجّه الذوق السليم من الكلام القَذِع وأوقحهم تنحُّلَ أبياتِ غيره

---

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٣٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية الغريبة عن تشاجر الناس فى عسكر المهلب بن أبى صفرة (حين كان يقاتل الأزارقة بفارس) فى مسألة أجرير أشعر أم الفرزدق (كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥ من طبعة بولاق) .

(٣) انظر فى الديوان ص ١٥ مثلا وصف الأتن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وألحاظها الى الغيضة حيث تخشى الصياد متواريا يترصدها وفى ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف الحمير الوحشية وفى ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور فى الليل وقتاله للضراء .

أمّا هجاء الفرزدق وجرير فقيل إنّ أهاجى جرير كلّها تدور على أربعة أشياء هى القَيْن[١] والزناء وضرب الرومىّ بالسيف[٢] والنّفى من المسجد[٣] ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غيرمنصِف قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجَزَرىّ وإن بالغ قليلاً فى مدافعته عن جرير[٤] .

ومن الشعراء المُجيدين من هذا الصنف الثالث غَيْلان بن عُقْبة الشهير بذى الرُّمَّة الذى حُكِم له فى الشعر بمنزلة لاتنحطّ عن منزلة الثلاثة المتقدّمين إلّا بشىء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جدًّا أعنى أنّه كان من قبائل أواسط جزيرة العرب وكان يَأْتى الحضر فيُقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ وشبّب فى شعره بمَيَّة وخَرْقاء . أمّا موته فقال صاحب كتاب الأغانى[٥] إنّ ذا الرمّة توفّى فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلّكان[٦] إنّه مات سنة ١١٧ . ودُفن برمال حُزْوَى فى وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبرى وصغرى وكلتاهما غيرُ مطبوعتين[٧] والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطّعة وعشر منها أراجيز .

---

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفى النقائض عدد٣٣ بيت ٤٩ القين العراق هو البعيث المجاشعى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٨٥ — ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رومياً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق فى حماسة البحترى ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ — ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقائض ص ٤١٣ من طبعة ليدن ومفتاح العلوم للسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٤٩٠ — ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ — ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبعات المصرية .

(٧) [طبعت رواية الديوان الكبرى فى مدينة Cambridge سنة ١٩١٩ بعناية C.H.M. Macartney وطبع أيضاً الديوان فى بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير يموت] .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوىّ[١] المتوفّى سنة ١٥٤ : « إنّ الشعر فُتح بأمرئ القيس وخُتِم بذى الرُّمّة » ويُنسَب أيضاً إلى أبى عمرو بن العلاء هذا القول[٢] : « إنّما شعره نُقَط عروس تضمحِلّ عمّا قليل وأبعار ظِباء لها شمّ فى أوّل شمّها ثمّ تعود إلى أرواح الأبعار »[٣]. ولعلّكم تسألون كيف يجتمع هذان القولان مع ما فيهما من التناقض الظاهر . فأقول : الواضح على ظنّى أنّ أبا عمرو بقوله الأوّل إنّما أراد الشعر على منوال قصائد الأعراب فى أيّام الجاهليّة فإن كان هذا مراده لأصاب قوله لأنّ ذا الرمّة آخر النوابغ الذين تمسّكوا بأساليب القريض القديم لغة ومعنى وموضوعاً . فلو قرأ مثلاً أحدٌ قصيدته الشهيرة التى مطلعها[٤] :

ما بالُ عينِكَ منها الماء يَنْسكِبُ   كأنّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ
وفْراء غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خوارزها   مشلشل ضيعته بينها الكُتَبُ

ولم يعرف اسم قائلها لخالها من نسج فحول الجاهليّة . فبين شعر ذى الرمّة و بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير فرق لا يُنكَر فإنّ هؤلاء الثلاثةَ متوسّطون بين مسلك القدماء المشهور وطريقة الذين عاشوا بعد ابتداء الدولة العبّاسيّة وعلى أنّهمْ من أهل القبائل أخذوا من عواطف أهل الحضر شيئاً فأتوا أحياناً بمعانٍ لم يسبقْ إليها شعراء الجاهليّة ووصفوا مالم يصفْهُ القدماء لعدم معرفتهم به وعدلوا عن أنواع التوحّش فى كثير من أبياتهم وليّنوا كلامهم و إن كانت مُعظَمُ أشعارهم تدور على المدار القديم . أما ذو الرمّة فلم يزل بدويّاً محضاً فأفكاره وأمياله وأنواع وصفِهِ ومواقع

---

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٥١] والوفيات لابن خلكان فى الموضع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغانى ج١٦ ص١١٥ (مرتين) وفى الوفيات لابن خلكان فى الموضع المذكور.

(٣) قال صاحب خزانة الأدب ج ١ ص ٥٢ من طبعة بولاق : « قال المبرد معنى قوله نقط عروس أنها تبقى أول يوم ثم تذهب وبعر الظباء إذا شممته من ساعته وجدت فيه كرائحة المسك فإذا غب ذهب ذلك منه ... وقال الأصمعى إن شعر ذى الرمة حلو أوّل ما تسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن » .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٧ ــ ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

كلامه جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهليّة لا غير فتعثرون فى شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ وتجدون فيه أحيانًا التراكيب الصعبة الفهْم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله[١] :

كأنّا على أولادِ أحْقَبَ لَاحَها ورَمْيُ السَّفا أكْفالَها بسِهامِ
دَبُورٌ ذَوَتْ عنها التناهى وألْحَقَتْ بها يَوْمَ ذَبَّاتُ السَّبِيبِ صِيامِ

وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء حسبما يأتى بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع . وكل قصيدة له لا تخلو عن الوقوف على المنزل الدائر والرسم العافى وعن ذكر الأسى على ذهاب القوم بمعشوقة الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر الشاق الطويل فى الرمال والكُثْبان والمفاوز الهائلة مع الإطناب فى وصف المَهامِهِ والليلِ المُرْعب وعزيف الجن[٢] فى البوادى والحمير الوحشية والصيد والناقة والأنساع والأزمّة وهلمّ جرًّا فبعد ذلك يبتدئ الشاعر بالمدح أو الهجاء . وخلاصة القول أنّه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلاّ فى النادر حين قال مثلاً فى آخر أرجوزة[٣] :

فقلت لا والمُبْدِئِ المُعيدِ اللهِ أهْلِ الحمد والتحميدِ

---

(١) البيتان مرويان فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥١١ من طبعة بن أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق — أما معناهما فكأن الشاعر قال : « كأنّا على أولاد احقب لاحها دبور ذوت عنها التناهى ورمى السفا أكفالها بسهام وألحقت بها يوم صيام ذبات السبيب » - لاحه غيره — ذوى ذبل — تناه جمع التنهية من الوادى حيث ينتهى إليه الماء من حروفه — سفا شوك البهمى والبهمى نبت يشبه الشعير — سهام حر السموم — أكفال جمع كفل وهو الردف أو العجز — سبيب شعر الذنب والعرف — ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب فى شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke فى كتابه *Zur Grammatik der classischen Arabisch*, Wien 1896, p. 86-87

(٢) جمع الجاحظ فى كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥) أبياتاً قالها ذو الرمة فى عزيف الجن وانظر أيضاً GOLDZIHER, *Abhandlungen Zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I,p. 211.

(٣) كتاب مشارف الأقاوز فى محاسن الأراجيز بعناية R.Geyer عدد ٢٣ بيت ٧٩ — ٨٥ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ .

ما دونَ وقتِ الأجَلِ المعدودِ　　موعودِ ربٍّ صادقِ الوعودِ
هلْ أغدُوَنْ فى عِيشةٍ رغيدِ　　واللهُ أدْنَى لى من الوريدِ
والموتُ يَلْقَى أنفُسَ الشُّهودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمّة وصناعته وأفكاره لما صدّق صحة البيتين المرويين لذى الرمّة فى كتاب المحاسن والاضداد المنسوب إلى الجاحظ خطأً[١] :

تَعْصِى الالٰهَ وأنت تُظْهِرُ حُبَّهُ　　هذا مُحَالٌ فى القياس بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطَعْتَهُ　　إنّ المُحِبَّ لمن يُحِبُّ مُطيعُ

ولذى الرّمة الحظّ الأوفر فى التشبيه الجيّد فاق فيه أكثر الشعراء وإن كان ربما يُطيله بإفراط . وكان مثل الفرزدق كثير أخذ الأبيات من غيره فوفرة سرقاته مشهورة[٢] .

ثمّ من شعراء هذا الصنف الثالث عُبَيْد بن حُصَيْن (وقيل عُبَيْد بن معاوية) من بنى نُمَيْر لُقِّب بالراعى أو راعى الإبل لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إيّاها . كان فى الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده وأهل بيته سادة وأشراف بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاه جرير . وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥)[٣] ما وصل إلينا من شعره إلا قليل متفرّق فى كتاب الأغانى وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادىّ وحماسة أبى تمام وحماسة البُحْتُرِىّ وغيرها[٤] . ومن

---

(١) فى باب محاسن الزهد ص ١٨٣ من طبعة ليدن ١٨٩٨ .

(٢) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٣٨ — ٣٤٠ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٣) القصيدة مروية فى جمهرة أشعار العرب ص ١٧٢ — ١٧٦ من طبعة بولاق وفى ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٣ وروى صاحب خزانة الأدب (ج ١ ص ٥٠٢ — ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً — أما الأبيات المروية فى الجمهرة فهى ٨٥ .

(٤) راجع حماسة أبى تمام ص ٦٦٠ — ٦٦٢ و ٦٦٣ — ٦٦٤ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٣٥ — ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق .

المشهور أنّ غير بيت له سرقهُ لجودته بعض الشعراء لا سيّما الطِرِمّاح[١] .

ومن معاصرى الفرزدق وجرير أيضاً مُرّة بن مَحْكان السَّعْدىّ سيّد بنى رُبَيْع قتله صاحب شُرَط مُصْعَب بن الزُّبَيْر افتخر فى أشعاره بالتضييف والجود فمن قوله[٢] :

أَلا فاسْقِيانِى قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلِمٍ … بَعِيدٍ عن الأَحْباب مَنْ هو نازِلُهُ

رأيْتُ الفتى يَبْلَى ويَتْلَفُ مالُه … وتَنْكِحُ أزواجاً سِواه حلائلُهْ

ذَرِينى أُنَعِّمْ فى الحياة مَعِيشتى … فأَكْلُ مالى دون مَنْ هو آكِلُهُ

ومنهم العُدَيْل بن الفَرْخ العِجْلىّ الذى هجا الحجّاج بن يوسف ففرّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثمّ طلب منه العفو بأبياته المشهورة[٣] :

فلو كنتُ فى سَلْمَى أجاً وشِعابِها … لكان للحجّاج علىّ دَليلُ

خليلُ أميرِ المؤمنين وسيفُهُ … لكلّ إمامٍ مصطفًى وخليلُ

بَنَى قبّةَ الإسلام حتّى كأنّما … هَدَى الناسَ من بعد الضلالِ رسولُ

ومنهم العُجَيْر السَّلُولىّ الذى مدح عبد الملك بن مروان ولعله أدرك خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ / ٧٢٤ — ١٢٥ / ٧٤٣) وكان من المشهورين بالإشراف[٤] . — ومنهم

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ — ٢٤٧ من طبعة ليدن .

(٢) حماسة البحترى ص ٣٤٤ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت . وأبيات مروية له فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ٩ — ١١ وفى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣١ — ٤٣٢ من طبعة ليدن وحماسة أبى تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٥٩ — ٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) رويت له أبيات فى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٣ وحماسة أبى تمام ص ٣٤٧ — ٣٥١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٢٦ — ١٣٠ من طبعة بولاق — والفرخ بفتح أوله وسكون الثانى راجع ما قاله الأستاذ De Goeje فى حاشية 1 من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء .

(٤) كتاب الأغانى ج ١١ ص ١٥٢ — ١٥٩ وحماسة أبى تمام ص ٤١٦ — ٤١٧ و ٧٠٦ — ٧٠٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ وج ٤ ص ٧٩ — ٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاحظ ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٣١٣ [أو ج ١ ص ١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفى الحشية أبيات أخرى للشاعر] أو أمالى القالى ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو ج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ — ١٣٥ من طبعة ليدن ١٩١٦] .

عَقِيل بن عُلّفة المُرّى[١] من أشراف قومه فكانت قريش ترغب فى مصاهرته فتزوّج يزيد بن عبد الملك ابنته الجرباء . — ومنهم البعيث المجاشعى الذى كان خصما من خصوم جرير وخطيباً بليغاً[٢] — ومنهم الصلتان العبدى[٣] واسمه قثم بن خبيئة الذى اجتمع اليه فى الحكم بين جرير والفرزدق — ومنهم عمر بن لجأ[٤] وهو من خصوم جرير أيضاً وكان راجزاً مقصدا . — ومنهم يَعْلَى الأحوَل بن مسلم اليشكُرى الأزدى الذى كانت عيشته تُشْبِه عيشة الشنفرى وتأبّط شرًّا لأنه « كان لصًّا فاتكاً خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخُلعاءها فيُغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة » فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة فى خلافة مروان بن الحكم (٦٤/٦٨٣ — ٦٥/٦٨٥)[٥] . — ومنهم عُوَيف القَوافى الفَزارى من ساكنى الكوفة وبيته من البيوتات العرب المقدّمة تعاطى الهجاء والمديح والرثاء فى أيام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بنى أميّة حتى أدرك خلافة عمر

(١) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٨٥ — ٩٣ من طبعة بولاق وحماسة أبى تمام ص ١٩٦ — ١٩٨ و ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥١٠ من طبعة بن اوج ١ ص ٢٠٩ وج ٣ ص ٢٣ — ٣٤ و ٨٦ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة ليدن] .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣١٣ من طبعة ليدن وأبيات مروية له فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٦٢ و ١٦٩ وج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ فراجع كتاب البيان لنفس الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ — ٣١٦ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ — ١٠٣ وج ٢١ ص ٤١ وروبت أربعة أبيات من مرثيته للمغيرة المهلب فى أمالى المرتضى (ج ٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ فى المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٣٢٥ [راجع J. KRENKOW, *The Elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab* (*Islamica*, II, 1927, p. 344-354)] .

(٤) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ — ٤٢٩ من طبعة ليدن [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣١ — ١٣٢ من طبعة ليدن] .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ١١١ — ١١٢ .

ن عبد العزيز (٩٩/٧١٧ — ١٠١/٧٢٠)[١] .

إن سرحتم أنظاركم فى كتاب حماسة البحترى عثرتم على ثلاثة أبواب[٢] مترجمة
ذه التراجم : الباب الحادى والسبعون والمائة فيما قيل فى مطل الديون وكسرها على
رماء . الباب الثانى والسبعون والمائة فيما قيل فى اليمين وامتناعهم منها بدءا ليغرّوا
رماءهم بذلك ثمّ مسامحتهم بها وتسهيلها عليهم عند المطالبة وتصميمهم عليها . الباب
لث والسبعون والمائة فيما قيل فيمن تنجّح باليمين و بذلها لغريمه من غير تمنّع . —
كثر الشعراء المرويّة أبياتهم فى هذه الأبواب الثلاثة غير مذكورين فى سائر المصادر
كن يتّضح من الإشارات الإسلامية الواردة فى عدّة أشعار ومن ذكر الكوفة
رس العراق ومن الأسماء الإسلاميّة أنّهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأنّ قسماً منهم
رك أواخر القرن الأوّل أو تجاوزها وعلى كلّ حال هم بأسرهم من أهل البادية فيليق
م جعلهم فى هذا الصنف الثالث من الشعر . وأبياتهم حريّة بالاعتبار لما فيها من
لالة على بعض الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة فى جزيرة العرب وما يليها من
راق فى القرن الأوّل . « يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا ٱلرِّبٰوا أَضْعَافًا
ضَاعَفَةً[٣] » : هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد فى القرآن الشريف .
كنّ أولئك التجّار من أهل الحضر الذين اعتادوا الرّبح العظيم بقرض المال فى
مان الجاهليّة لم يرضوا بالامتناع عمّا كان يعود عليهم بالفائدة الماليّة العظمى فأتوا

(١) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١٠٥ — ١١٨ وحماسة أبى تمام ص ١٢٧ — ١٢٨
٢٦٣ و ٦٧٢ من طبعة بن أو ج ١ ص ١٣٩ — ١٤٠ و ج ٢ ص ٤٤ وج ٤ ص ٤٨ من
بعة بولاق وحماسة البحترى ص ٢٦ و ١٦٠ و ٣٧٨ من طبعة ليدن أو ص ١٤ و١٠٨ و ٢٦٣
عدد ٢٨ و ٥٠٠ و ١٤١٥) من طبعة بيروت [وكتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٨٨ من
بعة ١٣٥١] .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٧٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦١ — ٢٦٨ عدد
١٤١٠ — ١٤٣٤ من طبعة بيروت فراجع LAMMENS, *La république marchande de la Mecque* (Bulletin de l'Institut d'Egypte, V série t. IV, 1911, p. 38-40,). [LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'hégire*, Beyrouth 1924,p. 145 sgg.]

(٣) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٠ .

بالحِيَل للحصول على ما قد حرمه دين الاسلام فعند البيع لاسيا بالدَّيْن صاروا يغـ
أهل البادية مرارًا لما وجدوا فيهم من الاحتياج إلى المال ومن السذاجة والجهل
وبما أنّ الخِداع كثيراً ما يدعو الخداع صارت أهل البدو يُبْغِضونهم ويحاولو
ويردُّون الغِش بالغِشّ مفتخرين بعملهم هذا لا سيّما إن كان ربُّ المال من غير أ
العرب . وكلّ ذلك موصوف فى الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجّار المخدو
هَدَفًا لضَحِك السامعين[١] .

٤ — فلنخُض الآن فى الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع فى أيّام الد
الأمويّة أعنى الأراجيز . إنّ هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر الصنف الثا
من حيث اللغة والموضوع والمعانى والمبدأ والخروج والاستطراد والنهاية فإنما الفر
بينهما فى القالب الذى صِيغَا فيه وهو بحر الرجز المشطور لأشعار الصنف الرابع وسا
الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن تعترضوا علىّ سائلين أهذا الفرق المحدود
جنس العروض يستلزم إثبات صنفين على اتّفاقهما فى أغلب الأمور . فأقول إنّ الذ
حملنى على مثل هذا التميز ثلاثة أشياء : ١ً إنّ أراجيز هذا الصنف الرابع نو
خاصّ لم يسبُق إليه شعراء الجاهليّة ولا استعمله شعراء الدولة العبّاسيّة . ٢ً إ
أكثر الذين تعاطَوْا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ً إنّ انتحا
الرجز أثّر فى صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصّة لا يُوجبها أحد الأعاريض
الباقية المشتمل كلُّ بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أنّ أغلب علماء صناعة الشعر ميّزوا الرجز والشعر (أو القريض) تميي
تامًّا وذلك ابتداء من لغويّى القرن الثانى مثل أبى عمرو بن العلاء المتوفّى سنة ١٥٤

---

(١) ومن ألطف هذه الأشعار ما قاله رديني بن عبس الفقعسي مرتجزا فراجع حماسة البحترى
ص ٣٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

وتلامذته حسبما يتّضح من عدّة نصوص قديمة[١] . ففى كتاب النوادر المشهور فرّق دائماً أبو زيد الأنصارىّ المتوفّى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز . ثمّ لا أحد يجهل أنّ نوابغ الشعراء فى زمان الجاهليّة قلما استعملوا الرجز كأنّه ليس أهلاً لمنزلتهم ففى ديوان امرئ القيس لا نعثر إلّا على أربع مقطّعات صغيرة منه أعنى اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور[٢] . وأكثر من امرئ القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدركوا الإسلام تُنْسَب إليه خمس عشرة مقطّعة فى الرجز المشطور[٣] تدور على المفاخرة والحكمة والمعاتبة والمديح والرثاء وتشتمل إحداها وهى أطولها على ستة عشر بيتاً .

أمّا دواوين النابغة الذبيانىّ[٤] وزهير بن أبى سُلْمَى وعنترة بن شدّاد وطرفة ابن العبد[٥] وعلقمة الفحل فلا شىء فيها من الرجز . وعلى كلّ حال لم يكن الارتجاز

(١) راجع النصوص المروية فى J. GOLDZIHER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie,* I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢١ — ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجلى الرجز والقريض فى بيت مروى فى لسان العرب ج ٩ ص ٨٤ .

(٢) عدد ٤٤ و ٦٠ (رجز غير مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بعناية Ahlwardt .

(٣) راجع *Die Gedichte des* Lebîd... *aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben* von C. Brockelmann, Leiden 1891 عدد ٢٦ و ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات عدد ١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٣١ و ٣٢ .

(٤) وفى كتاب الأغانى ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بولاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات فى بحر الرجز المشطور قالها مرتجلا مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً فى عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع فى المجموعة المسمّاة *The Divans of the six ancient Arabic poets* بعناية Ahlwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Dîwân des Ru'bah* Wien 1910, p. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد .

(٥) أما طرفة فتنسب إليه أيضاً أبيات فى بحر الرجز المشطور قالها وهو صبي واملـه استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخى مهلهل مثلا) فراجع شعراء النصرانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة فى المجموعة المذكورة فى الحاشية السابقة .

فى زمان الجاهليّة إلّا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً فى الهجاء أو فى الحرب وعند اللقاء . أمّا فى القرن الأوّل للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظِمون الشعر فى ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغيُّر أشار ابن رشيق القيروانىّ فى كتاب العمدة حين قال[١] : « قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتّى كان العجّاجُ أوّلَ من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركّاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد فكان فى الرُّجّاز كامرىء القيس فى الشعراء . وقال غيره أوّل من طوّل الرجز الأغلب العِجْلىّ وهو قديم وزعم الجُمَحىّ[٢] وغيره أنّه أوّل من رجز ولا أظنّ ذلك صحيحاً لأنّه إنما كان على عهد رسول الله صلعم ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك » .

ولكن لا شكّ فى وقوع سهْو فى آخر كلام ابن رشيق لأنّه من الواضح أنّ الجمحىّ إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز فى نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحىّ جهل ما هو متداول عند كلّ العلماء إنّ الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهليّة . وقول الجمحىّ صواب تؤيّده عدّة نصوص منها شهادة العجّاج من أشهر شعراء الأراجيز الذى قال مفتخراً[٣] :

وإنْ يكُنْ أمْسَى شَبَابِى قد حَسَرْ وفَتَرَتْ مِنّى البَوانِى وفَتَرْ . . .
إنّى أنا الأغلبُ أضْحَى قد نُشِرْ

---

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروى فى المزهر للسيوطى نوع ٤٩ ج ٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) يعنى محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ . [انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن] .

(٣) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثانى المشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان بعناية Ahlwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المفردات ، فالبيت الثانى مروى فى لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروى فى كتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن .

يعنى أنّه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جُشَم العجْلىّ عاش في الجاهليّة مدّة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر فى سجاح لمّا تزوّجت مُسَيْلِمة الكذّاب. قال صاحب كتاب الأغانى : « كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبى وقّاص فنزلها واستشهد فى واقعة نَهاوَنْد[١] فقبره هناك فى قبور الشهداء ويقال إنّه أوّل من رجز الأراجيز الطوال من العرب . . . . قال ابن حبيب[٢] كانت العرب تقول الرجز فى الحرب والحِداد والمفاخرة وما جرى هذا المجرى فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أوّل من قصّد الرجز ثمّ سلك الناس بعده طريقته » . وقال ابن قتيْبة[٣] : « وهو أوّل من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفى الحقيقة كلّ ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جدًّا منظوم فى الرجز . فالواضح أنّ الذى ابتدعه الأغلب الأُرجوزة أعنى القصيدة المصوغة فى بحر الرجز المشطور وهى غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب .

والمحتمل أنّ نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدّةً ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلّا فى منتصف القرن الأوّل أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور فى هذا النوع من النظم لمّح على المحتمل العجّاج فى أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كلّ حال ما عثرتُ على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشماخ بن ضرار[٤] فيما قبل خلافة

---

(١) فى سنة ٢١ هجرية فراجع J. WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (*Skizzen und Vorarbeiten*, Band VI, Berlin 1899) p. 108 n. 2; L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, IV, p. 474-505.

(٢) يعنى أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمى المتوفى فى ذى الحجة سنة ٢٤٥ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة ليدن - انظر أيضاً ما قيل فيه فى كتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٦٤ - ١٦٧ وكتاب المعمرين للسجستانى ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ من طبعة بولاق وأسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ وفحولة الشعراء للأصمعى (فى مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft* ج ٦٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٤) وقال أيضاً قصائد غير مرتجز . أما أراجيزه فهى مروية فى ديوانه المطبوع فى مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ — ٢٨ و ١٧٨ — ١٧٩ من طبعة ليدن وفى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) بعناية R. Geyer عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ وقال الشماخ كلها إما هاجيا وإما مرتجلا فى السفر فتتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموجودة فى القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر

يزيد بن معاوية . أمّا بعد منتصف القرن الأوّل فكثيرون اتّخذوا بحر الرجز لسبك القصائد مع قطع النظر عن الذين ارتجزوا قليلاً فى الهجاء مثل الأخطل[١] والفرزدق والبعيث[٢] فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أراجيز . و بعض الذين اتّبعوا مسلك الأغلب تعاطوْا القصيد والأرجوزة مع غلبة الأوّل على الثانية عندهم وهم جرير[٣] ذو الرُّمّة[٤] وعمر بن لَجَأ[٥] السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشَّمَرْدَل بن شُرَيْك اليربوعى[٦] من معاصرى الفرزدق كان ذا كَلَف بالصيد فقال فى الصقر والكلب والقَنَص أراجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأراجيز على القصائد ومنهم حُمَيْد

ما مضى من الزمان ووصف الناقة وذكر الرحلة والطرد والافتخار — . قال ابن قتيبة (ص ٢٧) أن الشماخ ارتجل مرة بالرجز « ثم قطع به الروى وتعذر عليه فتركه وسمح بغيره على أثره » فظن الأستاذ Geyer (p. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها فى عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى فى رجز منسوب إلى بعض الأعراب فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ — ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير فى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٢٥ — ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ — ٤ وراجع أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ٥٥ — ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٣ (وفيها مدع) .

(٤) جمع R. Geyer ما عثر عليه من رجز ذى الرمة فى كتابه المذكور عدد ١٥ — ٢٤ فالأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهى مقطعات وبعضها مروية فى أراجيز العرب ص ٥ — ١٠ و ٣٩ — ٤٨ و ٦٢ — ٧٠ و ٩٧ — ٩٨ و ١٣٨ — ١٣٩ (أى خمسة أعداد) .

(٥) قال الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « ممن جمع الرجز والقصيد » وقال ابن رشيق فى كتاب العمدة ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن لجأ كان راجزا ومقصدا » .

(٦) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٢ ص ١١٧ — ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن — وتروى له فى الأغانى ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفى ص ١٢٢ — ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذئباً « قد لازم مرعى غنم الشمردل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة فرصده ليلة حتى جاء لعادته ثم رماه بسهم فقتله » .

ابن مالك بن ربعى التميمىّ المعروف بحُمَيْد الأرْقط[١] معاصر الحجّاج بن يوسف (المتوفّى سنة ٩٥/٧١٤) ومنهم أبو النَّجْم العِجْلىّ[٢] واسمه الفضل بن قُدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويُجيد القصيد والأرجوزة ويُراجز العجّاج وهو القائل فى نفسه[٣] :

إنّى وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ ‏ شيْطانهُ أُنثى وشيطانى ذَكَرْ

فما رآنى شاعرٌ إلّا استَتَرْ ‏ فِعْلَ نجومِ الليل عايَنَّ القمَرْ

وعاش فى أيّام عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) واستعمل الرجز فى المديح والهجاء ووصف الصيد والفُهود وغير ذلك فيعَدُّ من الشعراء النوابغ .

أمّا بعض الشعراء فتركوا سائر الأعاريض كليًّا ولم يصوغوا القصيدة إلّا بقالب الرجز . ولعلّ أوّل من فعل ذلك أبو الشَّعْثاء عبد الله بن رؤبة بن لبيد من بنى سعد تميم الشهير بالعَجّاج الذى وُلد على المحتمل فى أوائل خلافة عثمان بن عفّان

---

(١) انظر خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [اوج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١] وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وفحولة الشعراء للأصمعى (فى المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ . — تروى له أراجيز فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحماسة أبى تمام ص ٧٩٥ — ٧٩٦ من طبعة بن اوج ٤ ص ١٦١ — ١٦٢ من طبعة بولاق .

(٢) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ — ٣٨٦ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ وج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغانى ج ٩ ص ٧٧ — ٨٣ و ج ١٨ ص ١٤١ وفحولة الشعراء للأصمعى ص ٤٩٩ و٥٠٣ . [وطبقات الشعراء لابن سلام الجمعى ص ١٤٨ — ١٤٩ — ١٥٠ من طبعة ليدن] . تروى بعض أراجيزه فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام وفى كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و١٣٦ وج ٣ ص ١٤٩ وج ٤ ص ٤ و٩٠ و١٠٢ الخ وج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفى شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٨٥ — ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروى أيضاً فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .

(٢٣/٦٤٤ — ٣٥/٦٥٦)[١] وأدرك خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ — ٩٩/٧١٧)[٢]. ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه مع ما يتعلّق بذلك على عادة القدماء من النسيب وذكر مخاوف الفيافى ومشاقّ قطع المهامه ووصف المعشوقة الجميلة والناقة والحمار الوحشىّ والليل العتم الهائل ولذّة الشباب وما أشبه ذلك. ورُبّ نسيب له شكاية الغوانى ذوات الدلال قليلات الوفاء مائلات عمّن شاب رأسهُ مثل بعض النسيب الوارد فى قصائد الأخطل وغيره من معاصريه فمن هذا القبيل أكثر أرجوزته التى مطلعها[٣] :

إنَّ الغوانى قد غَنِين عَنِّى	وقُلْنَ لى عَلَيْكَ بالتَّغَنِّى
عنّا فقُلْتُ للغَوانى إنّى	عَلَى الغِنى وَأنا كالمُظِنِّ
لَمَّا لَبِسْنَ الحقَّ بالتَّجَنِّى	غَنِينَ وَاسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا مِنِّى
غُرانِقًا ذا بَشَرٍ مُكْتَنِّ	يرْضَى وَيُرْضِيهِنَّ بالتَّمَنِّى
إذْ شابَ رَأسى ورَأيْنَ أنّى	حَنَّى قَنَاتِى الكِبَرُ المُحَنِّى
والدهْرُ حَتّى صِرْتُ مِثْلَ الشَّنِّ	أطْرَ الثقافِ خُرُصَ المُقَنِّى

(١) قال الأصمعى (فحولة الشعراء فى المجلة المذكورة ج ٦٥ ص ٤٩٩) أنه مولود قبل الإسلام.

(٢) لا نكاد نجد فى تصانيف العرب أخبار حياة العجاج وكل ما آتى به Ahlwardt فى ص ١٣ — ١٧ من مقدمة كتابه الذى سيأتى ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجاج فى الجزء الثانى من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان (*Sammlungen alterabischer Dichter*, II) طبع برلين سنة ١٩٠٣ (وأشير إليه بديوان العجاج) وانظر أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ١٠ — ٢١ و ٤٨ — ٥٤ و ٧١ — ٧٩ و ٨٥ — ٩٦ و ١٠٩ — ١١٣ و ١١٤ — ١٢١ و ١٥٧ — ١٥٨ و ١٧٤ — ١٨٤ و M. BITTNER, *Das erste Gedicht aus dem Diwân des arabischen Dichters al-ʿAggâg*, Wien 1896 (cf. NOELDEKE, ZDMG, 50, 1896, p. 523-528); R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter*. 3. *al-ʿAggâj und al-Zafayân* (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 23, 1909, 74-101). ومقطعات له مروية فى مشارف الأقاويز (GEYER, *Altarabische Diiamben*) عدد ٢ — ١ .

(٣) ديوان العجاج عدد ٣٩ بيت ١ — ١٥ وانظر أيضاً عدد ١٠ .

وصِرْتُ مِثْلَ البازِلِ القِسْوَنِّ وَقُلْنَ لِي أفناكَ طُولُ السِّنِّ
وبُرْهَةً من دَهْرِكَ المُفَنِّي مَعَ الهوى وَقِلَّةِ التَّوَنِّي

ذكر أيضاً فى أرجوزة الزمان الذى كان فيه مُتْرَفاً بالديار ويشرب الخمر طول الليل بعد غروب الشمس فقال[1] :

كأنَّ ذا فَدَّامةٍ مُنَطَّفَا قَطَّفَ من أعنابِهِ ما قَطَّفَا
فشَنَّ فى الإبريق منها نَزَفَا مِنْ رَصَفٍ نَازَعَ سَيْلاً رَصَفَا
حتى تَنَاهَى فى صهاريج الصَّفَا فَعَمَّها حَوْلَيْنِ ثمّ اسْتَوْدَفَا
صهباءَ خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفَا خالَطَ مِنْ سَلْمَى خَيَاشِيمَ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتدى بعبارات دينيّة ثمّ تخرج إلى ذكر متاعب الشاعر ويأسه من العمر الطويل ومنها[2] :

الحَمْدُ للهِ الّذِى اسْتَقَلَّتِ بِإِذْنِهِ السَّماءُ وَاطْمَأَنَّتِ
بإذْنِهِ الأرْضُ وَما تَعَتَّتِ وَحَى لَهَا القرارَ فَاسْتَقَرَّتِ
وشَدَّهَا بالرّاسياتِ الثُّبَّتِ رَبُّ البِلادِ والعِبادِ القُنَّتِ
والجاعِلُ الغَيْثَ غِياثَ المُسْنِتِ والجامِعُ النّاسَ لِيَوْمِ المَوْقِتِ
بَعْدَ المَماتِ وَهْوَ مُحْيِي المَوّتِ يَوْمَ تَرَى النُّفُوسُ مَا أَعَدَّتِ
من نُزُلٍ إذا الأمورُ غَبَّتِ مِنْ سَعْيِ دُنْيا طالَ ماقدْ مُدَّتِ
حتى انْقَضَى قَضَاؤُها فَأَدَّتِ إلى الإلهِ خَلْقَهُ إذْ طَمَّتِ

وفى أرجوزة ثانية[3] أيضاً مطلع دينىّ صاغة العجّاج ليخرج بعده إلى مدح عمر بن

(١) ديوان العجاج عدد ٣٥ من الأبيات المفردات بيت ١٥ — ٢٢ وأراجيز العرب ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة مصر ١٣١٣ وبعض هذه الأبيات مروية فى كتاب الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١١ من طبعة مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

(٢) ديوان العجاج عدد ٣ بيت ١ — ١٣ وكتاب خزانة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٣) ديوان العجاج عدد ١١ بيت ١ — ١٦ .

عبيد الله بن مَعْمَر الذى قاتل الحَرُوريّين وانتصر عليهم وقتل رئيسهم أبا فُدَيك سنة $\frac{٧٣}{٦٩٢}$. ولكن فى سائر أراجيزه إنّما اقتدى بالأفكار والمعانى المتعارفة عند شعراء الجاهليّة من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء فيما وصل إلينا من شعره مع أنّه يفتخر بحدّ لسانه الذى أسكت به أخصامه وأفحمهم[١] :

إنّى إذا ما عُصْبَةٌ أَنْتَابُها ظالمةٌ قد سَرَّنى سِبابُها

أَصْدُقُها الشَّتْمَ ولا أَهابُها حتى تُرى جَاحِرَةً كِلابُها

إذا القوافى حُسِرَتْ أثوابُها وَجَدْتَها مفتّحًا أبوابُها

مُقْبِـلَةً بِسَيْلِها شِعابُها

فقال ابن قتيبة[٢] : « قيل للعجّاج إنّك لا تُحْسِن الهجاء فقال انّ لنا أحلامًا تمنعنا من أن نَظْلِم وأحسابًا تمنعنا من أن نُظْلَم وهل رأيتَ بانيًا لا يُحسِن أن يهدم » . — والرثاء أيضًا لا أثر له فى ديوانه كأنّه عسر عليه فاستنكف منه . — وبعض أراجيز العجّاج طويلة جدًّا تُدْرِك إحداها[٣] عدد مائتى بيت وتشتمل أخرى[٤] على ٢٢٩ بيتًا والعجّاج متين العبارة جيّد الألفاظ كثير التصرُّف فى الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدّمين . أمّا عيوب شعره فنلمّح إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه رؤبة .

تقدّم أنّ الكتب العربيّة المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجّاج سوى النوادر التى لا طائلَ فيها فهذه أيضًا حالة رؤبة بن العجّاج الذى وُصفت حياتُهُ فى كتاب الأغانى بهذه الألفاظ القليلة[٥] : « نزل البصرة وهو من مخضرمى الدولتين

---

(١) ديوان العجاج عدد ٢ بيت ١٥ — ٢١ .

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة ليدن وكتاب الأمالى للقالى ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [اوج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٣) عدد ٤٠ من ديوان العجاج .

(٤) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٥) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٤ .

ج بنى أميّة وبنى العبّاس ومات فى أيّام المنصور » . و يُخبِرنا صاحب الأغانى فى
ضع آخر [١] عَرَضيًا بأنّ رؤبة حجّ مع سليمان بن عبد الملك وشعرائه منهم الفرزدق
لك سنة ٩٧/٧١٦) . وقال ابن خلّكان [٢] أنّ رؤبة توفى سنة ١٤٥/٧٦٢ وهو
ن . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أنّ كتاب الفهرست [٣]
نا أنّ حمّاد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألّف كتاب
ر رؤبة . ولكن من اطّلع على ديوان أراجيزه [٤] التقط منه فوائد شتّى يتوصّل
لى معرفة حقيقة حال الشاعر [٥] . فيتّضح من نظمه أنّه كان مدّة من أهل
مثل أبيه العجّاج وأخذ يجول فى البلاد و يسافر إلى النواحى القاصية حتّى قصد
ر الناس والأمراء فى خراسان وكرمان ليمدحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأنّ
كان له ولعياله الكثير مكسبًا . فلمّا انكدرت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية
اء دولة بنى اميّة ١٣٢/٧٥٠ فكسدتْ أسواق الشعر فى جملة من الأنحاء اختار الإقامة
رة ليسهُل عليه (وهو كبير السنّ) الوفد على أهل العقد والحلّ ونيلُ ما كان
منهم من المال .

يذكُر أحيانًا ما قد مرّ عليه من الزمان السعيد والترف [٦] :

---

١) كتاب الأغانى ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً نقائض جرير والفرزدق
٣٨ — ٣٨٤ من طبعة ليدن .

٢) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبعات
وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ — ٣٨٠ من طبعة ليدن .

٣) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليبسك ١٨٧١ — ١٨٧٢ .

٤) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج طبع بيرلين
١٩٠ بعناية Ahlwardt (*Sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرمز إليه بديوان رؤبة)
ز العرب ص ٢٢ — ٣٨ و ٥٦ — ٦٣ و ٧٩ — ٨٥ و ٩٨ — ١٠٩ و ١٢٢ —
و ١٣٤ — ١٣٨ و ١٣٩ — ١٥٥ و ١٥٩ — ١٧٢ و ١٨٥ — ١٨٨ ومقطعات له
فى مشارف الأقاويز فى محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٣ — ١٤ (٩٦٩
راجع أيضا R. GEYER, *Beiträge zum Diwân des Ru'bah*. (*Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften*, philos. hist. Klasse, 163 Band, 3. Abh وفيه ٥٨ أرجوزة .

٥) راجع مقدمة ديوان رؤبة ص ٢٣ — ٣٣ .

٦) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ٩٧ — ١٠٢ .

فقدْ أرانى أرْحَلُ المَراحِلَا   فى الوفْد أو ذا حاجةٍ مُناضِلَا

أو زِيرَ بِيضٍ ترْفُلُ المَرافِلَا   أمْضَغُ مِسْواكى وأغْدُو هامِلَا

مختبِطاً ولاعِباً مُهازِلا   وَأتقِى الفحْشاء والبَاطِلَا

ويشكو ثِقلَ قتبِ الدَّيْنِ ولوْمَ زوجاتهِ لذلك [1] :

وحَمَلَ الدَّيْنُ علَىَّ البرْكا   وجرَّ أرْحاءَ دَهكْنَ دَهْكَا

أهْلَكَنى ألاَّ يزالَ يَمْلِكَا   صاحبُ دَيْنٍ لا يَنِى مُحَكَّا

أعْرُكُهُ عنى فيَأبَى العرْكا   سَوْقَ الأجيرِ المُتعِبِ الأفْكَا

وإنما يعلق الرجاء بمن اشتهر ندى يديه فإليه يلتجئ الشاعر [2] :

ويعترى مَنْ يطلُبُ الوسائلَا   وجْهَ الكريمِ والجوادَ الباذلَا

ويُبْغِضُون الصَّمْعَرِىَّ الباخِلَا   فقلْتُ إذْ عالَجْتُ دَيْناً شاغِلَا

لا بُدَّ من قَوْلى وكنتُ قائلَا   يَمِّمْ سُلَيْمانَ تجِدْهُ واصِلَا

أعانَ منهُ حَسَباً ونائلَا   محتسِبَ الأجْرِ كريماً فاعِلَا

فكثيراً ما يشكو إلى الأكابر مصائبَ الدهر وشدَّةَ الفقر [3] :

إليك أشكو عَضَّ دهْرٍ مِكْسَرِ   أبْقَى خُدوداً كالحَريقِ المُشْرَ

أُرْسِلَ فاستَمْدَى بأمْرٍ مُنْكَرِ   يَلْوِى وحَشْراً قبل يوم المَحْشَرِ

---

(١) ديوان رؤبة عدد ٤٤ بيت ٢٣ — ٢٨ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ١٠٥ — ١١٢ . وسليمان بن على هو عم الخليفة ال

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ — ٢٣٠ — خدود جمع خد وهو الحفرة ا
فى الأرض فيراجع بيتى رؤبة فى ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ — ٨٨ أو أراجيز العرب ص
يقول الشاعر فيهما إن الناقة

أبقت أخاديدَ وأبقتْ حَلَقَا   بصَحْصَحانٍ مُطْرِقٍ وفَلَقَا

طرَّح من تفريقهِ المبـــــذِّرِ   مَوْتَى وأحياءُ بشرٍ مُوقَرِ
يشكون فَقْراً ليس بالتفقُّرِ

فيطلُب من الكرماء الهدايا الجزيلة فقال مثلاً فى أرجوزة مدح بها نصر بن سيّار والى خراسان والسُّغْد[1] :

يا نصرُ أدْرِكْنى بغيثٍ يُجْدِى   يرحَضُ آثارَ السنين الجُرْدِ
إنْ بَلَّ أرضى لم يُصِبْنى وَحْدى   قد كنتُ فى الوَعْدِ وعند العهْدِ
والخيرُ يأتى منك قبلَ الكَدِّ

ثم قال[2] :

وما تزالُ مِدَحى من نَجْدِ   تأتيك فاذكرْ صِلَتى ورِفْدِى
عندك خَيْرٌ يُبْتَغى وعِنْدِى   أبْقَى وأمْضَى من سيوف الهندِ
أدركتُ مَنْ قبلى فمَنْ ذا بَعْدِى   ينسجُ نَسْجى أو يقدُّ قَدِّى

فلا عجب أن يكون معظمُ ديوانه فى مديح الخلفاء والأمراء والأكابر الموصوفين بالجود إلاَّ أنَّ المدح الحقيقىَّ فى أراجيزه قصير جدًّا مشتمل على أبيات قليلة لأنَّ باقى الأرجوزة جارٍ مجرى كلِّ القصائد القديمة دائرٌ على ذكر الدِّمَن ومخاوف السفر والنسيب ووصف البرارى والسراب والمناهل والقوس والسهام والصيد والناقة وهلمَّ جرًّا فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه و بنفسه . ومن مدائحه أرجوزة محتوية على ٢٧٢ بيتاً أنشدها بحضرة مروان بن محمّد آخر خلفاء بنى أمية $\left(\frac{١٣٧}{٧٤٤} - \frac{١٣٢}{٧٥٠}\right)$ ومبدؤها[3] :

أرَّقنى طارقُ همٍّ أرَقَا   وركْضُ غِرْبانٍ غَدَوْنَ نُغَقَا

---

(١) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٦ — ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

(٢) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٣٧ — ٤٢ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ — ١٠٩ وفى هذا الكتاب ١٨٣ بيتاً فقط .

ومدارها هذا : يبتدئ رؤبة بذكر رسوم الاطلال فى موضع سكنته زوجته أروى فى الزمان الماضى وهو فى ريعان الشباب ثم يشكو إلمامَ الشيب برأسه ويتصرّف فى وصف فيافٍ متّسعةٍ طامسةِ الأعلام هائلةٍ قطعتها العيساء فى لجّ الليل وهو راكبها كأنّه راكبٌ زورقاً أو نعامةً أو حماراً وحشياً . وبعد ذلك يذكر تشبُّبه بنساء قومه غايةِ الجمال ويفخر بحماسة قبيلتهِ وعلى وجه الاستطراد ينظم ٤٠ بيتاً فى تفضيل شعره على أقوال خصومه من الشعراء فينتهى إلى نحو ثلاثة أرباع من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة وظفرهِ على أصحاب الفِتَن فى الشام والعراق بعون الله فيلعَن الثائرين ويُثنى على جود مروان . ثمّ يرجع إلى الافتخار بقبيلته تميم ويهدّد ربيعة لميلها إلى الدعوة العبّاسيّة التى عنده كُفرٌ فيختم الشعر بتصريح صدق وفائه وإخلاصه لمروان .

ولكن لم يمنعهُ هذه الأرجوزة عن إطراء بنى العبّاس لمّا تولّوا الخلافة وتأليفِ فى مدح السفّاح أرجوزةً تحتوى على ٤٠٠ بيت[١] ختمها بطلب الهدايا بل فى أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور (١٣٦/٧٥٤ — ١٥٨/٧٧٥) لم يستحِ من أن يسُبّ الدولة الأمويّة[٢] التى قد أثنى عليها فى أيّامها السعيدة[٣] :

فتركُوا مستسلِمين جُنَّحَا   وحوْتكاتٍ ونساءً نُوَّحَا
ومُهْلَكين فى الجحيمِ كُلَّحَا   وعادَ مُلكُ اللهِ مُلْكاً مُرْدَحا

واحتذى رؤبة مِثال أبيه العجّاج فى إغفال تعاطى الرثاء والهجاء فقال[٤] :

إنّى أمروٌ للناس غيرُ سبّابْ   للقُربِ الأدنى ولا للأجنابْ
اجتنِبُ العيبَ أتقاءَ الأغيابْ   والقولُ يُلقى بعضُهُ فى الأتبابْ

(١) ديوان رؤبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ — ١٥٥ .
(٢) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٣٧ — ٤٩ .
(٣) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٤٧ — ٥٠ .
(٤) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٢٩ — ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠—١٦١ .

ماضيهِ أَمْضَى من حِدادِ النُّشَّابْ والقولُ يَنمِى بَعْدَ غِبٍّ الإغْبابْ

وممّا يستحقّ الذكر قوله فى القَدَريّين فى أرجوزة مدح بها مسلمة بن عبد الملك ابن مروان (المتوفى سنة ١٢٠/٧٣٧ أو ١٢١/٧٣٩) بعد أن أخمد نيران الفتنة نحو سنة ١٠٢ وقتل يزيد بن المهلّب من رؤساء الثائرين . فقال[١] :

فلقتُ والمُمْلِى حفيظُ الكُتّابْ والقَدَرِيُّون بقولٍ مُرْتابْ

والقدَريّون بحَبْلٍ جذّابْ بقدَرٍ فى حَلَقاتِ الأسْبابْ

يَنْزِعُهُمْ مِنْ شاهدٍ وغُيَّابْ جَذْبَ المُعلّينَ دِلاءَ الأكْرابْ

سيَعْرِفون الحقّ عنـد المِيجابْ دَعْهُمْ سَيلْقَوْنَ أَعَدَّ الحُسّابْ

والأمْرُ يُقْضَى فى الشّقا للخُيّابْ

ولرؤبة حِكَم جميلة نسجها فى أرجوزة لها ٣٧ بيتاً فى معاتبة ابنه عبد الله[٢] منها :

وأَصْدُقْ إذا ما قلتَ قولًا واْقْصِدِ فليس مَنْ جارَ كهادٍ يهْتَدِى

إنّ السعيدَ عامِلٌ لِلأَسْعَدِ والرُّشْدُ فاْعْلَمْهُ طريقُ الأَرْشَدِ

وزادُ تَقْوَى أفضلُ التّزَوُّدِ

وحِكَم أخرى كثيرة وردت متفرّقة فى أراجيزه . ثم من الجدير بالذكر ورودُ عبارات فى شعره تدلّ على ابتداء رَواج الأقوال بعلم أحكام النجوم عند العرب فى أوائل عهد الدولة العبّاسيّة[٣] فقال ملمّحاً إلى انقراض الأمويّين[٤] :

---

(١) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٤٣ — ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة فى كتاب أراجيز العرب .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٢٠ بيت ٣٠ — ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة الألمانية فى ص ٣١ — ٣٢ من مقدمته .

(٣) قال رؤبة (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح [١٣٢/٧٥٠ — ١٣٦/٧٥٤] « فاز بنجم سَعْدِه مُنَجِّمُهْ » (وفى الديوان « بنجمىْ ») .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٩٢ من الأبيات المفردات بيت ١٧ — ١٨ وكتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٦ .

مروانُ لمّا أن تهاوتْ أنجُمُهْ   وخانهُ فى حُكْمِهِ مُنَجِّمُهْ

كان رؤبة يقدِّر شعره قدرًا عظيماً فلو أردنا جمْعَ كلّ ما قاله مدحاً لصنعته فى أراجيزه لاضطرِرنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فيما كم بعض الأمثلة من ذلك[1] :

قلتُ والأقوالُ مما يَنْبَرِى   ما أنا بالفانى ولا المُغَمَّرِ
أنسِج نَسْجَ الصَنَعِ المُحَبَّرِ   كيْفَ ترانى أنتحِى فى الدَّفتَرِ
على قضيب الذاهباتِ الشُّبَّرِ   لا ينظرُ النحوىُّ فيها نَظَرِى
وإن لوى لَحْيَيْهِ بالتحَكُّرِ   وهو دَهِىُّ العِلْمِ والتَّعبُّرِ
حتى استقامتْ بى على التيسُّرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمّد الثقفىّ الذى توفّى سنة ٩٥ وهى مهمّة لما فيها من أقدم التعريض فى الشعر بعلم النحو . — وممّا قال فى مدح أبياته[2] :

قلتُ ولا يبلغُ وَصْفِى واصفُ   لَأَمْدَحَنَّ والعَروفُ عارفُ
بمستجِدّاتٍ لها طرائفُ   لها سيرٌ ولها مَواقِفُ
أسَّسها صَنْعٌ بهنَّ قائفُ

وقال أيضاً[3] :

ما كان تَحْبيرُ اليمانى البرّادْ   يرجو وإن داخلَ كلَّ وصّادْ
نَسْجِى ونَسْجِى مُجْرَهِدٌّ الجُدّادْ

إنّ من تأمّل أشعار العجّاج ورؤبة تعجّب من جودة صناعتهما ومهارتهما فى صَوْغ الأراجيز الطولى على رَوِىٍّ صعب سالمةً من الإقواء والإكفاء والإيطاء . فقد

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ — ١٤٢ .
(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ — ٢٠ .
(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ — ٢٨ .

لاحظ مثلاً يونس بن حبيب[١] أنَّ العجّاج قال أرجوزته التى مطلعها « قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فجَبَرْ » وهى ٢٢٩ بيتاً موقوفةَ القوافى ولو أُطْلِقَتْ قوافيها كانت كلّها منصوبةً وكذلك عامّة أراجيزهما . ولهما التوسُّع العجيب فى اللغة لاسيّما لرؤبة فأصاب من قال فيه أنه كان بصيرًا باللغة قيِّماً بحُوشِيِّها وغريبها[٢] . فلكثرة الألفاظ الغريبة الموجودة فى أبياتهما احتجّت بها أهل اللغة كثيرًا وإن كانوا أحياناً لا يفهمون معناها بالضبط فغلطوا فى تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من العرب فى أبيات رؤبة[٣] :

لَمَّا ازْدَرَتْ نَقْدِى وقلّتْ إبْلِى	تَألَّقَتْ واتّصَلَتْ بعُكْلِ
خِطْبِى وهزَّتْ رأسَها تَسْتَبْلِى	تسألُنى من السِّنين كَمْ لى
فقُلْتُ لو عُمِّرْتُ سِنَّ الحِسْلِ	أو عُمْرَ نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ
والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ	صرتُ رهينَ هَرَمٍ أو قَتْلِ

قال الجاحظ فى كتاب الحيوان[٤] : « وهذا الشعر يدلّ على طول عمر الحِسْل لأنّه لم يكن ليقول ° أوعُمْرَ نوح زمن الفطحل ° والصخر مبتلّ كطين الوحل °

(١) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٨٩ .

(٢) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبعات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن أحمد العباسى ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٤٦ بيت ٩ — ١٦ (فراجع ما قاله فيها Ahlwardt فى مقدمته ص ١٣ — ١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ — ١٢٣ والأبيات مروية فى لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢ وج ١٤ ص ٤٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٦٤ وصحاح الجوهرى ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ (تنسب فيه إلى العجاج) ومجمع الأمثال الميدانى ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ (فى المثل : كان ذلك زمن الفطحل) والزهر للسيوطى (فى النوع الخمسين) ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب فى أحوال العرب للالوسى ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ وحياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ٣٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكامل للمبرد ص ٣٤٨ من طبعة ليبسك وثمار القلوب للثعالبى ص ٥١٥ — ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ فى المواضع التى سيأتى ذكرها فى الحواشى التالية .

(٤) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ — ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولا يذكر اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و٨) .

الاّ وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابىّ عن بعض الأعراب أنّ سنّ الضبّ واحدة أبدًا وعلى حال أبدًا فكأنّه قال لا أفعلها مادام سنها كذلك لا ينقص ولا يزيد . وقال زيد بن كثيرة سنّ الحسل ثلاثة أعوام وزعم أنّ قوله مَثَلًا لا أفعله سنّ الحسل غلط . ولكن الضبّ طويل العمر إذا لم يعرِضْ له أمرٌ وسنّ الحسل مثل سنّ القَلوص ثلاث سنين حتّى يلقَح . ولوكانت سنّ الحسل على حالة واحدة لعرَف الأعراب الفتى من الزكىّ وقد يكون الضبّ أعظم من الضبّ وليس بأكبر منه سنًّا » . وقال الجاحظ فى موضع آخر[١] :

« وقد يمكن أنْ يكون الِحسْلُ لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبدًا على أمر واحد ويكون قول العجّاج[٢] فى طول عمره حقًّا ويدلّ على أنّ اسنانه على ما ذكروا قولُ الفزَارىّ :

وجدناكُم رَأْبًا بنى أمّ فرْقة كأسنانِ حِسْلٍ لا وفاء ولا غدرْ

يقولون لا زيادة ولا نقصان » . — وقال فى موضع ثالث[٣] : « ومن أمثالهم لا آتيك سِنَّ الحِسْل وقال العجّاج : تُمّتَ[٤] لا آتيه سِنَّ الحسل . كأنّه قال حتّى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسنانًا » . — وفى كتاب لسان العرب[٥] ما نصُّهُ : « وقولهم فى المثل لا آتيك سنّ الحِسْل أى أبدًا لأنّ سِنّها لا تسقُط أبدًا حتى تموت[٦] وأنشد ابن برّىّ تُمّتَ لا أُرْسِلُهَا سِنَّ الحِسْلِ » . — وقال أحد الحديثين وهو السيّد محمّد توفيق البكرىّ الصّدّيقىّ شارحًا أبيات

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) فى الطبعة الحجاج — ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤبة التى ذكرناها آنفا أو أنه يشير الى بيت العجاج المروى فى ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ .

(٤) فى الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً فى صحاح الجوهرى ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

[ر]ؤبة[١] : « الحسل ولد الضبّ تنفقئ عنه البيْضة وقد خرجت سنّة فلو بقى دهراً لم [ي]تغيّر عمّا هو عليه . يقول فلو عمرت لا أتغيّر كان آخر حالى الموت » .

ولكنّ هذه التفاسير جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإنّ من قال بطول عمر [ال]ضبّ ومن قال بعدم تغيُّر أسنانه إنما استخرج قوله على وجه الحَدْس والتخمين من [...]س بيت رؤبة والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغَرابة استعمال لفظ الحسل فى مثل هذا [الت]شبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغيُّر إذْ كان الحِسْل اسم الضبّ حين [يخر]ج من بيضته أعنى وقتَ ولادته[٢] . — فشَرْح الأبيات الحقيقىُّ هذا[٣] لا يخرج [الح]سل من بيضته إلاّ بعد ما ثقَب قِشْرتها بسنٍّ بارزة من فمه تسقُط منه بعد المولد . [...]ل رؤبة لو عُمّرتُ ما خرج الحسل من بيضته بواسطة تلك السنّ الخاصّة يعنى ما [...]ن فى الدنيا ضبّ أى دائماً . فقوله من باب قول الشاعر[٤] :

[و]عليك سلامُ اللهِ ما هبّتِ الصَّبَا وما قرقر القِمْرِىُّ فى وَرَق السِّدْرِ

أو من باب قول العرب : « لا أفعلُه السَّمَرَ والقَمَرَ[٥] » أى ما كان سَمَرٌ والقمرُ أبداً .

أمّا قول رؤبة : أو عُمْرَ نُوحٍ زمن الفِطَحْلِ * والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ أيضاً ممّا لم يتوصّلوا إلى شرحه علماء اللغة . قال أبو نَصْر الجوْهرىّ المتوفّى فى [آخ]ر القرن الرابع فى كتاب الصِّحاح[٦] : « الفِطَحْلُ على وزن الهِزَبْر زَمَنٌ لم

(١) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .
(٢) قال أبو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) فى النوادر فى اللغة [...]٩ من طبعة بيروت ١٨٩٤ « يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حسل ثم يكون غيداقاً [...]ون مطبخاً ثم يكون ضباً مدركا » كذا أيضاً فى كتاب المخصص لابن سيدة ج ٨ ص ٩٦ من [ط]بولاق ١٣١٣ — ١٣٢١ .
(٣) راجع مقدمة Ahlwardt لديوان رؤبة ص ١٤ — ١٥
(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبى الطيب محمد بن إسحاق الوشاء [...]١٣ من طبعة مصر ١٣٢٤ .
(٥) كتاب الأمالى للقالى ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ .
(٦) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

يُخْلَق الناسُ فيه بعدُ . قال الجَرْمِيّ[١] سألتُ أبا عُبَيْدة[٢] عنه فقال الأعرا
تقول إنّه زمن كانت الحجارة فيه رَطْبة . وأنشد للعجّاج [كذا] : وقد أتانا زَمَ
الفِطَحْلِ ° والصَّخر مُبْتَلٌّ كطينِ الوَحْلِ » . — وفى لسان العرب[٣] ما نصّه
الفِطَحْلُ على وزن الهِزَبْر دهرٌ لم يُخْلَق الناس فيه بَعْدُ وزَمَنُ الفِطَحْل زمن
النبيّ على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام . وسئل رؤبة عن قوله زمن الفِطَحْل فقال أيّ
كانت الحجارة فيه رِطاباً . وروى أنّ رؤبة بن العجّاج نزل ماء من المياه فأراد
يتزوّج امرأة فقالت له المرأة ما سِنُّكَ ما مالُكَ ما كذا فأنشأ يقول : [الأبيات
وقال بعضُهم ° زَمَنَ الفِطَحْل إذ السِلام[٤] رِطَابٌ ° وقال أبو حنيفة[٥]
أَتَيْتُكَ عامَ الفِطَحْل والهِدَمْلَة[٦] يعنى زمن الخِصْب والريف . . . . والفِطَ
السَّيْل وجَمَلٌ فِطَحْل ضَخْم مثل السِّبَحْل قاله الفرّاء[٧] » . — وفى كتاب مجمع
الأمثال للميداني[٨] المتوفّى سنة ٥١٨ : كَانَ ذلك زَمَنَ الفِطَحْلِ . قالوا
زمن لم يُخْلَق الناس . قال الجَرْمىّ سألتُ أبا عبيدة عنه فقال الأعراب تقول ك

---

(١) وهو أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمى المتوفى $\frac{٢٢٥}{٨٤٠}$ فانظر FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, Leipzig 1862, p. 81-82.

(٢) يعنى أبا عبيدة معمر بن المثنى من النحويين البصريين واختلف فى تعيين سنة مماته
٢٠٨ و ٢١٣ .

(٣) لسان العرب ج ١٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٤) سلام جمع سلمة أى الحجر .

(٥) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة $\frac{٢٨٢}{٨٩٥}$.

(٦) قال الجوهرى فى الصحاح : « الهدملة الرملة الكثيرة الشجر » وقيل فى لسان ا
ج ١٤ ص ٢١٧ : « والهدملة الدهر الذى لا يوقف عليه لطول التقادم ويضرب مثلا للذى
يقول بعضهم لبعض كان هذا أيام الهِدَمْلة قال كُثَيِّر :

كَأَنْ لم يُدَمِّنْها أنيسٌ ولم يكنْ لها بعد أيّام الهِدَمْلةِ عامِر

وراجع أيضاً كتاب معجم ما استعجم للبكرى ص ٨٢٨ من طبعة غوتنجن ١٨٧٦

(٧) أبو زكرياء يحيى بن زياد الديلمى المتوفى $\frac{٢٠٧}{٨٢٢-٨٢٣}$ من النحويين الكوفيين فا
FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, s. 129-136.

(٨) كتاب مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ والظاهر
القطعة الأولى كلها منقولة من صحاح الجوهرى .

زمنٌ كانت الحجارة فيه رَطْبَة وأنشد للعجّاج [كذا] : وقد أتانا زمن الفطحلِ * والصخر مُبْتَلٌ كطين الوَحْلِ . قلتُ روى غيرهُ لرؤبة : [الأبيات] »[١] . — وعلى هذه الصفة أيضاً شرح البيتَ السيّدُ محمّد توفيق البَكْرىّ حيث قال[٢] : « والفطحل قال الأصمعىّ إذا قيل للأعراب ما أراد بالفطحل قالوا زمن السلام رطاب يريد زمن الحجارة حين كانت رَطْبَة » .

فالواضح أنّ علماء اللغه لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلاّ فى بيت الرؤبة والمثلِ المشتقٌ منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلّفوا شرحها من نفس البيت على وجه التخمين . فلا عجب فى عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيداً جدّاً مأخوذاً من اعتقادات المَنْدائيَّة وهم فرقة دينيّة خاصّة قديمة الأصل سكنت أصحابها بطائح العراق لاسيّما نواحى البصرة فى عهدبنى أُميّة ويسمّوْن الآن عند العامّة بالصُّبّة . وهم أخذوا كثيراً من آرائهم من مذاهب gnostiques[٣] فزعموا أنّ أصل جميع الأشياء پيرا رَبّا أى اللجّة العظيمة الذى شاركه أيرْ زِيفا رَبّا أى الأثير المُضى ءالعظيم ومانا رَبّا أى الروح العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثالوث إلاهيّة . ومانا رَبّا هو المسمّى أيضاً نفس العالَم أو مَلِك النور (مَلْـكَا دَنْهُورَا) ولُقّب بالحياة الأولى (هَيّ قَدْمَايى) لأنّ الأشياء أخذت تصدُر عنه وذلك على وجه الفيض وهو يسكن عالماً نورانياً (آلْمَا دَنْهُورَا) . فأوّل من فاض منه الحياة الثانية (هَـيّي تِنْيَايَى) أو يوشامين ثمّ معرفة الحياة (مَنْدَا دْهَـيّي المنسوب إليه إسم المندائيّة) الذى يظهر فى العالم المرْئىّ أى الأسفل بعدّة تجسُّدات أقدامها الإخْوَة الثلاثة هِيبِلْ وشِيتِلْ وأُنوش[٤] . أمّا الحياة الثانية أو يوشامين فصدر عنه الحياة الثالثة (هَـيّي تَلِيتَايى) المسمّى أيضاً أبا تور فلم يكن تحته أصلاً إلّا فراغ جسيم فى قعره ماء أسود . وأراد أباتور مُشارَفة تلك الأعماق

(١) فراجع أيضاً كتاب المزهر للسيوطى فى النوع الخمسين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٣) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

(٤) والواضح أن هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من هابيل وشيث واخنوخ .

فرأى فى الماء صورته فانقلبت هذه الصورة صورة ابنه غير الموجود إلى ذلك الوقت وكانت صورة خادعة كاذبة أوّلاً ثمّ تصلّبت فأصبحت ابنهُ پْتَاهِيلْ وهو أوّل من كان له من طبيعة المادّة . ومراعاةً لطِلْبة أبيه خلق پتاهيل الأرض ثمّ آدم وحوّاء لـكنّه لم يتمكن من إعطاء الجسد المخلوق نفساً تُحييهِ فأرسل الحياة الأولى (أى مانا رَبّا) هيبل وشيتل وأنوش لينفُخوا فى الجسدين روحاً منه . أمّا پتاهيل فحُرِمَ سُلْطتهُ على البشر وحُكم عليه بالنفى عن عالم النور والبقاء فى موضع تحته مصفَّداً بالسلاسل إلى يوم الدين . — فالواضح أنّ رؤبة عند إقامته الطويلة بالسواد والبصرة سمِع شيئاً من هذه الاعتقادات المندائيَّة وعرّب پتاهيل بالفِطَحْل (وهو فى العربيّة الضَّخْم من الابل[1]) حسبما هو الغالب فى التعريب من تشبيه الألفاظ الأعجميّة بالألفاظ والأوزان العربية وزعم رؤبة أنّ پتاهيل أوالفطحل اسم رجل عاش فى الزمان القديم وعاصر نوحاً فذكر فى البيت لرغبته المعروفة فى استعمال الـكلمات والأسماء الغريبة . أمّا الشُّرّاح وعلماء اللغة فحاروا فى تفسيره لعدم معرفةٍ لهم بديانة المندائيَّة ولم يُذْكروا أنه اسم عَلَمٍ فاستنتجوا من القرائن خطأً أنّ معناه دهرٌ لم يُخْلَق الناس فيه بعدُ وكانت الحجارة فيه رَطْبة فقيّدوا فى القواميس معنًى لا يوجد حقيقةً فى اللغة .

وهذا الغلط من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لمّا أرادوا شرح لفظ الأندرين الوارد فى المطلع المعزوّ إلى معلّقة عمرو بن كلثوم[2] . فإنّهم لجهلهم أنّ

---

(١) ونجد عند المؤلفين المعاصرين لنا الفطاحل بمعنى كبار العلماء وقال إبراهيم اليازجى لسائل (فى مجلة الضياء ج ٣ ص ٣٠٨) : «وأما استعمال الفطاحل بالمعنى الذى ذكرتموه فهو من مواضعات العامة ولا شيء منه فى كتب اللغة» . واستحسن الشيخ بعيث الخضرى هذا الاستعمال وقال (فى مجلة المشرق ج ٤ — ١٩٠١ — ص ٣٣٣ — ٣٣٤) : «هو من مواضعات الفصحاء والبلغاء قد استعملوه بهذا المعنى من باب المجاز لأن من معانى الفطحل الضخم من الإبل فنقلوه إلى معنى العظيم أو الـكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك فى كثير من الألفاظ ومن ذلك الـكبش ... والوعل ... والسنور .. والفحل ... والقنعاس فإن معناه فى الأصل معنى الفطحل بتمامه ... والقرم» .

(٢) وهو مطلع منحول لها فراجع ما قاله TH. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaqât*, I, Wien 1899, p. 13-15.

أَنْدَرِين[١] موضع بالشام عن جنوبيّ حلب على طَرَف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ اسم جنسٍ لا اسم عَلَم فقال الخليل فى كتاب العين[٢] « الأَنْدَرِىّ ويُجْمَع الأندرين يقال هم الفِتْيان يجتمعون من مواضع شتّى » . ثم قال صاحب لسان العرب[٣] : « والأَنْدَرُونَ فِتْيان من مواضع شتّى يجتمعون للشُّرْب قال عمرو بن كلثوم : ولا تُبْقِى خُمورَ ٱلأَنْدَرِينَا » . فجاء فى القاموس تعريف اللفظ على هذه الصفة : « الأندرون فتيان شتّى يجتمعون للشرب[٤] » . فأخذه من القاموس بطرس البستانىّ فى محيط المحيط[٥] وسعيد الخورى الشرتونىّ فى كتاب أقرب الموارد[٦] فهما فرّقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا : « (الأندرون) فتيان شتى يجتمعون للشرب و (أندرين) قرية » فتخمين خاطئ صار لفظاً مقيداً فى كتب اللغة .

أمّا البيت « والصخرُ مبتلٌّ كطين الوَحْلِ » فإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدّة وعليه تدلّ الأبيات المنسوبة إلى أميّة بن أبى الصَّلْت[٧] :

---

(١) وأندرين (كذا وبدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron. راجع معجم ما استعجم للبكرى ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ — ٣٧٤ من طبعة ليبسك وشرح التبريزى على القصائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلكتة ١٨٩٤ و Nœldeke ص ٣٢ — ٣٣ من الكتاب المذكور فى الحاشية المتقدمة .

(٢) المروى فى كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ من طبعة ليبسك .

(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ — ٥٤ من طبعة بولاق .

(٤) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢ .

(٥) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ — ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ — ١٨٧٠ .

(٦) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٧) يروى البيتان وغيرهما فى كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى ج ٣ ص ٢٥ من طبعة باريس ١٨٩٩ — [١٩١٩] وفيها : « وإذ صخر السلام » وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وفى بلوغ الأرب للآلوسى ج ٣ ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ [وكل الأبيات مروية فى ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة ليبسك ١٩١١ أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢] فراجع أيضاً ثمار القلوب للثعالبى ص ٥١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

وإذ هم لا لُبوسَ لهمْ تقيهمْ   وإذ صُمُّ السَّلامِ لهمْ رِطابُ
عشيَّةَ أُرْسِلَ الطوفانُ يجرى   وفاض الماءُ ليس له جِرابُ

وقال الجاحظ فى كتاب الحيوان[1] : « وانشدنى عبد الرحمن بن كَيْسان :

فكان رطيباً يومَ ذلك صخرُها   وكان خضيداً طَلْحُها وسيالُها

« فزعم كما ترى أنّ الصخور كانت ليّنة وانّ الأشجار الطلح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها . وزعم بعض المفسّرين وأصحاب الأخبار أن الشوك إنما اعتراها فى صبيحة اليوم الذى زعمت النصارى فيه أنّ المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدّثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواته والحاملين عنهأنّ الصخور كانت ليّنة وأنّ قدمَىْ إبراهيم عليه السلام أثرتا فى تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس فى ذلك الزمان إلّا أنّ الله تعالى توفى تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاها وترك أثر مقام إبراهيم صلعم والحجّة إنّما هى فى إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس ليس أنّ إبراهيم صلعم كان وطىء على صخرة يابسة فأثّر فيها » .

فبعد هذا الاستطراد الطويل لنرجع إلى سياق الكلام على رؤبة . — لا شكّ أنّ فرط قصد الغريب من الألفاظ فى أشعار العجّاج ورؤبة سبّب استعجامها الشديد على القارىء فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويّين القدماء لبقى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها ألغاز لا يمكننا التوصّل إلى حلّ معانيها . — ثمّ من خصائص صناعة العجّاج ورؤبة شدّة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيّما التجنيس المحقّق أو المستوفى الذى اتّفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع[2] والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانَسة محلّ عالٍ

---

(١) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ – ٦٩ .
(٢) إنى أستفيد من الاصطلاحات المستعملة فى كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ – ٢٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

علم البيان ولكنّ الإفراط فى استعمالها (والأمثلة منها ألوفٌ فى أراجيز ذينك الشاعرين[١]) يُستثقل فيضرّ جُودة الشعر. — ومن خصائصها أيضاً وفرة إدارج نوادر وحِكَم فى سياق الكلام[٢] فيضطرب أحياناً المعنى و يستغلِق على القارئ. وقد مرّ بنا مثال ذلك فى الأبيات المرويّة (ص١٧٨—١٧٩) ومن هذا القبيل قول رؤبة فى وصف حماسة قومه[٣]:

عَبْلِ المَداوِيسِ مُنِيفِ الشِّنْخابْ   أحْزَمَ تَخْشاهُ قُهوبُ الأقْهابْ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشْيَتِهِ بالأذْنابْ   وَالجَزْلُ أبْغَى مِنْ قُماشِ الأحْطابْ
والهمُّ لا يُقْفَى كَسَلَ الأوْصابْ   أرْجو انْتِسابِى بقُروبِ الأقْرابْ
ورُؤْيَتِى قَبْلَ اعْتِياقِ الأعْطابْ   وَجْهَ أميرِ المُؤمِنينَ الأوّابْ

ومن هذا الباب قول رؤبة[٤]:

إنّ لِرِيْعانِ الشَّبابِ غَيْهَقا   كأنَّ بى مِنْ أَلْقِ جِنّ أوْلقا
ولا أُحِبُّ الخُلُقَ المُمَذَّقا   وَالغِرُّ مَغْرُورٌ وَإنْ تَلَهْوَقا
وشَرُّ آلافِ الصِّبا مَنْ آنَقا   بَلْ أبْصَرَتْ شَيْخًا وَنَى وَأشْفَقا
واضْطَرَبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَّقا   وَالدَّهْرُ إنْ لَمْ يُبْلِ طولًا عَوّقا

وحبُّ الغريب حمل رؤبة أحياناً على الإسهاب المملّ فى الوصف والتشبيه مثل قوله فى ذكر الطلال[٥]:

---

(١) انظر الأمثلة المروية فى مقدمتى Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٨ — ٥٠ وديوان رؤبة ص ٩٣ — ٩٧.

(٢) راجع مقدمتى Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٦ — ٤٧ وديوان رؤبة ص ٩١ — ٩٣.

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ١٧٧ — ١٨٤ من طبعة برلين وأراجيز العرب ص١٧٠.

(٤) ديوان رؤبة عدد ٤١ بيت ١٧ — ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ — ١٠٠.

(٥) ديوان رؤبة عدد ٥٥ بيت ١٣ — ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ - ارثعَنّ المطر كثُر - وحيثُ الكتاب أى كتبتُه.

كأنَّهُ بعْدَ رِياحٍ تَدْهَمُهْ ومُرْثَعِنَاتِ الدُّجونِ تَثِمُهْ
إنْجيلُ أحْبارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهْ ما خطَّ فيهِ بالمِدادِ قلَمُهْ
إذا تَهَجَّى قارِئٌ يُهَيْنِمُهْ أخْرَجَ أسماءَ البيانِ مُعْجَمُهْ
وحَلَقُ التَّرْقينِ أوْ مُوَشَّمُهْ يُبْدِي لِعَيْنَيْ عابرٍ تَفَهُّمُهْ
ما فيه لَوْلا أنَّهُ يُتَرْجِمُهْ

وربَّما غيَّر رؤبة وزن الألفاظ لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعيُّ انتقاداً مدقّ
مرويًّا فى كتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبه[1]. — هذه عيوب شعر رؤبة وهى عل
كلّ حال أقلّ من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دُكَيْن الراجز وهو دُكَيْن بن رجاء من بن
فُقَيْم الذى لم نقف على تعيين عصره إلّا بما رواه ابن قتيبة[2] وصاحب الأغانى[3] من
مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت توليه المدينه أعنى قبل سنة ٩٩/٧١٧. ولم يصل إلي
من أراجيزه إلّا أبيات قليلة جدًّا[4]. — ومن شعراء الأراجيز أبو نُخَيْلة الحِمّانى

---

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ — ٣٨٠ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٧ — ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد رب ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ من طبعة ١٣٠٥.

(٤) ويروى بعض أبياته فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١١٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ج ٢ ص ٤٨٨ وج ٣ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ من طبع بولاق — [قال ياقوت فى إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ مانصه : « دكين بن سعيد الدارمى التميمى الراجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتبها على ابن قتيبة فى طبقات الشعرا فجعلهما واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذى كان منقطعا إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والي بالمدينة .. مات دكين سنة ١٠٩ » . أما دكين بن رجاء الفقيمى ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ — ٢٠٠) أنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ . — وفى كتاب العقد فى الموضع المذكور ينسب مدح عمر بن عبد العزيز الى دكين بن رجاء الفقيمى كما فى كتاب الشعر لابن قتيبة أما صاحب كتاب الأغانى فقال إن مدح عمر بن عبد العزيز لدكين الراجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبته] .

الراجز[١] الذى تنافر العجّاج فى الشعر وأقام مدّةً بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) بأرجوزة ذُكر بعض أبياته فى كتاب الأغانى[٢] وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادىّ[٣] فلمّا انتقلت الخلافة من بنى أميّة إلى بنى العبّاس سنة ١٣٢/٧٥٠ نقلها إلى السّفّاح فبقيت فى ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العبّاسىّ . ومات بعد بيعة المنصور أعنى بعد سنة ١٣٦/٧٥٤ . وشعره ليّن الألفاظ مجرّد عن الغريب مصوغ فى بحر الرجز المشطور إلّا شيء قليل جدًّا ورد على غير قالب الأرجوزة . — ومنهم أبو مِرْقال عَطاء بن أُسَيْد السعدىّ المعروف بالزَّفَيَان الذى لم يرد ذكره فى أكثر كتب الأدب والتراجم مع أنّ مؤلّفى كتب اللغة ربّما احتجّوا بأبياته لا سيّما صاحب تاج العروس الذى روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه . وسنة ١٩٠٣ م جمع المستشرق الألمانىّ أهْلْوَرْدت[٤] هذه الأبيات المفردة المتفرّقة ونشرها مع عشر مقطّعات من أراجيزه موجودة فى نسخة خطّيّة محفوظة فى المكتبة الخديويّة .ولم نعرف من أخباره إلّا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعنى أنّه كان فى قيد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبى فُدَيْك بهَجَر من أعمال البحرَيْن . وشعره غير مُفْرِط فى استعمال الغريب مجرّدٌ عمّا ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعنى وصفَ الغرام وتوجّعَ الفراق والنساء والشباب والنوق والحمير الوحشيّة والفيافى والصيد وجميع ذلك تمهيداً للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرْجَى منه الجوائز . — ومنهم أيضاً عُقْبة بن رؤبة بن العجّاج على ما يُستَنْتَج من

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٣٩ — ١٥٢ من طبعة بولاق وكتاب الإبانة لأبى سعيد محمد بن أحمد العميدى ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ الطبع .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ١٤١ .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ من طبعة بولاق .

(٤) الجزء الثانى من مجموع أشعار العرب المذكور وهذا الجزء مشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والزفيان فراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter: 3 al-ʿAjjāj und al-Zafayān* (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 23. Band, 1909) p. 100-101.

حكاية مرويّة فى كتاب الشعراء لابن قتيبة[١] ومن كتاب الأغانى[٢] .

إن رؤبة بن العجّاج آخِر النوابغ الذين قالوا الأراجيز الحقيقيّة أعنى القصائد الجارى مضمونها على الأسلوب القديم مع أنّها مصوغة فى بحر الرجز المشطور . و بعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً وخُتِم بأبى العبّاس محمّد بن ذُؤَيب الفُقَيمىّ المعروف بالعُمانىّ[٣] الذى نظم بالرجز أكثر قصائده[٤] . وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد (١٢٦ / ٧٤٤) والخليفتين الأخيرين من الدولة الأمويّة ثمّ السفّاح والمنصور والمهدىّ وهارون الرشيد (١٧٠ / ٧٨٦) — (١٩٣ / ٨٠٩) .

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقيّة وجدنا أنّ شعراء القرن الأوّل وأوائل الثانى حصروا استعمال الرجز المشطور فى المقطّعات الدائرة على مواضيع خاصّة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأعاريض . فتراهم يرتجزون فى وصف أحوال شخصيّة ارتجالا[٥] أو فى الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفى المُلَح والحكايات لاسيّما المُضْحِكة . ومن هذا الباب الأخير رجز رُدَيْنِى بن عَبْس

---

(١) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأغانى ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ - ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٧ ص ٧٨ — ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز فى ج ٢ ص ٦١ وج ٦ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [١ وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق .

(٤) إن الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ سطر ٢٣ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ فى خلافة المهدى) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبى النجم وحميد الأرقط والعمانى . — ولكن من جملة أشعاره التى نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها فى مدح عقبة ابن سلم (ولا «بن مسلم» كما فى الأغانى ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغانى (وانظر أيضاً البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة ١٣١٣ [أو ج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١]) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤبة قد أنكر فى حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحسان الأراجيز .

(٥) أو بلا ارتجال كالأبيات (٢٠ رجزاً) التى نسجها أبو عمارة عمر بن مسلم بن أبى طرفة الهذلى داعيا الله أن يأذن له فى الاشتراك فى غزو أبى لطيف . راجع : J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten*, Berlin 1884, No. 237.

الفقعسى(١) فى ذكر طريقة تخلصه من دفع ما كان عليه من الدَّيْن لتاجر فارسى بالكوفة ومنه أيضاً قصة العُذافر بن الرَّيَّان السكنانى(٢) فى تنجُّحه لخيانة غرمائه بيمين « كمثل سيْلٍ جاء من رأس جبَلٍ » . ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التى قالها مسعود بن كبير الجرْمىّ فى حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النَّخاس(٣) أو مخاطبةُ الأعرابىّ والضَّبع التى أكلت شاته(٤) أو قولُ الرجل الذى سُرِق له الدَّلو(٥) وهلمّ جرًّا . وقد سبق (ص ٨٦١) ذِكْر ما قاله الشَّمَرْدَل بن شُرَيْك اليربوعىّ بعد منتصف القرن الأوّل من الأرجاز العديدة اللطيفة فى الصَّقْر والكلب والصيد فتُرْوَى لعَوْف بن ذِرْوَة تسعة أبيات من الرجز فى وصف الجراد(٦) ولعبد الله بن كُراع من شعراء النصف الأوّل من القرن الأوّل أرجاز فى وصف الضَّبُع(٧) ولأُحَيْحة بن الجُلَاح الأوْسىّ أشعارٌ من بحر الرجز فى الكلاب(٨) ولبعض(٩) الأعراب من القرن الأوّل ارجاز فى صفة

---

(١) حماسة البحترى ص ٣٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحترى ص ٣٨٤ — ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولم أجد ذكره فى كتاب الأدب ولكنه إسلامى بغير ارتياب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والراوى هو أبو زياد الكلابى من معاصرى اسحاق الموصلى المتوفى سنة ٢٣٥ .

(٥) حماسة أبى تمام ص ٨٠٠ — ٨٠١ من طبعة بن أو ج ٤ ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ والنوادر فى اللغة لأبى زيد الأنصارى ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعى) و كتاب أراجيز العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة — ولا يذكر الشاعر فى كتاب الخزانة ولا فى كتاب الأغانى ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى الأصمعيات ولا فى حماسة أبى تمام ولا فى حماسة البحترى .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥١ .

الفيل واليربوع[١] وغيرها من الحيوان[٢] . ولا احتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز فى الرثاء والهجاء .

ومن الحرىّ بالاعتبار أنّ شعراء الدولة العبّاسيّة لا سيّما فى القرن الثانى والثالث والرابع اتّبعوا هذا المنهج فى حصر استعمال الرجز المشطور فى مواضيع خاصة معيّنة فكثُرتْ عندهم الأرجاز فى الطَرْديّات وهى وصف التمنّص وحوادثهِ وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والبيزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريض فى هذا النوع من الشعر الذى تعاطاه كثير من النوابغ مثل الفضل بن عبد الصَّمَد الرَّقاشىّ[٣] من شعراء هرون الرشيد وأبى نُوَاس الحسن بن هانئ[٤] المتوفَّى فى العشر السنين الأخيرة من القرن الثانى والناشئ الأكبر المتوفّى سنة ٢٩٣ وابن المعتز[٥] المتوفى سنة $\frac{٢٩٦}{٩٠٨}$ وأبو فِراس الحَمْدانى[٦] المتوفّى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصَّمَد بن المعذَّل من شعراء القرن الثالث فى وصف العقرب المروىّ فى كتاب الكامل للمبرّد[٧] .

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) روى فى كتاب الحيوان ج ٣ ص ٨٢ رجز فى وصف السمك لابن أبى العنبر بن أبى نخيلة الراجز .

(٣) روى له الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) وص ١٦١ — ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز فى وصف الفهد .

(٤) روى له فى كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ — ١٥ أراجيز فى الكلاب والطرد فراجع ديوانه فى باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (فى باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة فى W. AHLWARDT, *Ueber Poesie und Poetik der Araber*, Gotha 1856, p. 2-4.

(٧) الكامل فى اللغة للمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المعذل فى العصر العباسى فتوجد ترجمته فى الأغانى ج ١٢ ص ٥٧ — ٧٢ ويروى له فيه قصيد ولا رجز — نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعى (المولود سنة $\frac{١٢٢}{٧٣٩-٧٤٠}$ المتوفى $\frac{٣١٦}{٨١٣-٨٣٢}$) وإسحاق بن إبراهيم الموصلى (المولود سنة $\frac{١٥٠}{٧٦٧}$ والمتوفى $\frac{٢٣٥}{٨٤٩}$) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٣٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبسك .

وسببُ حفظِهم هذا العروض فى الطرديّات وصفات الحيوان ظاهر وهو أنّ هذا النوعَ من الشعر كان أصلهُ بدويًّا ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى عيشة سكّان المدن وأهل الحضر .

وربّما اتّخذوا بحر الرجز أيضًا فى نسج الرثاء[١] وذكرا لمُلَح واللطائف والحكايات فضلاً عمّا ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيّما المزدوج لتأليف المنظومات الطولى فى الأخبار التاريخيّة أو شرح الفنون والعلوم ولكنّهم فى الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف فى الارتجاز فى الهجاء ولا شكّ أنّ سبب هذا الاستثناء كان ما وقع فى الهيئة الاجتماعيّة العربيّة من التقلّب العظيم بعد انقراض دولة بنى أميّة حيث زال النظامُ القديم المبنىُّ على قسمة الناس فى القبائل فلهذا الزوال وللتغيّر الداخل فى الأخلاق والأميال حُملت الشعراء ضروريًّا على سلوك طريقة جديدة فى الهجاء غيرِ الطريقة المسلوكة فى أيّام الجاهليّة وعند الأعراب لأنّ هجاء قبيلةِ العدوّ وأقارب الخصم أضحى شيئًا لا أساسَ ولا معنى له .

كان الرجز فى القرن السابق للإسلام وفى القرن التالى لظهوره البحر العادىّ فى أشعار العامة من أهل البادية لسهولته ومناسبته لمقتضى الارتجال . فقدْرُ انتشاره عندهم ظاهر ظُهورَ الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز المنسوبة إلى الأعراب الواردة فى كتب الأدب واللغة جمًّا غفيراً حتّى أنّ أبا زيد الأنصارىّ المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذى قد سبق (ص ١٦٥) أنّه ميّز فى كتاب النوادر فى اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال فى توطئة كتابه ما نصّه[٢] : « ما كان فيه (أى فى الكتاب) من شعر القصيد فهو سَماعى من المفضّل بن محمّد الضّبّىّ وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سَماعى من العرب » . فالمحتمل على ظنّى أنّ الذين

---

(١) ومن هذا الباب مرثية أبى نواس فى خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Chalef elahmar's Qasside*, Greifswald 1859, p. 414

(٢) كتاب النوادر فى اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

صاغوا القصائد فى ذلك العروض فقط واخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاصّ (وهم كما تقدّم كلّهم من أهل القبائل) إنما أرادوا الاجتهاد فى رفع شأن الشعر العامىّ البدوىّ كأنّ هذا الاجتهاد ردٌّ على أساليب الشعر المدنىّ فأداروا الأراجيز على مجرّد المواضيع المألوفة عند سكّان البرارى وملؤوها ألفاظاً غريبة خاصّةً لأهل البادية بعيدةً عن متعارَف أهل الحضر(١) .

أمّا أسباب فناء نوع الأراجيز الحقيقيّة وزوالها فى أوائل الدولة العبّاسيّة فأظنّها من ضربين : صناعيّة وطبيعيّة والصناعيّة عُسْر حفظ روىّ واحد فى الأشعار الطولى ذات أبيات قصيرة جدًّا من مشطور الرجز ثمّ الملل الناشئ عن هـذا الروىّ الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر ثمّ صعوبة حصر معنًى تامّ فى بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطرار إلى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر وذلك يضُرّ وضوح المعنى ويسبّب التعقيد . أما السبب الطبيعىّ فهو ما تقدّم أنّ الأرجوزة الحقيقيّة إنّما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهبْ إليها أحد من الحضريّين وهى شعر بدوىّ محض لغةً وموضوعاً فاستنكف عنه شعراء الدولة العبّاسيّة لأنّهم بعداء عن عيشة الأعراب فمن المعروف أنّ الإنسان فى الأغلب لا يتكلّف ما لا يكون معهوداً فى طبعه ولا موجوداً من خُلُقه .

٥ — قد قسمنا الشعر العربىّ فى أيّام بنى أُميّة تسعة أقسام أو أصناف وفرغنا من ذكر الأصناف الأربعة الأولى أعنى الغزل فى مدن الحجاز والنسيبَ والشعر الغرامىّ عند الأعراب والشعر على الأسلوب القديم المتداول عند فحول الجاهليّة والأراجيز . فنبتدئ الآن الـكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذى يتعلّق بالاغتراب والفتوح والحروب أى شعر الجنود فيما خارج جزيرة العرب .

إنّ الحرب لم تزل تدور رحاها فى عهد الأمويّين سواء فى الثغور لتوسيع حدود المملـكة الإسلاميّة غرباً وشرقاً وشمالاً أم فى داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية

---

(١) ولم يكن ذلك رجوعا إلى الأسلوب القديم كما يخمن N. Rhodokanakis

الأقوام العربيّة أو الفتن السياسيّة والدينيّة . لا أحد يجهل أن عرب البادية لم يألفوا أبداً نظاماً اجتماعياً سياسياً غير القبائل المستقلّة فأقصى ما انتهوا إليه إنّما كان تحالفَ جملةٍ من القبائل مدّةً ما بصفة أن لا يُفسَد به استقلالُها فلم يتمكّن الدين الإسلاميُّ على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهدُ الخلفاء لا سيّما عمر بن الخطّاب ومعاوية بن أبي سفيان من استئصال عصبيّتهم و إزالة ما جُبل لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرح تغلب فيهم روحُ المنافرة والمشاجرة فنشبت بين أقوامهم الحروبُ بل زاد استعارُها بعد منتصف القرن الأوّل حين أخذ ينمو تضادُّ النِزاريّين واليمنيّين الذى لا يقدَّر تأثيره فى تاريخ الأمم الإسلاميّة وأحوال الخلافة فى المشرق وفي الأندلس . لا يخفى أنّ دوزى الهولانديّ[١] وكُلْدزِيهر[٢] المجريّ أفرغا كنانة جهدهما فى البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفية نموّهِ وشرّ نتائجه ولكن ليس هذا محلَّ الخوض فى هذا الموضوع الذى يخصّ بيانُهُ بأستاذ التاريخ الإسلاميّ . فيكفينى إيراد ما قاله المسعوديّ في الباب الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب[٣] : « افتخرت نِزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كلُّ فريق بما له من المناقب وتحزّبت الناس وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمرُ مروان بن محمّد الجعْدى[٤] وتعصُّبُهُ لقومه من نزار على اليمن وانحرافُ اليمن عنه إلى الدعوة العبّاسيّة وتغلغلُ الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أميّة إلى بنى هاشم » .

فإن اعتبرتم أنّ مُعظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل

---

(١) راجع R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711—1110), Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lèvi-Provençal. Leyde 1932, 3 vol.]

(٢) راجع I.GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, Halle a.S.1888-1890, vol.I. p.78-100 الذى يصحح بعض أقوال دوزى ويكذب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية .

(٣) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٤) يعنى آخر الأمويين الذى تولى الأمر من سنة ١٢٧/٧٤٤ إلى سنة ١٣٢/٧٥٠

وأنّه منهم أيضاً كان أ كثر المقاتلين فى الحروب الداخليّة القومية ثمّ إن تذكرتم ما سبق بيانه غير مرّة من بقاء الأعراب فى القرن الأوّل والثانى على أغلب ما كانوا عليه فى الجاهليّة من الأهواء والأميال والعوائد ما استغربتم وجود نوع من الشعر سمّيته شعر الجنود لأنّه زها فى العسكر . إنّ مثل هذا الشعر فى أمّة غير العربيّة لم يكن إلّا شىء قليل جدًّا دنىء القدر حقير أمّا عند الأعراب فلم يكن الأمرُ كذلك لولوعهم المشهور بالشعر ومهارتهم به كأنّه من غريزة خاصّهم وعامّهم . فيدلّ بعض الأخبار دلالاً مبيناً على شدّة كَلَف الجنود بالشعر وتعظيمهم إيّاه . منها ما يُرْوَى فى كتاب الأغانى[1] نقلاً عن أبى الحسن علىّ بن محمّد المدائنىّ من رواة القرن الثانى قال : « بيْنا المهلّب بن أبى صُفْرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة[2] إذ سمع المهلّب فى عسكره جَلَبة وصِياحاً فقال ماهذا . قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك فى شىء فأذِن لهم فقالوا إنّا اختلفنا فى جرير والفرزدق فكلٌّ فريق منّا يزعم أنّ أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحُكْم الأمير . فقال كأنّكم أردتم تعرِضونى لهذين الكلبين فيمزّقان جلدتى لا أحكُم بينهما ولكنى أدلّكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق عليكم بالأزارقة فإنّهم قوم عرب يبصُرون الشعر ويقولون فيه بالحقّ » . ففعلوا كما قال وسألوا فى الغد أزرقيًّا قد خرج دعاهم إلى المبارزة . — وفى تاريخ الطبرىّ[3] عثرتُ على خبرٍ آخرَ مهمّ لما نحن فيه وهو أن عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ قبل الوقعة التى حدثت بينه و بين شَبِيب الخارجىّ سنة ٧٧ سار فى الناس يحرّضهم على القتال . قال الطبرىّ عن أبى مِخْنَف لوط بن يحيى المتوفّى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : « وقف [عتّاب] علينا فقصّ علينا قَصَصاً كثيراً كان ممّا حفِظتُ منه ثلاثُ كلمات قال يا أهل الإسلام إنّ أعظم الناس نصيباً فى الجنّة الشهداء وليس الله لأحد من خلقه

---

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى فى الأغانى ج ٧ ص ٣٩ — ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) وهم من الخوارج .

(٣) تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٩٥٠ — ٩٥١ وبالاختصار فى تاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤١ من طبعة ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ (فى سنة ٧٧ هـ) .

بأحمد منه للصابرين ألا ترون أنه يقول اصْبِرُوا إنّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[1] فمَنْ حمد اللهُ فِعلَه فما أعظم درجتهُ وليس الله لأحد أمْقتَ منه لأهل البَغى ألا ترون أنّ عدوّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لايرون إلّا أنّ ذلك لهم قُرْبة عند الله فهم شِرار أهل الأرض وكِلاب أهل النار أين القُصّاص ؟ قال ذلك فلم يُجِبْهُ والله أحدٌ منّا فلمّا رأى ذلك قال أين من يروى شعر عنترة ؟ قال فلا واللهِ ما ردّ عليه إنسانٌ كلمة فقال إنّا للهِ كأنّى بكم قد فررتم عن عتّاب بن ورقاء وتركتموه تسفى فى استه الريح»

أراد أنّه يئس من الظفَر إذ لم يكن أحد يشجّع قلوب الناس ويحثّهم على القتال بقَصَص الروايات عن أيّام العرب المشهورة و بإنشاد قصائد عنترة فى الحماسة . فقيسوا على ذلك قدر الشعر الجيّد من قوّاد الأعراب فى الحرب .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرّقة فى عدّة كتب لا سيّما تاريخ الطبرىّ وكتاب الأغانى وهى تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدوّ ورثاء القتلَى وحزن الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد[2] . ومن الحرىّ بالاعتبار أنّ الهجاء قليل لأنّهم لم يتعاطوه فى الغالب إلّا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربيّة كأنّه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأيهم هذا متعلّق بأصل الهجاء ومنصِبه عند قدماء العرب حسبما سنبينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العامّ فإنّ الهجاء لم يُعْقَلْ عندهم إلّا إذا رُدّ عليه جوابٌ فمن الواضح أنّ هذا الردّ مستحيل إذا كان العدوّ من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارُهم شبيهةً بما ورد منها فى الحكايات المطوّلة عن أيّام العرب فى الجاهليّة فترون شعراء فريق يرُدّون على شعراء خصمائهم بأبيات أخرى حسبما كان عادة الاعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك ما جرت من الأشعار بين زُفَر بن الحارث العامرىّ من أصحاب مُصْعَب بن الزُّبَيْر

---

(١) القرآن سورة ٨ (الأنفال) : ٤٧ .

(٢) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عندما تكلمت عن شعر الأعراب الذين كانوا فيما خارج أنحاء جزيرة العرب (ص ٩٨ — ٩٩) .

و بين جوّاس بن قَمْطَل وغيره حين وقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وهى مروية فى تاريخ الطبرى[١] وكتاب الأغانى[٢] فلولا الأخبار المتعلّقة بها لحِرْنا فى الحكْم أهى من عهد الجاهليّة أم من زمان الاسلام . قال مثلاّ زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة[٣] :

لَعَمْرِى لقَدْ أبقَتْ وَقيعَةُ راهِطٍ ... لِمَرْوانَ صَدْعًا بَيْنَنا مُتَنائِيَا

فَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمِنِ الثَرَى ... وَتَبْقَى حَزازاتُ النُفوسِ كما هِيَا

أرينِى سِلاَحِى لاَ أبالَكَ إنَّنِى ... أرَى الحَرْبَ لا تَزْدادُ إلا تمادِيَا

أتَذْهَبُ كَلْبٌ لاَ تنلْها رِماحُنا ... وَتَتْرُكُ قَتْلَى راهِطٍ هِى ماهِيَا

فلم تَرَ مِنّى نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ ... فِرارِى وَتَرْكِى صاحِبَىَّ وَراءِيَا

عَشيَّةَ أغْدُو فِى الفَرِيقَيْنِ لاَ أرَى ... مِنَ القَوْمِ إلاَّ مَنْ عَلَىَّ وَلالِيا

أيُذْهِبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إن أسأتُهُ ... بِصالِحِ أيامِى وَحُسْنِ لَيالِيَا

أيَعْدَ ابنِ عَمْرٍو وَابنِ مَعْنٍ تَتابَعَا ... وَمقْتَلِ هَمامٍ أُمَنِّى الأَمانِيَا

وكلام الشعر من هذا النوع فى الأغلب بسيط مثل قول عُوَيْج الطائىّ يمتدح كلبًا وحُمَيْد بن بَحْدَل[٤] :

لقد علم الاقوامُ وقعُ ابن بَحْدَلٍ ... وأُخرى عليهمْ إن بَقِى سيُعيدُها

يقودون أولاد الوجيه واللاحق ... من الريف شهرًا ما يَنِى مَنْ يقودُها

فهذا لهـــذا ثمّ إنّى لنافِضٌ ... على الناس أقوالاً كثيراً حدودُها

فلولا أمـيرُ المؤمنين لأصبحتْ ... قضاعة أربابًا وقيسٌ عبيـدُها

أو مثل قول سحبان وائل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قتال المسلمين

(١) كتاب تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ — ٤٨٦ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥—١٢٧ من طبعة ليدن

(٢) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٠ — ١١٣ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (فى الباب الثالث والتسعين) وراجع أيضاً التنبيه للمسعودى ص ٣٠٩ — ٣١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣—٤٨٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥—١٢٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٢ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤

(٤) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٧ .

بخُجَنْدَة سنة ٩٤ ويمدح رئيسهم قُتَيْبَة بن مُسْلِم[١] :

فسَلِ الفوارسَ فى خُجَنْـــدَةَ تحت مُرْهَفَةِ العـــوالى
هـــل كُنْتُ أجمعُهم إذا هُزِموا وأُقْدِم فى قتـــالى
أم كنتُ أضربُ هامةَ الـــعَاتِى واصبِرُ للعـــوالى
هـــذا وأنت قَرِيعُ قَيْـــسٍ كلّها ضَخْمُ النوالِ
وفضَلْتَ قيْسًا فى النَّدَى وأبوكَ فى الحِجَجِ الخوالى
ولقد تبيّنَ عَـدْلُ حُـكْـمِكَ فيهم فى كل مالِ
تمّتْ مُرُوءَتـكُمُ وَنَا غَى عِزُّكُمْ غُلْبَ الجِبالِ

لـكنّه شعر صادر من تِلقاء القلب بدون تكلُّف وتصنّع معبِّرٌ عمّا فى الصدر حقيقةً فكثيرًا ما يُعْجِبنا وإن قلّ تنميقُهُ . وممّن نسج القريض من هذا الصنف بعضُ الشعراء المُجيدين البارعين أيضاً فى سائر أنواع الشعر منهم عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحارث المعروف بأعْشَى هَمْدَان[٢] وهو شاعر فصيح كوفىّ قيل إنّه « شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم[٣] » . وكان ممّن أغزاه الحجّاج ابن يوسف بلاد الدَّيْلَم القريبـة من شطّ بحر الخَزَر الجنوبىّ فأُسر وبقى أسيراً فى أيدى الديلميّين مدّة ثمّ سار فى جيش أهل الكوفة إلى بلاد مُكْران[٤] وطال مقامهُ بها . وذكر فى قصائده ما لحقه من أسر الديلم وما شهد من الوقائع[٥] :

وأُغيرُ غاراتٍ وأشهَد مشهدًا قلْبُ الجَبانِ به يَطير ويرجُفَ
وأرى مغانمَ لو أشاء حوَيْتها فيصُدُّني عنها غِنًى وتعفُّفُ

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧ (فى سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من طبعة ليدن .
(٢) وهى قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .
(٣) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .
(٤) مكران ولاية فى جنوب بلاد الفرس على شاطىء خليج عمان .
(٥) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان فى ذيل ديوان أعشى ميمون الذى طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٣٢ بيت ٣٤ — ٣٥] .

وله قصيدة رائعة وصلت منها إلينا ٥٧ بيتاً يشكو بها ما قاساه من المشاقّ والمرض في مكران[١] ومبتدؤها :

طلبتَ الصِّبا إذ علا المَكْبِرُ   وشاب القَذالُ وما تَقْصِرُ
وبان الشَّبابُ ولذّاتُهُ   ومثلك في الجهل لا يُعْذَرُ

ثمّ يذكر فيها العواذل ويشكو لومهنّ فيقول :

كأنّيَ لم أرْتَحِلْ جَسْرةً   ولم أجْفُها بعد ما تضمُرُ
فأجْشِمُها كلَّ ديمومة   ويعرفها البلدُ المُقْفِرُ
ولم أشْهَدِ البأسَ يوم الوَغَى   عليّ المُفاضةُ والمِغْفَرُ
ولم أخْرِق الصفَّ حتّى تميل   دَرّاعة القوم والحُسَّرُ
وتحتِيَ جَرْداءُ خَيْفانةٌ   من الخيل أو سابحٌ مُجْفَرُ
أُطاعِنُ بالرمح حتّى اللّبا   نِ يجري به العَلَقُ الأحمرُ

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العَيْش ونعيمه :

وإذْ أنا في عُنفوان الشبا   بِ يُعْجِبُني اللهْوُ والسُّمَّرُ
أصيد الحِسانَ ويصطَدْنَني   وتعجبني الكاعِبُ المُعْصِرُ

وبعد الإطناب في الكلام عن تغزُّله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنّه كان من سكّان المدن يأخذ يشكو شرّ حاله في العسكر في البلاد البعيدة التي بُعِث اليها كارهاً وذلك في أبيات كثيرة .

وفي سنة ٨٣ لمّا خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج بن يوسف وحشد معه أكثر الكوفيّين كان أعشى همدان ممّن خرج معه وجعل يقول الشعر في مدح ابن الأشعث ولا يزال يحثّ أهل الكوفة بأشعاره على القتال حتّى أُسر فقُتل صَبْراً

---

(١) كتاب الأغاني ج ٥ ص١٤٩ — ١٥٠ [والديوان عدد ٢٠]

بأمر الحجّاج (١) . وله أيضاً شيء من الشعر يخرج عن هذا الصنف ويدخل فى الصنف السادس لمداره على الاختلافات الدينيّة منه الأبيات المرويّة له فى كتاب الحيوان للجاحظ (٢) يثلِب فيها أصحاب المختار من أهل الشيعة .

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبىّ المشهور بالقُطامىّ (٣) المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كمُعظَم التغلبيّين ثمّ أسلم وقال أغلب شعره فى ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيّما بين تغلب وقيس عيلان إلى أن أُسِر فى واقعة ماكسين فأُخذت إبلُهُ . فنجّاه زُفَر بن الحارث رئيس القَيْسيّين وخلّى سبيله وردّ عليه مائة ناقة فمدحه القطامىّ فى عدّة أشعار . وممّا يستحِقّ الذكر فى شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من جزم عين الفعل الثلاثىّ فى الماضى حتّى قال نَشْبَتْ وتُرْكَتْ بدَلًا من نَشِبَتْ وتَرِكَتْ (٤) ولعلّ ذلك لغة تغلب لأنّه غير نادر أيضاً فى ديوان الأخطل .

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُرْوَى لكعب الأَشْقَرىّ (٥) فى غزوات قُتَيْبة بن مسلم فى بلاد خوارزم (٦) سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التى وصف فيها وقائع الجند مع المهلّب بن أبى صُفْرة فى بلد بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد العجم (٧) — فترون أنّ هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتّصل بما سمّيْناه شعر الفتوحات فى أيّام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة فى أيّام العرب فى الجاهليّة .

٦ — أمّا الصنف السادس من شعر الدولة الأمويّة وهو شعر الفتن السياسيّة

---

(١) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب المسعودى فى الباب الخامس والتسعين ج ٥ ص ٣٥٥ — ٣٥٨ من طبعة باريس .

(٢) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٣) راجع ترجمته فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١١٨ — ١٣١ وديوانه مطبوع بليدن سنة ١٩٠٢ بعناية J. Barth .

(٤) انظر كامل المبرد ص ٥٣٧ من طبعة ليبسك .

(٥) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغانى فى ج ١٣ ص ٥٦ — ٦٤ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٦٣ — ٦٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠١٧ .

(٧) كتاب الأغانى ج ٣١ ص ٥٧ .

والدينيّة فهو من وجهٍ ليس ببعيد عن الصنف السابق بيانه لأنّ قسماً غير يسير منه يتعلّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . تحيّرتُ مدّةً فى أىّ شىء أوفقُ أجمعُ الصنفين أم التفريق بينهما وفضلت التفريق اعتباراً لما آتٍ شرحه . إنّ الاتّصال بالغزوات والحروب ضرورىّ للشعر من النوع المتقدّم وليس ضروريّاً للشعر من الصنف السادس . ثمّ الحروب التى يتعلّق بها الصنف السابق ضربان بالأخصّ : أحدهما الجهاد فى حدود المملكة الإسلاميّة أو خارجها والآخر غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض لأسباب خاصّة لها لا يُمسّ أغلبها الأحزاب السياسيّة الحقيقيّة ولا المذاهب الدينيّة اللهمّ الاّ عَرَضاً . أمّا الصنف السادس من الشعر إذا ارتبط قوله بالحروب كانت هذه الحروب من جنس غيرِ الجنسين السابقين لأنّها إمّا حروبٌ دائرة بين حزبين سياسيّين أو حروب من النوع المسمّى عند الفقهاء بحروب المصالح لا سيّما فى قتال المرتدّين وأهل البغى[1] . ثم إنّ الصنف السادس يحتوى أيضاً على أشعار مدارها على مذاهب سياسيّة ودينيّة من دون تعلّق بأىّ جنس كان من الحروب .

قلت مذاهب سياسية ودينية لتكون العبارة عن فكرى أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكنّ حقيقة الأمر فى القرن الأوّل والثانى بعد خلافة عثمان ابن عفّان أنّ كلّ حزب سياسىّ كان عند المسلمين مذهباً دينيّاً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين فى أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلاميّة . وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلاميّة بنظام الأمم الإفرنجيّة سواء فى الزمان القديم أم فى القرون الوسطى أم فى العصر الجديد . عند الأمم الإفرنجيّة لا يتأسّس النظام الاجتماعىّ السياسىّ على العقائد و إن كانت العقائد تؤثّر فيه أحياناً كما تؤثّر فى الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة المُلْك بأمور الدين عندهم كعلاقتهِ بأخلاق الأمّة وتمدّنها أعنى على وجه طبيعىّ محض إذ لا يقوم مُلْكٌ من غير وجود أمّة ولا تُعقَل أمّةٌ ليست لها آراء

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى فى الباب الخامس ص ٤٤ — ٥٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٨٩ — ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

وأهواء وأميال وحاجات خاصّة . فان كانت مثلاً جملة من البابوات فى الزمان السالف شملوا سلطة دينيّة وسلطة دنيويّة فى أيديهم كان هذا الجمع عَرَضياً لا جوهرياً لأنهم كانوا أيمّة جميع النصارى الكاثوليك فى أمور العقائد ولم يكونوا ملوكاً إلّا على سكان مملكتهم غير الواسعة ثمّ ما كان هذا المُلْك ممّا يستوجبه الدين النصرانىّ . وكذلك كانت القياصرة فى القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين فى العصر الجديد يقولون إنّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنّهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنّهِ وأنّ سلطانهم حقٌّ لم يتوصّلوا إليه بالاغتصاب والتعدّى فلا تجوز للأمّة المَعصيةُ عليهم . — وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينيّة وبين أصول التشريع إلّا عرَضاً فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإنّما لهم أحكام سلطانيّة وقوانين أُثْبِتَتْ قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزّلة أو سنن أنبياء . — فواضح أنّ مسألة اختيار الدولة وهيئةِ الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجرِّدة عن العقائد والأحكام الدينية . وكذلك ما اشتيق إليه فى القرون الوسطى من جمع كلّ النصارى فى مملكة واحدة يتولّى أمرَها قيصرٌ لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أمّا الإسلام القديم فلا فرقٌ بائن فيه بين تولّى أمور الدنيا وتولّى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردىّ(١) إن الإمامة أصل يستقرّ عليه قواعد الملّة وتنتظم به مصالح الأمّة ثمّ(٢) إنّها موضوعة لخلافة النبوّة فى حِراسة الدين وسياسة الدنيا . فمنصِب الخليفة أى الإمام دنيوىّ من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو دينىّ من حيث كونه ولايةَ الله على الأرض لحفظ الإسلامِ البِدَعَ والفسادَ ولإبْقاء وحدةِ الأمّة الاسلاميّة على مقتضى الشريعة . وبما أنّ الأحزاب السياسية فى عهد الأمويين

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .
(٢) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

إنّما تشاجرت فيمن تكون الإمامة من حقّهِ فكانت هذه المسألة فقط سببَ الحروب سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفِتَن أهل البدع ظاهر أننا لا نتمكّن من التفريق فى ما بين الأشعار فى حروب الأحزاب السياسية والأشعار فى الاختلافات الدينية .

إنّ الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية أم لما يستفيده منه من أراد البحث العميق الدقيق المُنْصِف عن تاريخ المشرق الإسلامىّ فى ذلك العصر . لا يخفى عليكم أنّ القدماء الذين صنّفوا الكتب فى الأخبار والسِيَر قلّما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعيــة والأغراض العاملة فى الحوادث وإنّما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلّبات والوقائع والحروب والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية مثلِ آراء طبقات الناس وأهوائهم وأميالهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما أُلف إلى الآن [يعنى إلى سنة ١٩١١] بالعربية من تواريخ بلاد الإسلام أقربَ إلى الأخبار البرقية المنشورة فى الجرائد منها إلى ما يُعتَبَر الآن غايةَ التاريخ الحقيقىّ الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثمّ من آفات الكتب العربيّة فى التاريخ أنها فى الغالب لم تستقِ إلاّ من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائق على غيره فبعد الاطّلاع عليها كثيراً ما نُضْحِى كحَكَم سمع أحد الخصمَيْن فقط فلا يتمكّن من الإنصاف فى الحُكْم . وغير مرّة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارُك هذا الخلل . فإنها قامت فى عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن فى المجالس العموميّة وهى فى الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط بل كانت صوتَ جميع الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنّ العرب فى ذلك العصر الذى لم يُعْرَف فيه فنّ الطباعة بعدُ اتخذوا الشعر وسيلةً لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنّ الشعر أسْيَر على ألسنة الناس وأوقع فى قلوبهم من الكلام المنثور العادىّ . فالراوى المرتحل من بلد إلى بلد يُنْشِد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المُشيعة آراء حزبها فى الجمهور . فكفى ذلك دلالاً على أهمّيّة تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التامّ على حياة

العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التى لا غِنى من حقّ معرفتها لمن عزم التنقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشكّ واللبْس فى تقدير عللها .

لمّا قُتِلَ عثمان بن عفّان يوم الأضحية من سنة ٣٥/٦٥٦ اضطربت الناس اضطرابًا شديدًا فذهب قوم غير يسير منهم إلى أنّ علىّ بن أبى طالب قد شارك القاتل فأنكروا بَيْعته ومنهم أعنى من العثمانية حسّان بن ثابت الأنصارىّ شاعر النبىّ سابقًا الذى رثا عثمان فقال فى مرثيته الأبيات الشهيرة[1] :

ضَحَّوْا بأَشْمطَ عُنْوانُ السُّجُودِ بِهِ — يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وقُرْآنا
بَلْ لَيْتَ شِعْرى وَلَيْتَ الطَّيْرُ يُخْبِرُنى — ما كانَ شأْنُ عَلِيّ وَابْنِ عَفّانا
لَتَسْمَعُنَّ وَشيكاً فى دِيارِكُمُ — اللهُ أَكْبَرُ يا ثاراتِ عُثْمانا
وَقد رَضيتُ بِأَهْلِ الشّامِ زافِرَةً — وَبالأَميرِ وَبالإِخْوانِ إِخْوانا
إِنّى لَمِنْهُمْ وَإِنْ غابُوا وَإِنْ شَهِدوا — حَتّى المَماتِ وما سُمّيتُ حَسّانا
صَبْراً فِدًى لَكُمُ أُمّى وَما وَلَدَتْ — قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فى المَكْرُوهِ أَحْيانا
شُدّوا السُّيوفَ بِثِنْى فى مَناطِقِكُمْ — حَتّى يَحِينَ بِها فى المَوْتِ مَنْ حانا
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْماً بِمَغْبَطَةٍ — خَليفَةَ اللهِ فيكُمْ كالَّذى كانا

فكانت هذه الأبيات كأنّها تقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصواتُ من طلب ثأر عثمان وجاوبتها الأصداء لاسيّما فى الأنحاء الشاميّة فاشتغلت نار الحرب وتصلصلت الدروعُ من وقع البِيض وتمّت العداوة بين أهل العراق وأهل الشام كما قال كعب

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن — أما البيت الأول فهو ناقص فى طبعات الديوان ولكنه موجود فى كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفى بيان الجاحظ ج ١ ص ٩٠ سطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفى كتاب التنبيه للمسعودى ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفى خزانة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفى تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية فى NŒLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum* ص ٧٧ . — أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة الفتح) : ٢٩ .

ابن جُعَيْل التَّغْلَبيُّ شاعر الشاميّين [١] :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ مُلْكَ العِراقِ ... وأَهْلَ العِراقِ لَهُمْ كارِهينا

وكُلاًّ لِصاحِبِهِ مُبْغِضاً ... يَرَى كُلَّ ما كانَ مِنْ ذاكَ دِينا

وكلٌّ يُسَرُّ بما عِنْدَه ... يَرَى غَثَّ ما فى يَدَيْه سَمِينا

إذا ما رَمَوْنا رَمَيْناهُمُ ... ودِنّاهُمُ مِثْلَ ما يُقْرِضُونا

فَقالُوا عَلِيٌّ إمَامٌ لَنا ... فَقُلْنا رَضِينا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينا

وقالوا نَرَى أَنْ تَدِينوا لَنا ... فَقُلْنا لَهُمْ لا نَرَى أَنْ نَدِينا

ومن دُونِ ذٰلِكَ خَرْطُ القَتادِ ... وضَرْبٌ وطَعْنٌ يُقِرُّ العُيونا

وما فى عَلِيٍّ لِمُسْتَحْدِثٍ ... مَقالٌ سِوى عِصْمَةِ المُحْدِثِينا

وإيثارِهِ لِأَهالى الذُّنوبِ ... ورَفْعِ القِصاصِ عَنِ القاتِلِينا

إذَا سِيلَ عَنْهُ زَوَى وَجْهَهُ ... وعَمَّى الجوابَ على السائِلِينا

فَلَيْسَ بِراضٍ ولا ساخِطٍ ... ولا فى النُّهاةِ ولا الآمِرِينا

ولا هُوَ ساءَ ولا سَرَّهُ ... ولا بُدَّ مِنْ بَعْدِ ذا أَنْ يَكُونا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيّام صِفِّين منقسمين إلى فريقَيْن كبيرين متحاربين : العثمانيّة وشيعة علىّ . و بينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين و يتجنّبون التحزُّب وهم المسمَّوْن بالمعتزلة [٢] منهم أبو موسى الأشعرىّ وسعد بن أبى وقّاص ومُغِيرة بن شُعْبة وغيرهم . ثمّ رضى علىّ باقتراح التحكيم فى خلافته فى صفر سنة ٣٧هـ

---

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ١٧٠ — ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨ و NŒLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, p. 79-80. وأجابه النجاشى (راجع كتاب الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Nœldeke ص : ٨ وانظر أيضاً F.SCHULTHESS, *Ueber den Dichter al-Nagâšî und einige Zeitgenossen*, *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft*, 54, 1900, p. 64).

(٢) [أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين فى تاريخ علم التوحيد الإسلامى وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع C.A. NALLINO, *Roccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, 1940, p. 146-169.]

(أغسطس ٦٥٧ م) كان سبب فتنة فى شيعته لأنّ قومًا من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال فى دين الله أى تفويض حلّ مسألة الإمامة إلى رجلَيْن لقولهم إنّه لا حُكْمَ إلّا لله فخرجوا عن جيشه إلى حَرُوراء[1] فسمّوا الحرورية أو الخوارج[2] — وفى سنة ٣٨/٦٥٨ التقى الحَكَمانِ وهما أبو موسى الأشعرىّ وعمرو بن العاصى بأَذْرُح فى أرض البَلقاء فنتيجة الأمر المرجوِّ منه توافقُ النفوس واطمئنانُ القلوب إنما خَلعَ علىّ ومعاوية معًا. قد دهِش كثير من أهل العراق والحجاز أىَّ دَهَش حين سمعوا خبر ذلك الحُكْم الذى أسرع علىٌّ فى إنكاره فلشدّة استغرابهم وبُغْضهم لمعاوية أُنْشِئَت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التى دبّرها وارتكبها عمرو بن العاصى. أمّا الحقيقة التى لم يتوصّل إلى كشفها إلّا من رجع إلى المصادر الأصليّة القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإنّ عمرو بن العاصى ما أثبت معاوية ألبتّة ولكن بما عُهد له من الدّهاء والمهارة فى أمور السياسة قد بلغ مرامَهُ ومرامَ معاوية حين حمل أبا موسى الأشعرىّ على الرضى بالتفحُّص عن حقوق كلٍّ من الخصمَيْن كأنّهما متساويا القدر وكأنّ خليفةً بايَعَهُ جملة وافرة من المؤمنين لا يُفَضَّل على من كان واليًا على الشام فقط. فنتيجة الحكم أى خَلْع كِلا الخصمين إنّما كان أنّ عليًّا عُزِل عن الخلافة فلم تَبْقَ له إلّا ولاية العراق أمّا معاوية فخُلِعَ ممّا لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلاً بل زاد حِظْوةً عند أصحابه إذ ساواه

(١) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة.

(٢) هذا أصل الاسم فما سموا به — كما يقال — لأنهم خرجوا على علىّ. فراجع الذى علقه بسورة النساء : ١٠١

R. BRUNNOW, *Die Charidschiten unter den ersten Omayyaden*, Leiden 1884, p. 28,

J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, p. 4 n. 2., (F. GABRIELI, *Sulle origini del movimento Khârigita* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3,,pp. 110-177); M. GUIDI, *Sui Khârigiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, p. 1-14).

الحُكم بمن كان مدّة أعلى منه بكثير[١] .

فبالجملة كان أمر الحكمين سبب أكثر الاختلافات التى حدثت فى الأمة الإسلاميّة بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثانى . خرجت الخوارج عن شيعة علىّ لمجرّد قبوله لاقتراح التحكيم و بعد خروجهم بأربع وعشرين سنةً اختلفوا فى جواز السكنى فى غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم على الدوام فافترقوا وصاروا على أربعة أضرب : الأزارقة والصُفْريّة والبَيْهَسية والإباضيّة[٢] . — أمّا ختام أمر الحكمين ففرّق بين المسلمين تفريقاً عظيماً لم يزل إلى الآن فإنّ العلويّين قالوا بتوارث الإمامة فى أهل البيت فأنكر الآخرون ذلك وقالوا بانعقاد الإمامة باختيار أهل الحلّ والعقد أو بعهدِ مَنْ قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأوّل لزيادة محاربة الموالى من الفرس لشيعة علىّ فهم أدخلوا فى مذهبهم اعتقاداتٍ غريبةً و بدعًا من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . — وحدث أيضاً بعد أمر الحكمين حزب المُرْجِئة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويّين وشيعة بنى أمية كمنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدّم (ص٢٠٦) بين العثمانيين وأصحاب علىّ بن أبى طالب . — ومن عواقب الحكم أيضاً حزب الزُبَيْريّين لاسيّما فى الحجاز والعراق فإنه من المشهور أنّ عبد الله بن الزُبَير ادّعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١/٦٨٠ وتولّى الأمر بمكّة إلى سنة ٧٢/٦٩٢ . — ثمّ فى أوائل القرن الثانى ابتدأت الدعوة العبّاسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدّعون الخلافة لبنى هاشم لقرابتهم من علىّ بن أبى طالب . — فلكلّ هذه الأفرقاء شعراء كانوا يدافعون عن أغراضهم وعمّا ادّعى الفريقُ من الحقوق .

كثُر ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم فى كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان

---

(١) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia* I, p. 125-140.

(٢) هذا تفرقهم القديم فى سنة ٦١ هـ تقريبا . انظر الكامل فى اللغة للمبرد ص ٦٠٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٧ .

والتبيين للجاحظ[١] وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه[٢] بل أفرد المبرّد لأخبار الخوارج قسماً غير صغير من كتابه المسمّى بالكامل فى اللغة والأدب[٣] . وشعرهم شعر خِلْناه فى الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغةً وهو فصيح العبارة دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحُكْم فيهم بناء على شعرهم لقلنا إنّهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخيّة القديمة وجدنا جمّاً غفيرًا من الأخبار عن تُقاهم ونُسْكِهم وشدّة عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهارًا وغير ذلك ممّا يخالف أميال الأعراب وشمائرهم . فما الحقيقة فى تناقض هذين الأمرين ؟

لا شكّ أنّ الذين رأسوا خروج الحروريّين عن جيش علىّ بن أبى طالب لم يكونوا أعرابًا بل كانوا قُرّاء من أهل الحضر منهم مِسْعَر بن فَدَكِىّ التميمىّ وزيد ابن حُصَيْن الطائىّ وذلك لأنّهم رأوا التحكيم إفساداً للدين . هذا الثابت فى جميع الأخبار . فترون أنّ أصل الخروج إنما كان مسألة نظريّة لا يمكن أن تُهِمّ ناسًا مثل الأعراب . ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم فى أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلامىّ اتّبعوا القرّاء لسببين أحدهما مجاورتهم لهم من حيث السّكنى والآخر موافقتهم لهم فى مسألة الخلافة . لا يخفى عليكم أنّ القطب الذى يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الامامة بالإختيار غير المحدود لأنّ كلّ مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلَّد

(١) كتاب البيان والتبيين ج٢ ص١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) الكامل ص ٥٢٧ — ٦٠٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٩ — ٢٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ [ونقل الأستاذ Rescher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالعنوان: *Die Kharidschitenkapitel aus dem Kâmil*, Stuttgart 1922] .

[واعتنى الأستاذ Gabrieli بجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا فى عصر بنى أمية : F. GABRIELI, *La poesia khārigita nel secolo degli Umayyadi* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1943, p. 331-372)] .

الخلافة وحقّ الاشتراك فى الاختيار مُطلَق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختصّ بأهلَ الحلّ والعقد . فعلى هذا الرأى كان مَنْصِب الخليفة فى الأمّة الإسلاميّة كمنزلة السيّد فى القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حبّ الاستقلال والتمسُّك بعاداتهم القديمة والكراهة لكلّ نظام مخالفٍ نظامهم الخاصّ . فمن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهرىّ المومأ إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قَطَرِىّ بن الفُجَاءة رئيس الأزارقة الذى خرج على ولاة العراق فبقى ٢٠ سنة يقاتل و يسلَّم عليه بالخلافة حتى قُتل سنة ٧٧[1] ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المرويّة فى حماسة أبى تمّام[2] :

أقول لها وقد طارت شَعَاعًا	من الأبطال ويحكِ لَنْ تُراعِى
فإنّكِ لو سألتِ بَقاء يومٍ	على الأجَل الذى لكِ لَمْ تُطاعِى
فصَبْرًا فى مجَالِ الموْتِ صبْرًا	فما نَيْلُ الخُلُودِ بمستطاعِ
ولا ثوْبُ البقاء بثوب عِزٍّ	فيُطْوَى عن أخى الخَنَعِ اليَرَاعِ
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ	فداعيهِ لأهل الأرض داعى
ومَنْ لا يُعْتَبَطْ يَسْأَمْ ويَهْرَمْ	وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انْقطاعِ
وما للمرء خيْرٌ فى حياة	إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المَتاعِ

قال ابن خلكان[3] : « وهى تشجّع أجبن خلق الله وما أعرِف فى هذا الباب مثلها وما صدرت الّا عن نفسٍ أبيّة وشهامة عربيّة » . — ومن شعرائهم المقدّمين

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية) أنه قتل فى سنة ٧٨ ﻫ .

(٢) حماسة أبى تمام ص ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية وشرح شواهد الكبرى للعينى ج ٣ ص ٥١ — ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزانة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان فى الموضع المذكور .

عِمْران بن حِطّان السّدوسىّ[١] كان من علماء الصُّفْرية وخطبائهم فحين أسنّ وضعف عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو من الذين مدحوا ابن مُلْجَم قاتل علىّ بن أبى طالب وقوله فى ذلك مشهور[٢] . وأطرده الحجاج بن يوسف ولجّ فى طلبه فنجا منه هاربًا متنقلاً فى القبائل حتى مات فى قبيلة الأزد ببلاد عمان . وكان ممّن عاصر الفرزدق ولكن شتّان ما بينهما فإنّ الفرزدق لم يزل يمدح الأكابر والرؤساء طَمَعًا فى هداياهم وعمران بن حِطان برىء من مثل ذلك وهو القائل[٣] (من بحر الخفيف) :

أيّها المادحُ العِبادَ ليُعْطَى ... إنّ لله ما بأيدى العِبادِ

فاسألِ اللهَ ما طلبتَ إليهمْ ... وارْجُ فضلَ المقسِّم العوّادِ

لا تقلْ فى الجواد ما ليس فيه ... وتُسمِّى البخيلَ باسمِ الجوّادِ

ومن شعرائهم مُعاذ بن جُوَيْن بن حُصَيْن الخارجىّ سجنه المُغيرة بن شُعْبة والى الكوفة (٤١/٦٦١ — ٥٠/٦٧٠) فقال فى الحَبْس يحرّض أصحابه على الخروج[٤] :

ألاَ أيّها الشارونَ قَدْ حان لِامْرِئٍ ... شَرَى نَفْسَهُ لِلّهِ أنْ يَترَحّلا

أَقَمْتُمْ بِدَارِ الخاطِئِينَ جَهالَةً ... وَكُلُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ يُصادُ لِيُقْتَلا

فشُدُّوا عَلَى القَوْمِ العُداةِ فإنّها ... أقامَتُكُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيًا مُضَلَّلا

---

(١) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢١ — ١٢٤ من مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٥٢ — ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢ وج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ وج ٣ ص ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) الأبيات مروية فى الكامل للمبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٣١٧ — ١٣٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعه لندن ١٨٤٦ .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٥٦ وج ٧ ص ٦ وقيل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد الحميرى فى رواية أخرى .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن .

أَلاَ فَاقْصِدُوا يا قَوْمُ لِلغايَةِ الَّتى إذا ذُكِرَتْ كانَتْ أَبَرَّ وَأَعْدَلا
فيا لَيْتَنِي فيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سابِحٍ شَدِيدِ القُصَيْرَى دارِعًا غيرَ أَعْزَلاَ
ويا لَيْتَنى فيكُمْ أُعادى عَدُوَّكُمْ فَيَسْقِينى كَأْسَ المَنِيَّةِ أَوَّلاَ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُخافوا وَتُطْرَدُوا وَلَمَّا أُجَرِّدْ فى المُحِلِّينَ مُنْصُلا
ولمّا يُفَرِّقْ جَمْعَهُمْ كُلُّ ماجِدٍ إذا قُلْتَ قَدْ وَلَّى وأَدْبَرَ أَقْبَلا
مُشِيحًا بِنَصْلِ السَّيْفِ فى حَمَسِ الوَغا يَرَى الصَّبْرَ فى بَعْضِ المَواطِنِ أَمْثَلاَ
وعَزَّ عَلَيَّ أن تُضاموا وَتُنْقَصوا وَأُصْبِحَ ذا بَثٍّ أَسِيرًا مُكَبَّلاَ
ولو أَنَّنى فيكُمْ وَقَدْ قَصَدوا لَكُمْ أَثَرْتُ إذًا بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ قَسْطَلاَ
فيا رُبَّ جَمْعٍ قَدْ فَلَلْتُ وَغارَةٍ شَهِدتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلا

ومنهم الطِرِمّاح بن حَكِيم المشهور أيضاً لبراعته فى الخِطابة[1] كان على قول صاحب الأغانى[2] « من فحول الشعراء الإسلاميّين وفصحائهم ومنشؤه بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشُّراة الأزارقة » . وروى فى الأغانى أيضاً[3] : « كان الكُمَيْت بن زيد صديقاً للطِرِمّاح لا يكادان يفترقان فى حال من أحوالهما فقيل للكميت : لا شىء أعجب من صفاء ما بينك و بين الطرمّاح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامىّ قحطانىّ وأنت كوفىّ نزارىّ شيعىّ فكيف اتّفقتما مع تباين المذهب وشدّة العصبية ؟ فقال اتّفقنا على بُغْض العامّة » . وقبل انضمامه إلى الخوارج قد مدح أمراء الأمويين

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ و ج ١٥ ص ١١٣ وراجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص٢٢ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ١ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة ١٣٥١] .

وهجا قبيلة تميم هجاء مُفرطاً فى الشتم والاحتقار رواه ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء[١] . ومن شعره بعد تمذهبه بالخوارج[٢] :

فيا ربِّ لا تجعلْ وَفاتى إنْ دنَتْ	على شَرْجَعٍ يُعْلَى بدُكْنِ المَطارفِ
ولكنْ أحِنْ يَوْمى شهيدًا وعُصْبةً	يُصابون فى فَجٍّ من الأرض خائفِ
عصائبُ من شتَّى يُؤلِّفُ بينهمْ	هُدَى اللهِ نزَّالون عند المَواقفِ
إذا فارَقوا دنياهُمُ فارَقوا الأذَى	وصاروا إلى موعودِ ما فى المَصاحفِ
فأُقْتَلَ قعْصًا ثمّ يُرْمَى بأعْظُمِى	كضِغْثِ الخَلا بين الرياح العواصفِ
ويُصْبِحَ لَحْمى بَطْنَ طيرٍ مَقيلُهُ	دُوَيْنَ السماء فى نُسورٍ عوائفِ

يذكّرنا البيتان الآخران توحُّش بعض أشعار الجاهلية لا سيّما أشعار الشَّنْفرَى وتأبّط شرًّا إلاّ أنّ سبب التوحُّش عند هذين الشاعرين يختلف عن سببه عند الطرمّاح فإنّ همجية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقُطّاع الطريق أمّا ما ورد منها فى شعر الطرمّاح فصادر عن مذهب الأزارقة الذين رأوْا الموت فى الحرب وقتلَ مَنْ لم يكن من الخوارج أهونَ الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض فرقتهم مُخْطِرين أنفسهم بجراءة عجيبة لا نظير لها كأنّهم مشتقون إلى الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أى أصحاب الرأى بإباحة قتل جميع الناس من المخالفين فى أىّ وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال والنساء . فلذلك إنّ معانى مثل الواردة فى أبيات الطرمّاح ليست نادرة فى أشعار الخوارج فقال قطَرىُّ بن الفُجاءة[٣] :

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٢ و٣٧٣ من طبعة ليدن . وتروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر فى الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٣٨ من طبعة باريس .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٣ — ٣٧٤ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٦٠ [وديوان الطرماح عدد ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧] .

(٣) حماسة أبى تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .

ألا أيها الباغى البِرازَ تقرّبَنْ أُساقِكَ بالموت الذعافَ المُقشَّبا
فما فى تَساقِى الموتِ فى الحرب سُبَّةٌ على شاربيه فاسْقِنى منه وأشْرَبا

وقال عمران بن حِطّان لمّا قُتِل أبو بِلال مِرْداس بن أُدَيّة(١) :

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغضًا وحُبًّا للخروج أبو بِلالِ
أحاذر أنْ أموتَ على فِراشى وأرجو الموتَ تحتَ ذُرَا العَوالى
ولو أنّى علِمت بأنّ حتْفى كحَتْف أبى بِلالٍ لم أبالِ
فمَن يكُ همُّهُ الدنيا فإنّى لها واللهِ ربِّ البيت قالِ

هذا أمر الخوارج . أمّا الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفون من جفاء الخوارج فشعرهم بعيد عن توحُّش شعر الأزارقة كثيرُ المدار على مدح أهل البيت و بيان الاختلافات الدينيّة . ومن شعرائهم كُثَيِّر بن عبد الرحمن الخُزاعى المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثيّر عَزّة(٢) لتشببه بعزّة الضَّمْريّة فى شعره و إن قيل إنّه مُدّعٍ غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل فى الصنف الذى سمّيْناه بالشعر الغرامىّ عند أهل البادية فعُدَّ كثير لذلك من العُشّاق المشهورين . لكنّه لاتّصاله بمذهب الكَيْسانيّة من الشيعة و إظهار هذا المذهب فى أشعاره غير الغرامية يستحقّ أن يُجْعَل فى شعراء الصنف السادس الذى نحن فى بيانه لا سيا إذ كان ما أبداه فى أبياته من آرائه الغريبة خطيرَ الشأن لمن يفحَص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثّمينة فى الملل والنِّحَل مثل ابن حَزْم والشَّهْرَسْتانى لم يميّزوا فى بيانهم القديمَ والحديث من اعتقادات

(١) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣—١٣٢٤ .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ٢٦ — ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن او ٥١٩ من الطبعات المصرية [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢—١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pérès فى الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ — ١٩٣٠] .

كلّ فرقة فربما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكوّن أو لم يُدْخَل فيها إلاّ بمرور الزمان فإذا أردنا التوصّل إلى كشف الأوائل الحقيقية لا بدّ لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التى برتبة نصوص صحيحة موثوقٍ بها .

من المشهور أنّ ركن مذاهب أهل الشيعة توارُث الإمامة فى أعقاب علىّ بن أبى طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبدًا لنفس مخالفته لنظامهم القديم الذى لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أنّ سيّد القبيلة لا ينال منصبه إلاّ باختيار رجال القبيلة إيّاه فلا تتوارث السيادةُ فإن خلَف ابنٌ أباه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضًا لا لحقّ ميراث . أمّا الأمم المجاورة للعرب فى أيّام غرّة الإسلام لا سيما الفرس فمن زمان طويل أَلِفت نظامًا سياسيًّا أساسه توارث المُلْك فى عائلة فلم يكونوا يتصوّرون إمكان مُلْك عظيم متين اختارت العامّة رأسَهُ . فمالت الفرس طبعًا إلى رأى أهل الشيعة فى الإمامة . وزيدوا على ذلك سببًا آخر قوميًّا أعنى أنّ العجم بعد موت علىّ بن أبى طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لبنى أمية كمثل قيامٍ على سُلْطة العرب فانضموا إليها أفواجًا لبُغضهم السرّىّ للمتغلّبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيّرت شيئًا فشيئًا مسألةُ الإمامة عند أهل الشيعة عمّا كانت فى وقت علىّ أمير المؤمنين . قد جاء فى القرآن أنّ محمّدًا خاتَم النبيين فيدلّ هذا القول ظاهرًا أن الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوّة فيما سلف من الزمان . ولـكن خالف هذا آراء كثيرة من أمم الشرق واعتقاداتِها القديمة فلم يستصوِبوا فى قلوبهم انقطاعَ النبوّةِ وعدمَ بقائها فى رجل من الرجال لأنّ النبوّة عندهم تمثيل قدرة الله على الأرض وعنايتهِ بأمور الناس فلو لم تكن النبوّة فى أحد من الأحياء لمُنِعَتْ عندهم الدنيا العنايةَ الإلهية . فحملهم هذا الظنّ بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها فى أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حيًّا موجودًا فى وقت سالفه حسبما كان مثلاً يَشُوع موجوداً فى أيام موسى أو علىٌّ فى أيام محمّد . غير أنّهم تركوا طبعًا

لفظ النبيّ لتسمية أعقاب رسول الله والتجؤوا إلى لفظ الوصيّ أو المهديّ أو الإمام[١] .
فإلى بقاء رسالة الله فى أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دُعاة أبى مُسْلِم بخراسان فى مخاطبته للنُّقَبَاء بِمَرو سنة ١٢٩[٢] : « قال أفتشكون أنّ الله تعالى نزّل عليه [أى على النبيّ] كتابه فأتاه جبريل عليه السلام الروحَ الأمين أحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنّ فيه سُنَنَهُ وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة ؟ قالوا لا . قال أفتشكّون أن الله عزّ وجلّ قبضه إليه بعد ما أدّى ما عليه من رسالة ربّه ؟ قالوا لا . قال أفتظنّون أنّ ذلك العلم الذى أُنْزِل عليه رُفع معه أو خلّفه ؟ قالوا بل خلّفه . قال أفتظنّونه خلّفه عند غير عِتْرته وأهل بيته الأقرب فالأقرب ؟ قالوا لا . قال فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له محبّين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه ؟ قالوا اللهمّ لا وكيف يكون ذلك ؟ قال لستُ أقول لكم فعلتم ولكنّ الشيطان ربما نزغ النَّزْغة فيما يكون وفيما لا يكون . قال وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عِتْرة النبيّ صلى الله عليه ؟ قالوا لا . قال أفتشكّون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قال لا » .

يتّضح من هذا النصّ المهمّ أن أهل الشيعة أو كثيراً منهم فى أوائل القرن الثانى قالوا ببقاء رسالة الله فى عِتْرة النبيّ أى أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب إلى الأقرب . وفى القرن الأوّل وما يليه من الثانى لتداول الزَّعْم عندهم أن الساعة قريبة ختموا سلسلة أيمّتهم بثالث أبناء علىّ وهو محمّد بن الحنفية[٣] فقالوا إنه ما مات

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionparteien* p. 92

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٦١ فى سنة ١٢٩ .

(٣) توفى فى أول من محرم سنة ٨١ (وقيل فى سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣) بالمدينة انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبعات المصرية وقال ابن سعد فى الجزء الخامس من طبقاته ص ٨٥ — ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات فى محرم ٨١ وهو ابن ٦٥ سنة قمرية .

ولا فارقَ الدنيا بل إنه يغيب مدّة بجبل رَضْوَى على مسيرة يوم من يَنْبُع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما مُلئَتْ شرًّا وجَوْرًا . فإلى هذا المعتقد أشار كُثَيِّر[١] بقوله المشهور :

ألَا إنّ الأئمة من قريش ... وُلاةَ الحقّ أربعةٌ سَوَاء

عليٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ ... هم الأسباط ليس بهم خَفاء

فسِبْطٌ سبطُ إيمانٍ وبِرٍّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاء

وسبط لا يذوق الموتَ حتى ... يقودَ الجيشَ يقدُمُهُ اللواء

تَغَيَّبَ لا يُرَى فيهمْ زمانًا ... برَضْوَى عنده عَسَلٌ ومَاء

وهذا أيضًا معتقد السيّد الحِمْيَرِيّ كما يلوح من أبياته المروية فى كتاب الأغانى[٢] التى قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنّه) بستّين سنة . — أما فرقة أخرى من الكَيْسانية فقالوا بانتقال محمّد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأسرار العلوم منه إلى ابنه أبى هاشم وهذا القول مهمّ جدًّا لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسّست على مذهب القائلين إن أبا هاشم المتوفى فى أيام سليمان بن عبد الملك ($\frac{٩٦}{٧١٥}$ — $\frac{٩٩}{٧١٧}$) أوصى إلى محمّد بن علىّ بن عبد الله بن عباس وأوصى محمّدٌ إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس عبد الله

---

(١) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ — ١١) ومروج الذهب للمسعودى فى الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ — ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر فى الطبعات الشرقية) [وديوان كثير عدد ١٥٠ بيت ٣ و ٤ و٧ و١٠ و١١ (ج ٢ ص ١٨٦ — ١٨٨)] ويروى البيتان الأخيران فى وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبعات المصرية .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٤ وج ٨ ص ٣٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ فى الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

السَّفَّاح . ولولا ذَيَعَان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصّل السفّاح إلى تأسيس الدولة العبّاسية .

ومن الحرىّ بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة فى القرن الأول والثانى بالرَّجْعة فإنّهم جعلوه تأييدًا لآرائهم فى توارث الإمامة فى أهل البيت وعزّها . فزعموا أنّ الرسالة أى النبوّة وهى عندهم روح الله نُزّلت فى النبىّ وصارت روحَهُ فلمّا مات تحوّلت روحهُ أى الرسالةُ أو الامامةُ إلى علىّ بن أبى طالب ووقتَ موت علىّ تحوّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلمّ جرًّا . وممّن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كُثَيِّر عزّة[1] الشاعر المذكور سابقًا فيروى أنّه نظر مرّة إلى بنى الحسن ابن الحسن بن علىّ وهم صغار فقال : « بأبى أنتم هؤلاء أنبياء صغار » .[2] . واحتجّ فى اعتقاد الرجعة بالآية[3] : « ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »[4] . فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمّة وهى : ١ أنّ الإمامة أو الخِلافة ليست فى الحقيقة إلّا نبوّة . ٢ أنّ الإمام أى الخليفة صاحب صفات الأنبياء ٣ أنّ الإمامة أى الخلافة لا تنتقل إلّا من ميّت إلى حىّ فانقطاعها أو عَزْل الإمام مستحيل . ٤ أنّ الأرض لا تخلو عن إمام أبدًا وإن كان هذا الإمام مستورًا غائبًا عن عيون الناس . ٥ أنّ وجود أمامين فى آن واحد كما زعم بعض الفِرَق محال . ٦ أن الإمامة أى الخلافة لا تُقلَّد باختيار الناس سواء كانوا جماعة المسلمين أو أهل الحلّ أو العقد . — فيتّضح أيضًا من جميع ذلك ما لَمَحْتُ إليه سابقًا من عدم فرق حقيقىّ بين الاختلافات الدينيّة والأحزاب السياسيّة عند المسلمين أثناء القرون الأولى للهجرة وأنّ التاريخ

(١) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٤ .
(٣) كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٣ .
(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانفطار) : ٧ — ٨ . واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨ (القصص) : ٨٥ .

السياسيّ لا يُعْقَل من دون الفحص عن المذاهب والفِرَق الإسلاميّة . ثمّ يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفِرَق من الشأن العالى فى أحوال السياسة .

ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانيّة وأنكروا وفاة محمّد بن الحنفيّة وقالوا بغيبته بجبل رضوى أبو هاشم إسمعيل بن محمّد المُلقّب بالسيّد الحِمْيَرىّ(١) من مخضرمى الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة بل لعلّ أكثر عمره وقع فى أيّام بنى العباس إذ مات سنة $\frac{١٧١}{٧٨٨-٧٨٧}$ قال صاحب الأغانى(٢) : « كان شاعراً متقدّماً مطبوعاً . . . وإنّما مات ذكره وهجر الناس شعرَهُ لما كان يُفْرِط فيه من سبّ أصحاب رسول الله صلعم وأزواجه فى شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتُحومِيَ شعرُهُ من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوّفاً وتراقباً وله طراز من الشعر ومذهب قلّما يُلْحَق فيه أو يقارِب به ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذمّ غيرهم ممّن هو عنده ضدّ لهم . . . وأخباره كلّها تجرى هذا المجرى ولا تخرج عنه » . وفى موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيّد الحميرىّ قال صاحب الأغانى(٣) على ميله المعروف إلى التشيّع : « وهى قصيدة طويلة حُذِف باقيها لقُبْح ما فيه » يعنى الإفراط فى التشيّع . وممّا يدلّ على علوّ منزلته عند أهل الشيعة أنّ بعضهم نحل إليه أشعارًا فى مذهب الإماميّة(٤) القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أنّ

---

(١) راجع كتاب الأغانى ج ٧ ص ٢ — ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً :

BARBIER DE MEYNARD, *Le Séid Himyarite, recherches sur la vie et les œuvres d'un poète hérétique du II siècle de l'hégire* (*Journal Asiatique*, 7ème série, t. IV, 1874) p. 159-284.

تروى له أبيات سياسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً فى مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية فى كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (أبيات فى النبى ونقد ابن رشيق لها) .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٩ .

(٤) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٣ و ٥ .

الذى فعل ذلك رجا من زوره تأييدًا لآراء الإماميّة ولم يَرُجْ ذلك لو كان السيّد الحميرىّ من الشعراء غير المقدّمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ فيروى عن إسحق بن ثابت العطّار[١] : « قال كنّا كثيرًا ما نقول للسيّد مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء . قال لأَنْ أقول شعرًا قريبًا من القلوب يلذّه من سمِعه خير من أن أقول شعرًا متعقدًا تضلّ فيه الأوهام » .

كان كُثَيِّر عزّة والسيّد الحِمْيَرى من الكيسانيّة أى من غلاة الشيعة. أما شعراء الشيعة المعتدلون فى أيام بنى أميّة فأشهرهم الكُمَيْت بن زيد الأسدى[٢] المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضر و يعلّم فى أول أمره الصبيان فى مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغانى[٣] على هذه الصفة : « شاعر مقدّم عالم بلغات العرب خبير بأيّامها من شعراء مُضَر وألسنتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيّام المفاخرين بها . . . ولم تزل عصبيّته للعدنانيّة ومهاجاته شعراء اليمن متّصلةً والمناقضةُ بينه و بينهم شائعة فى حياته و بعد وفاته حتّى ناقض دِعْبِل وابن أبى عُيَيْنة قصيدته المذهّبة بعد وفاته وأجابهما أبو الزَّلْفاء البَصْرىّ مولى بنى هاشم » . فإذا اعتبرنا هـذا النصّ فقط ظننّا أن الكميت من شعراء الصنف الخامس المفتخرين بقومهم المهاجين قبائل خصومهم . ولكن كيف ذلك إذ كان الكميت كوفيًّا من أهل الحضر بعيداً عن أحوال حياة الأعراب ؟ والحقّ

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١١ .

(٢) راجع كتاب الأغانى ج ١٥ ص١١٣ — ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص٣٦٨ — ٣٧٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٩ — ٧٠ و ٨٦ — ٨٧ ومروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٣٦ — ٤٥ من طبعة باريس (فى الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ — ٢٧ و ١٥٣ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٤ — ١٥٧٥ (شعر بعثه الكميت إلى أهل مرو ناشرا الدعوة لبنى العباس سنة ١١٧ هـ) [والمدائح النبوية فى الأدب العربى لزكى مبارك ص ٦٧ — ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ .

يقال إننا إن تأملنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على عصبيّتها مخالفةً لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أنّ غرضها الحقيقىّ غيرُ المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغانى[1] إنّ « سبب هجاء الكميت أهل اليمن أنّ شاعراً من أهل الشأم يقال له حَكيم بن عَيّاش [الأعور] الكلبىّ كان يهجو علىّ ابن أبى طالب عليه السلام و بنى هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بنى أميّة فانتدب له الكميت فهجاه وسبَّه فأجابه ولجّ الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح فى شعره عن علىّ عليه السلام لما وقع بينه و بين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظْهِر أنّ هجاءه إيّاه فى العصبيّة التى بين عدنان وقحطان » فيدلنا هـذا القول على أنّ هجاءه يُعَدّ من الشعر فى الاختلافات السياسيّة الدينيّة و إن كان ظاهره غيرَ ذلك . وفى كتاب مروج الذهب للمسعودى[2] رواية تؤيّد ما قلناه وهى أنّ عبد الله ابن معـاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أراد أن يُهْدِىَ للكميت هدايا ثمينـة لقصائده فى مدح العلويّين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : « أمّا إذ أبيْتَ أن تقبل فإنّى رأيت أن تقول شيئاً تَغْضِب به بين الناس لعلّ فتنةً تحدُث فيخرج من بين أصابعها بعضُ ما تُحِبّ » . فابتدأ الكميت وقال قصيدته التى يذكُر فيها مناقب النزاريّين ويُطْنب فى تفضيلهم على قحطان وهى زُهاء ثلاثمائة بيت لم يترك فيها حيّاً من أحياء اليمن إلّا هجاهم . وعرّض بأخذ الفُرْس والحَبَشَة نساء اليمن بقوله :

لنـا قمرُ السماء وكلُّ نجم ... تُشير إليه أيدى المهتدينا
وجدتُ الله إذ سمّى نزارًا ... وأسكنهم بمكّة قاطنينـــا
لنا جعل المـكارم خالصاتٍ ... وللنـــاس القفا ولنا الجبينا

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٨ وخزانة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ — ٤٤ من طبعة باريس (فى الباب الثالث بعد المائة) وراجع خزانة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

وما ضربت هجائنَ من نزار	فوالجُ من فحول الأعجمينا

وما حملوا الحَمِيرَ على عِتاق	مطهّمـة فيُلفَوْا مُنْغِلينا

وما وُجِدَتْ بناتُ بنى نزار	حلائلَ أسْودين وأحمرينا

ولكنّى أظنّ أن صاحب الأغانى والمسعودىّ لم يُصيبا فى قولهما كلّ الإصابة وإنّ غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبيّن فى النصوص التى نقلتُها . تذكّروا ما شرحته لمّا تكلّمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأوّل (ص١٢٤) أعنى أنّ اليمنيّين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجاً حتى كان عددهم هناك أوفرَ من عدد النزاريّين فأن بنى أميّة عليهم خصوصاً اعتمدوا لتأييد مُلكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأمّلتم هذا فهِمتم أنّ هجاء الكميت اليمنيّين كان فى الحقيقة هجاء أشدّ المتعصّبين للدولة الأمويّة وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة .

كان الكميت قبل مهاجاته القحطانيّين قد نظم القصائد الهاشميّات وهى من جيّد شعره مدح فيها بنى هاشم أى أهل البيت وأبدى فيها تعصّبه لمذهب الشيعة . ولكنّه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع فى أبى بكر وعمر فقال[1] :

أهْوَى عليّاً أمير المؤمنين ولا	أرضَى بشتْم أبى بكر ولا عُمَرا

ولا أقول وإن لم يُعطِيَا فَدَكاً	بنتَ النبىّ ولا ميراثَهُ كَفَرا

الله يعلم ماذا يأتيانِ بهِ	يومَ القيامة من عُذْر إذ اعتذَرا

أمّا بنو أميّة فشتمهم فى الهاشميّات فقال مثلاً بعد ذكر فضائل بنى هاشم[2] :

---

(١) هاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ — ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤ أما فدك فانظر ما قيل فى حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .

(٢) هاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ — ٣٧ من طبعة ليدن . عبد المليك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكذا أيضا فى بيت جواس بن القعطل الكلبى المروى فى حماسة أبى تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أو ج ٤ص ٣٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ص١٢٢ من طبعة ليدن أو ص٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفى معجم البلدن لياقوت ج٢ ص٣—٤ من طبعة ليبسك — ثلة جماعة الضأن الكثيرة وثأج الغنم صاح .

ساسةٌ لا كمَنْ يرى رِعْيَةَ النا س سَوَاءً ورِعْيَةَ الأنعامِ
لا كعبد المَليك أو كوليدٍ أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ
رأيُهُ فيهِمُ كرأى ذوى الثَلّة فى الثائجات جُنْحَ الظَّلامِ

ومن أغرب الغرائب أنّه مدح بنى أميّة فى غير القصائد الهاشميّات فمن قوله[١] :

أبنى أميّة إنّكمْ أهل الوسائل والأوامرْ
ثقتى لكلّ مُلِمّة وعشيرتى دون العشائرْ
أنتمْ معادنُ للخلا فة كابرًا من بعد كابرْ
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخيرِ عاشرْ
وإلى القيامة لا تزا ل لشافع منكم وواتر

فاستغرب ذلك بعضُ كَتَبَة العرب فقال ابن قتيبة فى توطئته لكتاب الشعر والشعراء[٢] عند ذكر طَمَع بعض الشعراء : « وهذه عندى قصة الكميت فى مدحه بنى أميّة وآل أبى طالب فإنه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أميّة بالرأى والهوى وشعره فى بنى أميّة أجود منه فى الطالبيّين ولا أرى علّة ذلك إلّا قوّة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » . ويروى فى الأغانى[٣] أنه قد استأذن أبا جعفر محمّد بن علىّ فى مدح الأمويّين فأذِن له فيه . ومن الجدير بالذكر من هذا الباب شعرٌ له مدح فيه النبىّ بما ليس فى محلّه فقيل أنّه لم يُرِد النبىّ وإنّما أراد علياً فورّى عنه بذكر النبىّ خوفاً من بنى أميّة[٤] .

ليس هذه المداهَنةُ مختصّة بالكميت بل توجد أيضاً فى شعر غيره من شعراء الشيعة فى ذلك العصر[٥] . ورأيى فيها أنّ أسبابها ثلاثة عمِلت فيهم معاً : الطمع فى الجوائز

(١) كتاب الأغانى ج ١٥ ص١١٨ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .
(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .
(٤) كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥. الأبيات موجودة فى الهاشميات عدد ٣ بيت ٣١ — ٣٦ من طبعة ليدن .
(٥) منهم كثير وأيمن بن خريم مثلا (راجع كتاب الأغانى ٢١ ص ٧ — ١٣) .

والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة فى التقيّة[١] . من المشهور أنّ أهل السنّة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنّها رُخْصة من عند الله للضعفاء أمّا الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير فى استعمال التقيّة أو الكتمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبىّ الحديث : « مؤمن لا تقيّة له كمثل جسد لا رأس له » ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمّد القول : « نَفَس المهموم لظُلْمنا تسبيح وهمّه لنا عبادة وكتمان سرّه جهاد فى سبيل الله » فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يُكْتَب هذا الحديث بماء الذهب . فإذاً لا غرْوَى أن شعراء مذهبهم فى أواخر القرن الأوّل وأوائل الثانى لم يروا فى مدح بنى أميّة بأساً وإن كانوا فى قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأى ما قاله الكميت فى إحدى الهاشميّات[٢] :

وإنى على حُبّيهمُو وتطلّعى   إلى نَصْرِهم أَمْشى الضَّراء وأَخْتِلُ
تجودُ لهم نَفْسِى بما دون وَثْبةٍ   تَظَلّ بها الغِرْبانُ حَوْلِىَ تَحْجُلُ

ثم قال أيضاً[٣] :

وإنّى على أنّى أُرى فى تقيّةٍ   أُخالِطُ أقواماً لقومٍ لَمِزْيَلُ

وإلى ذلك أيضاً يرجع ما يروى فى كتاب الأغانى[٤] : « دخل الكميت بن زيد الأسدىّ على أبى جعفر محمّد بن علىّ عليهما السلام فقال له يا كميت أنت القائل :

فالآن صرْتُ إلى أُميّـــة والأمور إلى المصائرِ

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردتُ به إلّا الدنيا ولقد عرفتُ فضلكم . قال أمّا إن قلت ذلك إنّ التقيّة لتحِلّ » .

---

(١) راجع J. GOLDZIHER, *Das Prinzip der "takijja" im Islâm* (*Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft*, 60, 1906, p. 213-226)

(٢) هاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ — ٨٧ من طبعة ليدن .

(٣) هاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة ليدن .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة بولاق .

وقبل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بدّ لنا من ملاحظة ، قد أشرت غير مرّة إلى قلّة العواطف الدينيّة الخالصة فى منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى سنوح المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلَف شعراء المدن الحجازيّة بلذّات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين وهلمّ جرًّا . إنّ شعراء بنى أميّة كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالًا كان فى أيديهم القوّة المادية والسُّلطة والمُلك فلا غَرْوَى إن غلبت فيهم الدنيا على الدين . أما شعراء الخوارج فأفسد توحُّشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالفِطْرة الدينيّة الحقيقيّة فإن أبدَوْا مثلًا كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضحته فيما سبق أعنى على صفة أقربَ إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد . أمّا شعراء الشيعة لتعلّقهم بحزب عُزل عن كلّ سُلطة مادّيّة ولمدحهم رجالَ ورعٍ وتُقًى زعموا بقاء روح النبوّة والرسالة فيهم مالوا طبعًا إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأتوا فى شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويّين حتّى قيل عن قصيدة للسيّد الحميرىّ إنّها لو قرئت على منبر ما كان فيها بأس [1] . فلا شكّ أن النوع من الشعر الدينىّ الذى نما فيما بعد فاشتهر به البُرَعىّ يتّصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأوّل والثانى .

إذا أردتم الإفادة عن المُرْجِئة وراجعتم ما قيل فيهم فى التصانيف مثل كتاب المِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتانىّ وجدتموهم موصوفين فيها كأنهم من المذاهب الكلاميّة لا غير . قال الشهْرستانىّ إنّهم « كانوا يؤخِّرون العمل عن النيّة والقصد . . . ويقولون لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنّة أو من أهل النار » . وجميع ذلك صواب بالنظر إلى المتأخرين منهم لا بالنظر إلى المقدّمين الكائنين فى عصر الدولة الأمويّة وأوائل العبّاسيّة . فإنّهم فى أوّل أمرهم لم يكونوا إلّا من الأحزاب التى تكوّنت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٧ من طبعة بولاق .

لقتل عثمان بن عفّان فكانوا حزباً دينياً من جهة مَبْدَئِهم النظرىّ وحزباً سياسياً من جهة النتائج العمليّة الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرّ (ص ٢٠٨) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويّين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العثمانيّين والعلويّين فى أوائل خلافة علىّ ويلوح ذلك من بعض التعاريض الواردة اتّفاقياً فى تاريخ الطبرىّ ومن أشعار شعرائهم فإنّهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم فى عثمان وعلىّ وأصحابهما ثمّ بجواز طاعة بنى أميّة ومقاتلة من ثار على السلطان[1] . قال محارب بن دِثار الذُهْلىّ[2] (المتوفى سنة ١١٦) .

يَعيب علىّ أقوامٌ سَفاهاً — بأن أرجو أبا حَسَنٍ عَلِيّا

وإرجائى أبا حسنٍ صوابٌ — عن العُمَرَيْنِ بِرًّا أو شقيّا

فإن قدّمتُ قوماً قال قوم — أسأتَ وكنتَ كذّاباً رديّا

إذا أيقنتُ أنّ الله ربّى — وأرسل أحمداً حقّاً نبيّا

وأنّ الرُسْلَ قد بُعِثُوا بحقٍّ — وأنّ الله كان لهمْ وليّا

فليس علىّ فى الإرجاء بأسٌ — ولا لَبْسٌ ولست أخاف شيّا

فتأمّلوا أهميّة هذا التوقُّف وكم كان له من التأثير فى العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمَقْضِىّ والاعتراف بخلافة الأمويّين فغاظ هذا الإرجاء أهل الشيعة أىّ غيظ فقال فيه السيّد الحِميرىّ[3] :

---

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Irdjâ* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 45, 1891, p. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغانى ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق — وفى البيت الأول أرجو (كذا !) والصحيح أرجى [كما فى طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] — أما البيت الثانى فتركيبه هو : « وإرجائى أبا حسن براً وشقياً عن العمرين صواب » راجع van Vloten فى مقالته المذكورة آنفا ص ١٦٥ حاشية ٢ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أرجأ وأرجى أخر — لج التمادى فى الخصومة — أعند فلاناً عارضه بالوفاق — ابن حرب هو معاوية — أهوج طويل وبه تسرع وحمق وطيش — النهروان مركز من مراكز الخوارج .

خليليَّ لا تُرْجِئَا وٱعلَما ... بأنّ الهُدَى غير ما تزعمانِ
وإنّ عَمَى الشكّ بعد اليقين ... وضُعْفَ البصيرة بعد العيانِ
ضلالٌ فلا تَلْجَجَا فيهما ... فبئست لعَمْرُكما الخصلتانِ
أيُرْجَى علىٌّ إمامُ الهُدَى ... وعثمانُ ما أعْنَدَ المُرْجِيَانِ
ويُرْجَى ابنُ حَرْبٍ وأشياعُهُ ... وهُوجُ الخوارج بالنهروانِ
يكون إمامُهُمُ فى المعاد ... خبيثُ الهوى مؤمنُ الشَّيْصَبانِ

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دِثار السابق ذكره ثابت قُطْنة[1] أحد الفرسان الشّجاع فى ثغور خراسان بل والٍ على عمل من أعمالها غزا عدّة غزوات فى بلاد تركستان فى أيّام قُتَيْبة بن مسلم فكان كثير من شعره ممّا سمّيْناه الصنف الخامس أى دائراً على الحماسة والمغازى وممّا قال سنة ٦٥[2] :

فَدَتْ نفسى فوارسَ من تميمٍ ... على ما كان مِنْ ضَنْكِ المُقامِ
بِقَصْرِ الباهلىّ وقد أرانى ... أحامى حين قَلَّ به المُحامى
بسَيْفِى بعد كَسْرِ الرُمح فيهم ... أذُودُهُمُ بذى شُطَبٍ حُسامِ
أكُرُّ عليهمِ اليَحْمُومَ كرًّا ... كَكَرِّ الشَّرْبِ آنِيَةَ المُدامِ
فلولا الله لَيس له شَرِيكٌ ... وَضَرْبِى قَوْنَسَ المَلِكِ الهُمامِ
إذاً فاظَتْ نِساءُ بنى دِثارٍ ... إمامَ التُّرْكِ باديةَ الخِدامِ

ولمّا تولّى سليمان بن عبد الملك أمور الخلافة ($\frac{٩٦}{٧١٥}$ — $\frac{٩٩}{٧١٧}$) وفضّل قحطان على مُضَر لأغراض سياسته فثار عليه قتيبة بن مسلم والى خراسان لتعصُّبه لعدنان كفَّ ثابت قطنة عن الثورة بل تألّف الوالى الجديد يزيد بن المهلّب بن أبى صُفْرة

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٤٩ — ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠ — ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٥ — ١٨٧ فلينظر أيضاً وفهرست تاريخ الطبرى .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ — ١٣١ من طبعة ليدن فى سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن قطبة بدلا من ثابت بن قطنة) .

ولم ينحرفْ عن صُحْبته على صروف الزمان . فلما تقلَّبت أحوال القحطانيِّين فى أيَّام يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٠ — ١٠٥/٧٢٤) ورجعت الشوْكة إلى مضر أخذ ثابت يحرِّض ابن المهلَّب على المقاومة والقتال[١] واتَّبعه لمَّا توجَّه إلى العراق راغباً فى خَلْع يزيد بن عبد الملك طالباً الخلافة لنفسه وكان معه فى يوم العَقْر فى صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلَّب وفرُّوا عنه فقُتل . فقال ثابت قطنة يرثيه[٢] :

كلُّ القبائل بايَعوكَ على الذى ... تدْعو إليه وتابَعوك وساروا
حتَّى إذا حَمِىَ الوَغَى وجعلْتَهُمْ ... نَصْبَ الأسنَّة أسلموك وطاروا
إن يقتُلوكَ فإنَّ قتْلك لم يكُنْ ... عاراً عليك وربَّ قتلٍ عارُ

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قِطَع منه . أما الذى حملنى على ذكر ثابت قطنة هنا هو شعر له مشهور فصَّل فيه آراء المرجئة فى زمانه أى فى النصف الثانى من القرن الأوَّل وهو شعر مهم جدًّا لموضوعه ولكونه من أقدم الأشعار قيلت فى وصف اعتقادات دينيَّة بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته[٣] :

يا هندُ فاستمِعى لى إنَّ سِيرتَنا ... أن نعبُدَ الله لم نُشْرِكْ به أحدا
نُرجى الأمورَ إذا كانت مشبَّهةً ... ونصدُقُ القولَ فيمن جار أو عَندا
المسلمون على الإسلام كلُّهمُ ... والمُشرِكون أشتُّوا دينهم قِدَدا
ولا أرى أنَّ ذنباً بالغٌ أحداً ... مِ الناسِ شرْكاً إذا ما وحَّدوا الصَّمَدا
لا نسفِكُ الدم إلَّا إن يراد بنا ... سَفْكُ الدماء طريقاً واحداً جَدَدا

(١) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب المسعودى ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس فى الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خزانة الأدب أحسن من رواية الأغانى .

من يتّقِ الله فى الدنيا فإنّ له — أجرَ التقىّ إذا وفّى الحسابَ غدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له — ردٌّ وما يقضِ من شىء يكن رَشَدا
كلُّ الخوارج مُخطٍ فى مقالته — ولو تعبّد فيما قال واجتهدا
أمّا علىٌّ وعثمان فإنّهما — عبدانِ لم يُشْرِكا بالله مُذْ عبدا
وكان بينهما شَغْب وقد شهدا — شَقّ العصا وبعينِ الله ما شهدا
يُجْزَى علىٌّ وعثمان بسعيهما — ولستُ أدرى بحقٍّ آيةٍ وَرَدا
الله يعلم ماذا يحضُران به — وكلٌّ عبد سيلقى الله منفردا

تأمّلوا هذه الأبيات يتّضحْ أن جميع المسائل المدلول عليها فيها إنما هى من نتائج الاختلافات فى من تكون الإمامة من حقّه . فى البيت الثانى يردّ ثابت قطنة على أهل الشيعة القائلين بظُلم الخلفاء الأمويّين ووجوب عِصيانهم لجورهم . ثم فى البيتين التاليَيْن يُجيب الخوارج وأهل الشيعة معاً القائلين بكُفْر من لا يذهب مذهبهم من المسلمين ويردّ عليهم جميعاً أيضاً بقوله « لا نسفِك الدم إلخ » لأن الخوارج قالوا بوجوب جهاد سائر المسلمين بل ذهبت قوم منهم إلى استحسان الاستعراض المومأ إليه سابقاً (ص٢١٣) أمّا أهل الشيعة فكفّروا من سفك دِماء المؤمنين وأرادوا بذلك تكفير الخلفاء والأمراء من بنى أُميّة . ثمّ أظهر ثابت قطنة فى باقى أبياته الإنصاف فيما بين علىّ وعثمان فجعلهما متساويى القدر وكفّ عن الحكم فيما جرى بينهما من الخلاف مقتدياً بالآية المشار إليها عند آخر الشعر وهى على المرجّح : « وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[1] » . فترون أنّ جميع ذلك متعلّق ضروريّاً بمسألة الخلافة والحكومة شديد التأثير فى السياسة والعمل . ولكن لمّا رسخت الدولة العبّاسيّة وتثبّتت شوكتُه فى جميع بلاد الشرق فزالت فعلًا الاختلافات فى الإمامة عند رجال السياسة والسلطان

(١) القرآن سورة ٩ (التوبة) : ١٠٦ .

تقلّب حال المرجئة كما تقلّب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلاميّة القديمة أعنى أنّ آراءهم الدينيّة السياسيّة التى أصلها مسألة الإمامة لا غير تحوّلت إلى آراء كلاميّة عامّةٍ متجرّدة عن علاقة ضروريّة بمسائل الخلافة فعدلوا مثلًا عن القول بإرجاء عثمان وعلىّ و بنى أُميّة وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدَوْرهم هذا الجديد هو الموصوف فى التآليف المشهورة فى الملل والنِّحَل .

قلّتِ الشعراءُ المساعدون للزبيريّين على ادّعائهم بالخلافة أو بالحرىّ قلّ ذكرهم فى الكتب التى وصلت إلينا فإنّ الذين مدحوا مُصْعَب بن الزُّبَيْر أرادوا الإثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عُبَيْد الله بن قيسِ الرُّقيّات[1] أحد شعراء قريش المقدّمين المشتهر بالغزل أيضًا وهو صحِب مُصْعَبًا وخرج معه على عبد الملك ابن مروان ولم يفارقه إلى أن قُتل مصعب سنة ٧٢/٦٩١ و بعد مدّة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب إلى عبد الملك فعفا عنه فقال ابن قيس الرُّقيّات البيتين الشهيرين[2] :

ما نقموا من بنى أُميّة ! لّا أنّهمْ يحلمون إن غضِبوا
وأنّهمْ سادة الملوك فلا تصلُحُ إلّا عليهِم العرَبُ

قد كثُر ولا غرو فى ذلك الشعراء المادحون لبنى أُميّة منهم بل أشهرهم الأخطل السابق ذكره (ص١٣١) . لكنى لا أُريد هنا إلّا الذين تعصّبوا للأمويّين فى مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وادّعائهم وجادلوا الخصوم فى أشعارهم مثل ما فعل كعب

---

(١) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodokanakis فى ص ٤ — ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بعنايته فى وينا سنة ١٩٠٣ — والشاعر مذكور فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ — ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل فى اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وخزانة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١ بيت ١٤ — ١٥ .

ابن جُعَيل الذى قرأت أبياته فى الحروب بين أصحاب معاوية وشيعة علىّ (ص٢٠٦)

فمن هؤلاء الشعراء أعْشَى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكّان الكوفة «كان مروانى المذهب شديد التعصُّب لبنى أُميَّة[١]» . فقال ردًّا على آراء الخوارج والشيعة[٢] :

وما أنا فى أمرى ولا فى خصومتى	بمهتضمٍ حقّى ولا قارعٍ سنّى
ولا مُسلمٍ مولاىَ عند جنايةٍ	ولا خائفٍ مولاى من شرّ ما أجنى
وإنّ فؤاداً بين جَنْبَىَّ عالمٌ	بما أبصرَتْ عينى وما سمِعت أُذْنى
وفضَّلنى فى الشعر واللُّبِّ أنّنى	أقول على علم وأعرف من أعنى
فأصبحت إذ فضَّلْتُ مروانَ وابنَهُ	على الناس قد فضَّلت خيرَ أب وابن

وحثّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبيريِّين المدّعين بالخلافة فى الحجاز وقال[٣] :

آلُ الزُّبيْر من الخلافة كالتى	عَجِلَ النِّتاجُ بحَمْلها فأحالَها
أو كالضِّعاف من الحمولة حُمِّلَتْ	ما لا تُطيق فضَيَّعتْ أحمالَها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ	كم للغُواة أطَلْتمو إمهالَهـا
إنَّ الخلافة فيكمو لا فيهمُ	ما زِلْتُمو أركانَها وثِمالَهـا
أمسوْا على الخيرات قُفْلًا مُغْلقاً	فانهَضْ بيُمْنك فافتحْ أقفالَها

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزَّبير الأسدىّ[٤] قال فيـه صاحب الأغانى

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨ فى ذيل ديوان أعشى ميمون] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٤] الحمولة هى الإبل التى تحمل — الثمال هو الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) وهو المذكور فى كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٣٣ — ٤٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق .

ما نصُّه[١] : « شاعر كوفيٌّ المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأمويّة وكان من شيعة بني أُميّة وذوي الهوى فيهم والتعصُّب والنُّصْرة على عدوّهم . فلمّا غلب مُصْعَب بن الزُّبَيْر على الكوفة أُتِيَ به أسيراً فمنّ عليه ووصله وأحسن إليه فمدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتّى قُتِل مصعب ثمّ عَمِيَ عبد الله بن الزَّبِير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) ... وهو أحد الهجّائين للناس » . فإذا طالعتم أشعاره المرويّة في كتاب الأغاني عرفتم قدر إطرائه للأمويّين .

ومنهم أيضاً السائب بن فَرُّوخ المعروف بأبي العبّاس الأعمى[٢] مولى بني الدِّيل سكن مكّة وقال الشعر في النصف الثاني من القرن الأوّل فقيل إنّه « كان من شعراء بني أُميّة المعدودين المقدّمين في مدحهم والتشيُّع لهم وانصباب الهوى إليهم[٣] » فنظم أشعاراً كثيرة في مدائحهم وهجاء آل الزُّبَيْر فكانت الأمويُّون يبعثون إليه الجوائز من الشام . ومديحه جرى مجرى مدح عرب الجاهليّة لسادتهم فلولا ذكر المنابر في شعر أبي العبّاس لما وجدنا بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله في بني أُميّة[٤] (من بحر الخفيف) :

خُطَباءٌ على المنابر فُرْسا ... نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يُعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلَبْسِ

بحُلومٍ إذا الحلوم تقضّتْ ... ووجوهٍ مثلِ الدنانير مُلْسِ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحِمْيَريّ المعروف

---

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ — ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن قتيبة (ولعله هو المشار إليه عرضا في ص ٣٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزانة الأدب [ولا ابن سلام ولا الآمدي] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسي الأصل .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٦٠ .

بابن مفرّغ[١] المتوفى سنة ٦٩ فى بلاد كرمان . كان حليف قريش وصحب عبّاد ابن زياد بن أبى سفيان حين ولّاه معاوية بلادَ سِجِستان ولم يَحْمَدْه ثمّ لما وقع بينهما أخذ يهجوه ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان والى العراق (المتوفّى سنة ٦٦) وغيرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهاجيه حتّى كانت أهل البصرة تغنّى بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدّة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخلية سبيله ففعل . وكان ابن مفرّغ من شعراء الغزل أيضاً فأشعاره فى أناهِيد بنت أحد دهاقين الفُرْس مشهورة . وسيأتى الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القَصَصِىّ اليمنىّ .

لمّا شرعت فى الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنّه مرآة أحوال الأحزاب السياسيّة الدينيّه وترجمان أهواء الناس وآرائهم فى مسائل الدنيا والدين فما تقدّم برهان على ذلك قاطع . فأشرتُ إلى أشعار العثمانيّة والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريّين وأصحاب الأمويّين فلا بدّ لنا الآن من لَمْحة فى الشعر المعبّر عن أسباب انحطاط قوّة الدولة الأمويّة غير الفتن والاختلافات فى مسألة الإمامة .

أفضت الخلافة سنة $\frac{١٢٥}{٧٤٣}$ إلى الوليد بن يزيد فهو لم يزل مُدْمِناً على الصيد واللهو وشُرْب الخمر محتجباً عن الناس منهمكاً فى اللّذّات فملّ الناس أيامَه وكرِهوه فرأى بعضُ أهل بيته خَلْعَه سواء أن يحملهم على ذلك بُغْض سوء سيرته أم الطَّمَع وحبّ الأحداث . فوقعت الفتن بينهم فقال العبّاس بن الوليد بن عبد الملك المسمّى بفارس بنى مروان لشهامته : « يابنى مروان أظنّ أنّ الله قد أذِن فى هلاككم » ثمّ أخذ يُنْذِرهم فقال[٢] :

(١) ذكر فى كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٥١ — ٧٣ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ — ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٣١ من طبعة غوتنجن أو ٧٩٢ من الطبعات المصرية ومروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ — ١٤٤ من طبعة ليدن] .

(٢) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٣٧ من طبعة بولاق وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٨٨ من طبعة ليدن .

إنّى أُعيذكُمُ بالله من فِتَنٍ مثلِ الجبال تَسامَى ثمّ تندفِعُ
إنّ البريّةَ قد ملّتْ سياستَكم فاستمسِكوا بعمود الدين وارتدِعوا
لا تُلحِمُنَّ ذئابَ الناسِ أنفسَكم إنّ الذئابَ إذا ما أُلحِمَتْ رَتَعوا
لا تبقُرُنَّ بأيديكم بُطُونَكُمُ فثَمّ لا حسرةٌ تُغْنِى ولا جزَعُ

ومن أهمّ المصادر وأوثقها لمعرفة حال العرب والعجم بخراسان فى أواخر الدولة الأمويّة أشعار أمير لا تأتى الكتب فى طبقات الشعراء بترجمته وإن كان ما نظمه فى فتن زمانه أتمّ وصفٍ وأوضح تبيانٍ لما وقع فى تلك البلاد من الشرّ بين اليمنيين والنزاريّين ولعلل نموّ الدعوة العبّاسيّة وازدياد قوة الموالى وزوال أمر العرب وغير ذلك ممّا عمِل فى انتقال الخلافة من بنى أُميّة إلى بنى العبّاس . أعنى نصر بن سيّار أميرَ خراسان المتوفّى فى ربيع الأوّل من سنة ١٣١/٧٤٨ . فلولا أشعاره ما توصّلنا إلى معرفة كثير ممّا يتعلّق بالتقلبات السياسيّة وتغيّر بعض المذاهب الدينيّة فى الثلث الأوّل من القرن الثانى منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة فى بلاد العجم الشماليّة بعد ما انضمّت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرّ (ص٢٢٠—٢٢٦) أنّ الإرجاء عند العرب فى القرن الأول كان التوقف عن الحكم فيما بين شيعة علىّ وشيعة بنى أُميّة وأنّه كان للثانية أجدى منه للأولى إذا أدّى أصحابَه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بنى أُميّة . أمّا بخراسان فى أوائل القرن الثانى فانعكس الأمر إذ ذهبت إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهين سُلْطة العرب عليهم الشاكين جوْرَ الأمويّين وأمرائهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عمّا كان عند العرب قبلًا وأصبح توقّفاً عن التعصّب لبنى أُميّة بل كرْهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العبّاسيّة التى مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيّار سنة ١١٧

حين أقبل الحارث بن سُرَيْج المرجئيّ إلى مَرْو ومن أبياته[١] :

والعائبينَ علينا دينَنا وهُمُ شَرُّ العبادِ إذا خابَرْتَهُمْ دينا
والقائلينَ سبيلُ الله بُغْيَتُنا لَبُعْدَ ما نَكَبُوا عمّا يقولونا
فاقتلهُمُ غضباً لله مُنْتَصِراً منهم به وَدعِ المُرْتابَ مَفْتونا
إرْجاؤُكُمْ لَزَّكُمْ والشِّرْكَ فى قَرَنٍ فأنتمُ أهلُ إشراكٍ ومُرْجونا
لا يُبْعِدِ اللهُ فى الأجْداث غيرَكُمُ إذ كان دينُكُمُ بالشِّرْكِ مَقْرونا

فيُشْبِه هذا الكلام ما كانت الشيعةُ يقولونه فى مرجئة العراق المتنعين عن معصية معاوية وخلائفه. — ومن الشهير من شعر نصر بن سيّار فى ذكر أحوال خراسان وإهمال الخلفاء الأمويّين الآخِرين الذين كان من أشدّ العوامل فى انقراض دولتهم[٢] :

أرى خِلَلَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ ويوشِكُ أنْ يَكونَ له ضِرامُ
فإنّ النـــارَ بالعودَيْنِ تُذْكَى وإنّ الحربَ أوّلُها الكلامُ
وإنْ لمْ تُطفِئُوها تَجْنِ حَرْباً مُشَمِّرةً يَشيبُ لها الغُلامُ
أقولُ من التَّعجُّبِ لَيْتَ شِعْرى أأيْقـــاظٌ أُميّةُ أمْ نِيامُ
فإنْ يَكُ قَوْمُنا أضْحَوْا نِياماً فَقُلْ قوموا فقدْ حانَ القِيامُ
فَفِرّى عن رِحالِكِ ثم قولى على الإسلامِ والعربِ السلامُ

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٧٦ فى سنة ١١٧ . ويدل ابن حزم على ما هو الإرجاء الفارسى فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٣١٧ — ١٣٢١ وهذا نصه : «اختلف الناس فى ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبى محرز الجهم بن صفوان وأبى الحسن الأشعرى البصرى وأصحابهما» (وانظر إيضاح ٤ ص ٢٠٤) .

(٢) مروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ ص طبعة باريس وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص٣٥٦ من طبعة ليدن .

وقال يخاطب مُضَر واليمن ويحذرهم العدوّ الداخل عليهم[١] :

أَبلِغْ رَبيعةَ فى مَرْوٍ وإخوتَها أن يَغضَبوا قبلَ أن لا يَنْفعَ الغَضَبُ
ولْينصبُوا الحربَ إن القومَ قد نَصَبوا حرباً يُحرّق فى حافاتِها الحطبُ
ما بالُكم تُلقِحون الحربَ بَيْنَكُمُ كأنَّ أهلَ الحِجَا عن فِعلِكُمْ غُيَبُ
وتتركون عدوًّا قد أظلَّكُمُ ممن تأشَّب لا دينٌ ولا حَسَبُ
لَيْسُوا إلى عَرَبٍ منا فنَعرِفَهُمْ ولا صَميمِ المَوالى إنْ هُمُ نُسِبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعتُ به عن الرسول ولا جاءتْ به الكتبُ
فمَنْ يكن سائلى عن أصل دينِهِمُ فإن دينَهُمُ أنْ تُقتَلَ العربُ

وقبل أن نختِمَ هذه النُّبْذة فى الصنف السادس من الشعر فى أيّام بنى أميّة علينا أن نذكر شعراء من العجم نسجوا القريض بلغة العرب . — لمّا جرى الكلام على الشعر فى مدن الحجاز أوضحتُ أنّه بعد الفتوح وقبل أواسط القرن الأوّل جُلبت إلى بلاد الحرمين الجوارى المغنّيات بالفارسىّ والرومىّ وشرحت ما كان لذلك من التأثير فى اعتناء شعراء المدن الحجازيّة بالغزل دون سائر أفانين الشعر . وفى ذلك العصر كثُر أيضاً بمكّة والمدينة عدد المماليك من سَبْى الفرْس فصار أولادُهم موالى أهل الحجاز وتدرّبوا بلغة أصحابهم حتّى إنّ بعضهم نحو أواسط القرن الأوّل أخذ ينظم الشعر بالعربيّة . وهذا الأمر مهمٌّ جدًّا لأنّ الشعر تعبير عن عواطف الأمّة وأهوائها وأميالها وأخلاقها وعوائدها فإذا شاركها فى الشعر بلغتها أمم أخرى لا بدّ من وقوع تقلّب واضح فى مضمون ذلك الشعر وإن لم تتغيّر اللغة والأعاريض التى صيغ فيها . فبسبب الموالى بعد منتصف القرن الأوّل أخذ شعر العرب يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعر أمم إسلاميّة شتّى بلغة عربيّة .

---

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ٣٦٠ من طبعة ليدن والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد فيه البيت الخامس)

ومن الموالى الذين أصلهم من آذَرْبَيْجان ومنشؤهم وسكناهم بمكة أو المدينة أبو العبّاس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شَهَوَاتٍ[1] الذى قال الشعر فى المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة فى أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ — ٩٩/٧١٧) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) ومنهم محمّد بن يَسَار الذى قلّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سَلْمَى الأَعْجَم[2]، مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنّه كان ينزل إِصْطَخْر ، وقال البعض إنّ أصله ومولده ومنشأه بأصبهان « ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعراً جَزْل الشعر فصيح الألفاظ على لُكْنة لسانه وجَرْيِهِ على لفظ أهل بلدهِ[3] » . وله قصيدة طويلة عُدَّت من غرر المراثى قالها لما مات المغيرة بن المهلّب بن أبى صُفْرة سنة ٨٣ منها[4] :

(١) « وشهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح — والشاعر مذكور فى كتاب الأغانى ج ٣ ص ١١٨ — ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ — ٣٦٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق — وقيل فى الأغانى ج ٣ ص ١١٨ إنه موسى بن بشار وفى الخزانة إنه موسى بن يسار أخو إسمعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف — فما وصف صاحب كتاب الأغانى (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة اسمعيل بن يسار إلا محمدا وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه فى كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفى معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل انه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ — ١٠٩ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ — ٢٥٩ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٢٣ من الطبعات المصرية وحماسة أبى تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بن او ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤتلف للامدى ص ١٣١ — ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ وفى وفيات الأعيان لابن خلكان [وفى كتاب المؤتلف للامدى] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ .

(٤) فى كتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ : « المهلب بن المغيرة » وهو غلط . تروى القصيدة (٥٠ بيتاً) فى ذيل أمالى القالى ص ١٠ — ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ص ٨ — ١٢ من طبعة ١٣٤٤] واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الأبيات مروية فى كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ [فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughirah ibn el-Muhallab* (*Islamica*, II, 1926, p.344-354] .

مرو هو مرو الشاهجان — أما البيت الثانى فهو الشاهد فى تذكير المؤنث .

قُلْ للقوافل والغُزاة إذا غزوْا والباكرين وللمُجِدِّ الرائحِ
إنّ السماحةَ والمروءةَ ضُمِّنَا قبرًا بمَرْوَ على الطريق الواضح
فإذا مررتَ بقبرهِ فاعْقِرْ بهِ كُومَ الهجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابح
وانضِحْ جوانبَ قبرهِ بدِمَائها فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب[1] كأنّه منهم فمن اطّلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنّ أنه شعر مولًى فارسىّ . وأدرك زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) .

ولكن غرَضى هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم فى هذا النوع السادس . إنّ الناس أحبّوا فى كلّ وقت تخليد ذكر مآثر آبائهم والافتخار بها فنعم هذا الافتخار إن لم يُفسِدْهُ التعصُّب المُفرِط المُنكَر لأنه إذا لم يعدِل عن سبيل الإنصاف أصبح حثًّا نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتحريضاً شديداً على طلب المعالى وصونِ ما يجب على كلّ أمّة إيراثه الخلفَ من مجد السلف وعلوّ شأنهم فى الاجتماع البشرىّ . ولا أحتاج إلى وصف قدرِ اهتمام العرب بإبقاء ذكر أفعالهم ومفاخرهم التى ملؤوا من تذكارها دواوين أشعارهم . فلمّا خرجوا عن جزيرتهم وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التى تغلّبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرَفًا ومجدًا . أما هذه الأمم المتقدمة فى سير التمدُّن من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء وما لهم من الآثار المُعجِبة فإلى ذلك أشار جرير بقوله[2] :

إذا افتخروا عدُّوا الصِبَهْبَذَ منهمُ وكِسْرَى وآلَ الهُرْمُزان وقَيْصَرا
ترى منهمُ مستبصرين على الهدى وذا التاج يُضحِى مَرْزُبانًا مسوَّرا

---

(١) راجع فى كتاب الأغانى ج ١١ ص ١٦٥ — ١٦٧ و١٧١ و ١٧٢ ما قاله يهجو بنى يشكر وفى ج ١٣ ص ٥٨ — ٥٩ ما قاله يهجو كعبا الأشقرى .

(٢) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [او ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

أغرّ شبيهاً بالفَنِيق إذا ارتدى على القُبْطُرِىّ الفارسىّ المزرّرا
وكان كتابٌ فيهمُ ونبوّةٌ وكانوا بإصْطَخْرَ الملوكُ وتُسْتَرا
لقد جاهد الوضّاحُ بالحقّ مُعْلِماً فأورث مجداً باقياً أهل بَرْبَرا

فنشأ نوع من الشعر فى مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل فى هذا الصنف السادس المُفْرَد لشعر الأحزاب السياسية والاختلافات الدينية . ولعلّ أوّلَ الفُرْس الذى نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المدلول عليه المسمّى عند كَتَبَة القرن الثالث والرابع بالشعوبيّة هو إسمعيل بن يسار النِّسائىّ الذى روى صاحب كتاب الأغانى[(١)] بعض أخباره فقال إنه « مولى بنى تَيْم بن مُرّة تيم قريش وكان منقطعاً إلى آل الزُّبير فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه[(٢)] مع عُرْوة بن الزُّبَيْر ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده وعاش عُمرًا طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية ولم يدرك الدولة العباسيّة وكان طيّباً مليحاً مندّراً[(٣)] بطّالاً مليح الشعر وكان كالمنقطع إلى عُرْوة بن الزُّبير . وإنما سُمّى إسمعيلُ بن يسار النِّسائىّ لأنّ أباه كان يصنع طعام العُرْس ويبيعه فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجمّلين وممن لم تبلُغْ حالُهُ اصطناع ذلك[(٤)] » . ومما وصل إلينا من أشعاره يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغَزَل اللطيف الغالب عند شعراء مدن الحجاز فى ذلك العصر . أما الذى يهمّنى فى هذا المقام والذى أُحِبُّ أن تتأمّلوه

---

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٧ ولا يذكر فى كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٣٦٦ من طبعة ليدن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق) إلا اسمه . فراجع أيضاً J. GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة بولاق) أى بعد سنة $\frac{٧٣}{٦٩٢}$.

(٣) [كذا فى طبعة بولاق وفى طبعة دار الكتب المصرية : « مندرا » وفى الحاشية : « مندرا يأتى بالنوادر من قول أو فعل . وبطال كثير الهزل والمزاح »] .

(٤) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سمى إسماعيل بن يسار النسائى لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التى تتخذ للعرائس » .

فأنّ إسمعيل بن يسار كان « شعوبيًّا شديد التعصُّب للعجم وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم[١] » ففى قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال[٢] :

رُبَّ خالٍ متوَّجٍ لى وعمٍّ　　ماجدٍ مُجتَدًى كريمِ النِّصابِ

إنّما سُمِّىَ الفوارسُ بالفرْ　　س مضاهاةَ رِفعةِ الأنْسابِ

فاتْركى الفخرَ يا أُمامَ علينا　　واتركى الجوْرَ وانطِقى بالصواب

واسألى إن جهِلْتِ عنّى وعنكم　　كيف كنّا فى سالفِ الأحقاب

إذ نربّى بناتِنا وتدُسّو　　ن سَفاهاً بناتِكمْ فى التراب

وجسَر يوماً بالرُّصافة على إنشاد قصيدة بحضور هشام بن عبد الملك قال فيها[٣] :

إنّى وجَدِّكَ ما عُودى بذى خوَرٍ　　عند الحفاظ ولا حَوْضى بمهدومِ

أصْلى كريمٌ ومجدى لا يُقاس به　　ولى لسانٌ كحَدِّ السيف مسمومِ

أحْمى به مجدَ أقوام ذوى حَسَبٍ　　من كلّ قَرْمٍ بتاج المُلْك معمومِ

جحاجحَ سادةٍ بُلْجٍ مَرازِبةٍ　　جُرْدٍ عتاقٍ مساميحَ مطاعيمِ

---

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٠ — اجتدى سأله حاجة أو طلب جدواه — نصاب أول كل شىء ، الأصل — ضاهى شاكله وشابهه — حقب وجمعه أحقاب الدهر — دس الشىء تحت التراب وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحته وأخفاه — أما اشتقاق فوارس فراجع ما قاله ابن بدرون فى شرحه على قصيدة ابن عبدون ص ٨ من طبعة ليد ١٨٤٦ .

(٣) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق — خور ضعف — قرم الفحل أو ما لم يمسه حبل ولم يحمل عليه وترك للفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفحل — جحجح السيد المسارع فى المكارم — أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج — الأجرد الذى له جرد يعنى قصر شعر الجلد فى الفرس وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل — العتاق (جمع عتيق) من الخيل : النجائب — مسماح (وجمعه مساميح) ذو جواد وذو سماحة — مطعام (وجمعه مطاميع) كثير الأضياف والقرى — ملك كسرى الأول أنوشروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١ وسابور الثانى ذو الأكتاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . — زحف مشى — الحلقة (وجمعه حلق) كل شىء استدار والحلقة الدرع خاصة — (درع) سابغة تامة طويلة — لهميم (جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس — جرثومة أصل .

مَنْ مثل كِسْرَى وسابور الجنود معاً | والهُرْمُزان لِفخرٍ أو لتعظيمِ
أُسْدُ الكتائب يوم الروع إن زحفوا | وهمْ أذلّوا ملوكَ الترك والرومِ
يمشون فى حَلَقِ الماذىّ سابغةٍ | مشْىَ الضراغمةِ الأُسْد اللهاميمِ
هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأنّ لنا | جُرثومةً قهرت عزَّ الجراثيمِ

ويروى أنّ هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضِب وأمر بدفع إسمعيل فى بركة كانت أمامهما فى القصر ففعلوا وغطوه فى الماء حتى كادت نفسه تخرُج ثمّ أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الحجاز .

فلعلّ إسمعيل بن يسار كان أوّلَ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلًى بالعصبيّة للعجم والفخر بهم فحذا حَذْوَ أبيه فى إظهار تعصُّبِهِ فى الشعر[١] . وذلك دلالة على تقرّب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذى غلبت فيه العجم على العرب فى أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصّب وبُغْض وخلافات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغى لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : « إنّمَا ٱلمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ[٢] » .

ليس مجهولاً لكم أنّ أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكلّ رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربىّ وفارسىّ وزنجىّ وبربرىّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوى كلّ المؤمنين . فلما هرب عِمْران بن حِطّان الخارجىّ المذكور سابقاً (ص ٢١١) من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمَثْوَى ونزل مدّة عند رَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ ثمّ بزُفَر بن الحارث الكِلابىّ

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٧ سطر ٢٣ من طبعة بولاق .
(٢) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) : ١٠ .

ثمّ عند قوم من الأزد قال فى نزوله بهم[1] :

نَزَلْنا بحَمْدِ اللهِ فى خَيْرِ مَنْزِلٍ	نُسَرُّ بما فيهِ من الأُنْسِ والخَفَرْ
نَزَلْنَا بقَوْمٍ يَجْمَعُ اللهُ شَمْلَهم	وليس لهم عُودٌ سِوى المَجْدِ يُعْتَصَرْ
من الأَزْدِ إنّ الازدَ أَكْرَمُ مَعْشَرٍ	يَمانِيَةٍ طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ
فأصبحتُ فيهم آمِنًا لا كَمَعْشَرٍ	أَتَوْنى فقالوا من رَبِيعةَ أو مُضَرْ
أم الحىِّ قحطانٍ فتِلْكُم سَفاهةٌ	كَما قال لى رَوْحٌ وصاحِبُهُ زُفَرْ
وما منهما إلا يُسَرُّ بنُسْبَةٍ	تُقَرِّبُنى منهُ وإن كان ذا نَفَرْ
فنَحنُ بَنُو الإسلامِ واللهُ واحِدٌ	وأَوْلَى عِبادِ اللهِ باللهِ مَنْ شَكَرْ

ولكن إياكم أن تغترّوا بهذا القول المعبّر عن شُكْر الشاعر لمن ألجأه وأثواه هاربًا خائفًا فقيرًا لا غير . فقد سبق (ص ٢١١) أنّ عِمران بن حِطّان كان من الشعراء المعرّضين حزبهم على قتال غيرهم وقد تقدّم أنّ الخوارج قالوا بكُفْر جميع من لم يتّبع مذهبهم وكانوا أشدّ الناس تعصُّبًا حتى تفرّقوا أنفسهم عدّة فِرَق مُبْغِضين بعضها بعضًا على قلّتها . والحقيقة أنّهم محوْا التعصّب القومىّ المألوف للأعراب من قديم الزمان و بدّلوه بتعصّب مذهبىّ أشدّ من القومىّ حِدّةً معادلٍ له سعةً لأنّ عدد أصحاب فرقة من فرقهم لم يتجاوزْ فى الغالب عدد أبناء قوم من أقوام الأعراب — أما الذى لمَحْتُ إليه إنما هو مثل قول الصّلْتان العَبْدىّ معاصر الفرزدق وجرير[2] :

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٣٣ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك او ج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (وفيه شرح الأبيات) وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ١٥٤ .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ - أما الأصبحى فقال المبرد : « تسمى هذه السياط التى يعاقب بها السلطان الأصبحية وتنسب الى ذى أصبح الحميرى ... وهو أول من اتخذها » [ومن الممكن أن الشاعر يشير الى اليمنيين الذين نالوا الحظوة عند بنى أمية]. — أما النجدية فقال المبرد : « تنسب إلى نجدة بن عويمر ... كان رأسًا ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج » — الحرورية من الخوارج أيضًا — وأزرق يدعو الى أزرق فقال يعنى من كان من أصحاب نافع بن الأزرق .

أرى أمّةً شهرت سيفها   وقد زِيدَ فى سَوْطِها الأصبحى

بنجْدِيّةٍ وحَـــرُورِيّةٍ   وأَزْرَقَ يَدْعُو إلى أَزْرَقِ

فِملّتنا أنّنا المسلمون   على دين صدّيقنا والنبى

أو مثل قول نَهار بن تَوْسِعة شاعرِ بنى بكر بن وائل بخراسان فى أيام قتيبة ابن مسلم[1] :

أَبِى الإسلامُ لا أبَ لى سِواه   إذا هتفوا ببكْرٍ أو تميمِ

دَعِىٌّ القوم ينصُرُ مُدَّعِيهِ   فيُلحِقَهُ بذى النَّسَب الصميمِ

وما كَرَمٌ ولو شَرُفَتْ جُدودٌ   ولٰكنّ التّـقِىَّ هو الكريمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جدًّا عند شعراء عهد الأمويّين .

٧ — فلنشرع فى بيان الصنف السابع من الشعر فى أيام بنى أمية وهو شعر أهل الحضر فى مدن العراق والشام .

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة ١٧ / ٦٣٨ تقريباً فى خلافة عمر بن الخطّاب . فكان لهذا الخليفة الأجلّ الماهر بأمور السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين[2] أعنى نقصانَ شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لئلّا تفوق العجمُ العرب قدرةً وتأثيراً وجعْلَ مقامات للأعراب المفتتحين فى أطراف البادية متوسّطةٍ بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنيّة شيئاً فشيئاً وتزالَ رَغْبتُهم فى الرجوع إلى براريهم وكراهتُهم للاستقرار فى المدن كما تقدّم بيان ذلك فى أحد الأبواب الماضية (ص ١٢٤) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن والكامل للمبرد ص ٥٣٨ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثانى فقط) والبيت الأول مروى أيضاً فى الفصل الحادى والمائة من كتاب المفصل للزمخشرى (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .

(٤) راجع أيضاً : (L. CAETANI, *Annali dell' Islâm*, vol. III, p. 774-776; 833-845

لا سيما لما نقل عليّ بن أبى طالب دار الخلافة إليها سنة ٣٦/٦٥٧ فأضحتْ مدّة أربعة أعوام قاعدة المُلْك المنقطعين إلى شيعة عليّ . ثمّ فى أيام الدولة الأموية لم تزل عامرة زاهرة فى غاية النَّضارة[1] بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً لم ينقص نَفاقُهُ عن درّ مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمّاً غفيرا وإن كانت سكناهم الاعتيادية فى أنحاء بعيدة عنها . كيف لا وأغلب وُلاتها مائلون إلى سماع الشعر مُنْعِمون على الشعراء الصِّلاتِ الجزيلةَ محبّون للأُنس والاجتماع والسمر مثل بِشْر ابن مروان الذى يروى فيه أنّ أيْمَن بن خُرَيم الشاعر لما أتاه « نظر الناس يدخلون عليه أفواجاً فقال من يُؤْذِن لنا الأميرَ أو يستأذن لنا عليه ؟ فقيل له ليس على الأمير حِجاب ولا سِتْر فدخل وهو يقول[2] :

يُرَى بارزًا للناس بِشْرٌ كأنّه ... إذا لاحَ فى أثوابه قمرٌ بدْرُ

ولو شاء بشرٌ أغلقَ الباب دونه ... طَماطِمُ سُودٌ أو صقالبةٌ شُقْرُ

أبَى ذا ولكن سهلَ الإذْنَ للتى ... يكون له فى غِبِّها الحمدُ والشُّكْرُ

فضحِكَ إليه بشر وقال : إنّا قوم نحجُب الحُرَم وأمّا الأموال والطعام فلا » . ثمّ تأمّلوا أمرًا آخر وهو أنّ دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلها وأهل جميع الشام كثيرو التعصّب للأمويّين بل أشدُّ أركانهم حتى إنّ لفظ الشامىّ اُسْتُعمِلَ أحياناً بمعنى المنقطع إلى بنى أمية[3] فربّما من لم يَمِلْ من الشعراء إلى الدولة الأمويّة كره دخول الشام خوفاً من عداوة أهلها أو من أن يُتَّهم بخيانة حزبه . أمّا العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجّاج بن يوسف كانت رعاية الأمويّين فيها أخفّ منها بالشام فصارت البصرة والكوفة مَقْصِد ناس من كلّ شيعة وحزب ومذهب فنزل

---

(١) أما رفاهة العيش فى الكوفة والحيرة فى عصر بنى أمية فانظر ما قيل مثلا فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويوجد « الشامى الأخطل » بهذا المعنى فى قصيدة للفرزدق ونظر النقائض ص ٢٠٢ عدد ٣٩ بيت ٦٢ من طبعة ليدن [وديوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

فيها بدون عائق ومانع مَنْ لعلّ صَعُب عليه قدومُ الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما تقدّم وفدوا الكوفة مرارًا أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجرير وذو الرُمّة والراعى وعبد الله بن الزّبير وأعشى بنى ربيعة من مُدّاح الخلفاء والأمراء الأمويّين وكثيّر والكميْت من أهل الشيعة والطِرِمّاح من الخوارج وهلمّ جرًا . فإذًا لا غروى أن تكون للكوفيين منزلةٌ خاصّة فى تاريخ الشعر العربىّ فى أيّام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياسىّ المتقدّم بيانه والمراثى فثلاثة : الخمريّات والغزل والمديح . وجميع ذلك متّصل بأنواع الشعر العربىّ الجاهلىّ فى أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أُسِّست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أى ستّة كيلومترات تقريبًا من الحيرة فلا شكّ أنّ جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوه للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلامىّ وتأسيسِ الكوفة معروفة فلا أحد يجهَل أنّها كانت قاعدة مُلك اللّخميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ مُعْظم سُكّانها نصارى معروفون بالعِباد اشتهروا عند عرب البادية فى الجاهليّة لبيع الخمر . ونبغت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضًا شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمارات التى كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغانى القينات . فخمريّات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عدىّ بن زيد والأعشى وطرفة والنابغة الذبيانىّ أشهر من أن أحتاج إلى الإطناب فى الكلام عليها . فإن تأمّلتم هذا وتأثيرَ أهل الحيرة وعاداتِهم فى العرب الذين عمروا الكوفة واختلاطَ المسلمين بأصحاب ديانات شتّى فى العراق ثمّ إن تذكّرتم ما تقدّم بيانه من تمسّك الأعراب بعاداتهم القديمة وكراهتهم لبعض الأحكام الاسلاميّة ما استغربتم وفرة الأشعار فى وصف الخمر ومدحه عند من نسج

القريض فى الكوفة والبصرة فى أيّام بنى أميّة . وزيدوا على ذلك كلّه حبّ شعراء العرب لاحتذاء مثال المتقدّمين والاقتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فكما تجدون حتّى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم المعشوقة ويشكون مشاقّ قطع الفيافى التى لم يروها أبدًا ولا من بعيد كذلك ليس من المحال أنّ بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذّاتها بدون أن ذاقوا منها قطرة كأنّ غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهليّة ولا التعبير عمّا فى قلوبهم حقيقةً .

وعلى كلّ حال لم يزل خمّارو الحيرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثانى أو بعدها بقليل كما يُستنتج ممّا رواه صاحب كتاب الأغانى فى ترجمة بكر بن خارجة شاعر من أهل الكوفة مُغْرَم بشرب الخمر . قال[1] : « حرّم بعضُ الأمراء بالكوفة بيعَ الخمر على خمّارى الحيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة فى الرحاب والطرق فبكى طويلًا وقال :

يا لقومى لِما جنى السُّلطانُ ... لا يكوننّ لِما أهان الهوانُ

قهوة فى التراب من حلَب الكرْ ... م عُقارًا كأنّه الزعفرانُ

قهوة فى مكان سوء لقد صا ... دف سعدَ السعود ذاك المكانُ

من كُميتٍ بدا المزاجُ لها لؤ ... لؤُ نظمٍ والفصلُ منها جُمانُ

... كيفَ صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ... ـبر عن بعض نفسه الإنسانُ

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين فى العراق فى القرن الأوّل غير نادرة منها ما يروى فى كتاب سيرة الرسول لابن هشام[2] أن النّعْمان ابن عدىّ بعد ما استعمله عمر بن الخطّاب على مَيْسان موضع من أرض البصرة قال :

(١) كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ — العقار الخمر — جمان : اللؤلؤ الواحدة .

(٢) سيرة الرسول ص٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ — ١٨٥٩ ويروى البيت الأول والرابع فى معجم ما استعجم للبكرى ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول فى لسان العرب ج ١٥ ص ٥١ — حنتم الجرة الخضراء — الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضا من مصانع الفرس بالكوفة (راجع معجم البكرى ص ٢٥٧) .

ألا هل أتى الحسناء أنَّ حليلها بميسان يُسقى فى زجاج وحنتمِ
إذا شئتُ غنّتنى دهاقين قريةٍ ورقّاصةٌ تجدوا على كل مَنْسمِ
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ولا تسقنى بالأصغر المتثلّمِ
لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادمُنا فى الجوسقِ المتهدّمِ

فلمّا بلغت عمرَ هذه الأبيات عزله . فنذكر عن قريب أمثلة أخرى متعدّدة من حُبّ الخمر فى العراق فى عهد بنى أمية .

أمّا الغزَل فهو عند أهل الحضر المُترَفين كالنسيب عند أهل البادية فقد أحسن ابن رشيق القيرَوانىّ فى وصف الفرق بينهما حيث قال[١] : « ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقُّعِ البيْن والإشفاقِ منه وصفةِ الطلول والحُمول والتشوُّقِ بحنين الإبل ولَمْعِ البُروق ومرّ النسيم وذكرِ المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحِلّون بها من خزامى وأقحُوان وبهار وحَنْوةٍ وظيّانٍ وعَرار وما أشبهها من زَهْر البرّية الذى تعرفه العرب وتنبُته الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابُهم ولا يعُدّون النساء إذا تغزّلوا ونسبوا فإن وقع مثل قول طرفة[٢] :

وفى الحىّ أحْوَى ينفضُ المرْدَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمْطَىْ لؤلؤٍ وزبرجدِ

فإنّما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزُّلِهم فى ذكر الصدود والهِجْران والواشين والرُّقَباء ومَنَعَة الحَرَس والأبواب وفى ذكر الشراب والندامى والوَرْد والنِّسْرين والنَّيْلوفَر وما شاكل ذلك من النواوير البلديّة والرياحين البستانيّة وفى تشبيه التفّاح والتحيّة به ودسّ الكتب وما شاكل ذلك ممّا هو به منفردون » .

---

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .
(٢) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

أمّا المديح فسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح .

ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغُدانيّ[١] من فُرْسان بني تميم ووجوههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنّه قد أدرك النبي في صباه وحداثته وكان له حظّ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره مُكرِماً له « قابلاً لرأيه محتملاً لما يعلمه من تناوُله الشراب[٢] » وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد والي الكوفة من سنة ٦٠/٦٨٠ إلى سنة ٦٦/٦٨٦ حتى استعمل مدّة على نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريّات منها[٣] :

أَذْهَبَ عَنّي الغمَّ والهمَّ والذي ... به تَطْرُقُ الأحداثُ شُرْبُ المُرَوَّقِ
فواللهِ ما أَنْفَكُّ بالراحِ مهتزًّا ... ولو لامَ فيها كلُّ حُرٍّ موفَّقِ
فما لائِمي فيها وإن كان ناصحاً ... بأعْلَمَ منّي بالرحيقِ المعتَّقِ
ولكنَّ قلبي مُستهامٌ بحُبِّها ... وحُبِّ القِيانِ رَأْيَ كلِّ محقِّقِ
أُحِبُّ التي لا أَمْلِكُ الدَّهْرَ بُغْضَها ... وذلك فِعْلٌ مُعْجِبٌ كلَّ أَخْرَقِ
سَأَشْرَبُها صِرْفاً وَأَسْقِي صَحابتي ... وأَطْلُبُ غِرّاتِ الغَزالِ المنطَّقِ

فذمّه أنس بن زُنَيْم الليثيّ ووعظه قائلاً[٤] :

أحارِ بنَ بدرٍ باكِرِ الراحَ إنّها ... تُنَسّيك ما قدَّمْتَ في سالِفِ الدَّهْرِ
تُنَسّيك أسباباً عِظاماً ركبتَها ... وأنت على عَمياءَ في سَنَنٍ تَجْرِي
... فدَعْ عنك شُرْبَ الخمرِ وارجعْ إلى التي ... بها يَرْتَضِي أهلُ النَّباهةِ والذِّكْرِ
عليك نبيذُ التَّمْرِ إن كنتَ شارباً ... فإنَّ نبيذَ التمرِ خيرٌ من الخَمْرِ

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٠ — ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وفيه اسم الشاعر حارثة بن زيد) و٣١٣ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضا ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٤١ . وفي الشطر الثاني من البيت الخامس اقرأ : « وذلك فعلٌ معجبٌ كلَّ أخرق » بدلا من « وذلك فعلُ معجبٍ كل أخرق » كما في الطبع .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٣٣ .

ألا أن شُرْبَ الخمر يُزْرِى بذى الحجى ويَذْهَبُ بالمالِ التلادِ وبالوَفْرِ
فصَبْرًا عن الصهباء وأعلمْ بأنّنى نصيحٌ وأنّى قد كَبِرْتُ على الزَّجْرِ

ولكن لم تنفعه المواعظ والنصائح .

ومن الشعراء الكوفيين الذين كانوا فى أواخر القرن الأوّل وأوائل الثانى عمّار ابن عمرو الملقّب بذى كِناز[1] قال فيه صاحب الأغانى ما نصّه : « كان ليّن الشعر ماجناً خِمّيراً معاقراً للشراب وقد حُدَّ فيه مرّات وكان يقول شعراً ظريفاً يُضْحِك من أكثره شديدَ التهافت جمَّ السَّخْف ... وكان هو وحمّاد الراوية ومُطيع بن إياس يتنادَمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون وكلّهم كان متّهماً بالزندقة وعمّار ممّن نشأ فى دولة بنى أميّة ولم أسمع له بخبر فى الدولة العبّاسية » . ومن الجدير بالذكر أنّ شعر عمّار ذى كناز أو ما وصل إلينا منه كلّه منسوج فى الأعاريض القصيرة دائر على المِزاح والخمر والغزل ومثاله[2] :

شَجَا قلبى غزالٌ ذو دلال واضح السُّنَّهْ
أسيلُ الخد مربوب وفى مَنْطِقه غُنَّه
ألا إنّ الغوانى قد برَى جسمى هَوَاهُنَّه
وقالوا شَفَّكَ الحورُ هَوًى قلت لهم أَنَّهْ
ولكنى على ذاك معنًّى بأذاكُنَّهْ
أراح الله عمّاراً من الدنيا ومنهُنَّه
بعيدات قريبات فلا كان ولا كُنَّه
فقد أذهل منى العقـلَ والقلبَ شجاهُنَّه
يُمَنّينَ الأباطيلَ ويجْحَدْنَ الذى قُلْنَهْ

(١) توجد ترجمته فى كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٤ — ١٨٠
(٢) كتاب الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٩ .

ومن هؤلاء الشعراء حُنَيْن بن بلوع الحيرى (١) «كان شاعراً مغنياً فحلا من فحول المغنّين وله صنعة فاضلة متقدّمة وكان يسكن الحيرة ويُكرِى الجمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانياً وهو القائل يصف الحيرة ومنزله بها : (من المنسرح)

أنا حُنَيْنٌ ومنزلى النَّجَفُ وما نديمى إلّا الفتى القصِفُ
أَقْرَعُ بالكأس ثغر باطيةٍ مُتْرَعَةٍ تارةً وأغترِفُ
من قهوة باكَرَ التِّجارُ بها بيتَ يهودٍ قرارُها الخَزَفُ
والعيْش غَضّ ومنزلى خَصِبٌ لم تَغْذُنى شَقْوَةٌ ولا عَنَفُ» (٢)

وكان من معاصرى هشام بن عبد الملك و بشر بن مُروان وخالد القَسْرى وفى ترجمته فى كتاب الأغانى تجدون عدّة أخبار دالّة على رغد العيش والرفاهية بمدينتى الحيرة والكوفة بعد منتصف القرن الأوّل .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب فى أشعارهم ذكر الشراب والمِزاح والمجون الأُقَيْشِر الأسَدى (٣) الذى ابتدأ يقول الشعر فى أيام الخلفاء الراشدين ومات فى

(١) راجع كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ — ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر غير مذكور فى خزانة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام ولا فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى . أما اسم أبيه فهو فى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٣٤١) بفتح الباء وسكون اللام وفتح الواو] .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٤ — ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٥٢ — ٣٥٤ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٢ . وتروى له ثلاثة أبيات فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٨١١ — ٨١٢ من طبعة بن او ج ٤ ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف فى اسمه وقيل فى كتاب الأغانى وخزانة الأدب وكتاب المقاصد النحوية للعينى (ج ٣ ص ٥٠٨ وج ٤ ص ٥١٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكرى (ص ٣٨ — ٣٩ من طبعة مصر ١٣٤٤)] إنه المغيرة بن عبد الله بن معرض فقال ابن قتيبة إنه المغيرة بن الأسود بن وهب وقال العينى (ج ا ص ٣٧٧) إنه المغيرة بن أسود بن عبد الله بن معرض [وقال الآمدى فى المؤتلف والمختلف (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله من بنى معرض بن عمر بن أسد وقال المرزبانى فى معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله بن أسود بن

حدود الثمانين تقريباً[١] وهو الذى يقول لنفسه[٢] :

فإنّ أبا معرِضٍ إذْ حَسا   من الراحِ كأساً على المِنْبَرِ

خطيبٌ لبيبٌ أبو مُعْرِضٍ   فإنْ لِيمَ فى الخمرِ لم يَصْبِرِ

أحلَّ الحرامَ أبو مُعرِضٍ   فصار خليعاً على المَكبِرِ

يُجِلُّ اللِّئامَ ويَلْحَى الكِرامْ   وإنْ أقصروا عنه لم يُقْصِرِ

فقيل إنّه كان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين فى كِراء بغل إلى الحيرة ودرهمَيْن للشراب ودرهماً للطعام[٣] ، وحكاياتُهُ مع أهل الشُّرْطة معروفة[٤] . وإليه ينسِب ابن قُتَيْبة هذه الأبيات[٥] :

وصَهْباءَ جُرْجانيّةٍ لم يطُفْ بها   حنيفٌ ولم تنغَرْ بها ساعةً قِدْرُ

ولم يَشْهَدِ القَسُّ المهَيْنِمُ نارَها   طروقاً ولا صلّى على طبْخِها حِبْرُ

أتانى بها يحيى وقد نِمْتُ نَوْمةً   وقد غابت الشِّعْرَى وقد خفَقَ النَّسْرُ

فقُلْتُ اصْطَبِحْها أو لغيرى فأهْدِها   فما أنا بعْدَ الشَّيْبِ ويْحَكَ والخمْرُ

إذا المرْءُ وَفَّى الأربعين ولم يكنْ   له دون ما يأتى حَياءٌ ولا سِتْرُ

فدَعْهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذى أتَى   وإنْ جَرَّ أرْسَانَ الحياةِ له الدَّهْرُ

وهب من بنى ناعج بن عمرو بن أسد وقيل من بنى معرض بن عمرو بن أسد أما اسم معرض فضبط فى طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكرى بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرض كنية الشاعر وهى مذكورة فى ثلاثة أبيات له (وسيأتى ذكرها) فالقراءة « معرض » بتشديد الراء غير ممكنة فيها لأجل الوزن فذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) على معرض (بسكون العين) ومعرض (بتشديد الراء)].

(١) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ — مدح بشر بن مروان وهو والى الكوفة من سنة ٧١/٦٩٠ الى ٧٤/٦٩٤ (انظر كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٥ .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٤) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٥) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة ليدن وفيه لا يروى البيت الثانى فأخذته من كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليبسك .

أما صاحب كتاب الأغانى[1] فينسبها إلى شاعر كوفىّ آخر وهو أيْمَن بن خُرَيْم الأسدىّ[2] من الشعراء المتغزّلين والمادحين لعبد العزيز وبِشْر ابنىْ مروان وأيمن هذا مع تغزُّله ومدحه لأمراء من بنى أميّة كان يتشيّع فى أيام عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) نسج فى مديح بنى هاشم قصيدة رائقة منها[3] :

نهارُكُمْ مُكابَدَةٌ وصَوْمٌ ... ولَيْلُتُكُمْ صَلاةٌ وَاقتراءُ

وَلِيتُمْ بالقُرانِ والتزَكّى ... فأسْرَعَ فيكمُ ذاكَ البَلاءُ

بكى نَجْدٌ غداةَ غدٍ عليكمْ ... ومكّةُ والمدينةُ والجِواءُ

وحُقّ لكلِّ أرضٍ فارَقوها ... عليكم لا أبالكُمُ البُكاءُ

أأجْعَلُكم وأقواماً سَواءً ... وَبينكمُ وبينهمُ الهواءُ

وهُمْ أرضٌ لأرْجُلِكم وأنتمْ ... لأرْؤُسِهم وأعْيُنِهم سَماءُ

ومثل هذا الكلام التقىّ غريب جدًّا عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيّين .

ومنهم مالك بن أسماء بن خارجة الفزارىّ[4] كانت أباؤه من سادة غَطَفان لكنه حضرىّ مقيم بالكوفة فتزوّج الحجّاج بن يوسف أخته هِنْداً . ولمالك أشعار فى الخمر تُشْبِه خمريّاتِ شعراء بغداد فى عهد بنى العبّاس منها[5] :

حَبّذا لَيْلتِى بتَلِّ بُوَنَّا ... إذْ نُسَقّى شرابنَا ونُغَنّى

من شراب كأنّه دَمُ جَوفٍ ... يترُكُ الشيْخَ والفتى مُرْجَحِنّا

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٧ — ١٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٥ — ٣٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٠ — والجواء جبل بينه وبين الربذة ثمانية فراسخة (معجم البكرى ص ٣٥٥) .

(٤) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤١ — ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ — ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروى له بيتان فى خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليبسك وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف فى الرواية .

حيث دارتْ بنا الزُّجاجةُ دُرْنا يحسِب الجاهلون أنّا جُننّا

ومررنا بنِسوةٍ عَطِراتٍ وسَماعٍ وقرقفٍ فنزلنا

وله أشعار ظريفة أيضاً من نوع الغزل وروى البُحتُرِىّ[1] له أبياتٍ فى ذهاب الشَّباب وابتداء الشيْب .

ومنهم إسمعيل بن عمّار بن عُيَيْنة[2] الذى أدرك أوائل الدولة العبّاسيّة وقال الشعر فى الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقِيان ابن رامين بالكوفة .

ومنهم الحَكَم بن عَبْدَل الأسدىّ الأعرج[3] منزله ومنشؤه بالكوفة إلّا أنه انتقل إلى الشام لمّا بويع لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٤/٦٨٤ فكان من الداخلين إلى عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) السامرين عنده ثمّ رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلمّا مات بشر جزِع عليه ورثاه . وكان شاعراً مُجيدًا خبيث اللسان مُدمِناً للخمر كالشعراء المتقدّم ذكرهم وشعره كله فى الهجاء والمجون والمديح . وكان له الشعر مَكسَباً كما كان لسائر شعراء طبقته فقال[4] .

أَطلُبُ ما يَطلُبُ الكَريمُ مِنَ الـــرِّزْقِ لِنَفسِى وَأُجمِلُ الطَّلَبا

وَأَحْلُبُ الثَرَّةَ الصَفِيَّ وَلا أَجهَدُ أَخلافَ غَيرِها حَلَبا

إِنّى رَأَيتُ الفتى الكَريمَ إِذا رَغَّبتَـــهُ فى صَنيعَةٍ رَغِبا

---

(١) حماسة البحترى ص ٢٨٧ — ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ — ١٩٨ عدد ١٠٣٨ و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « المرادى » بدلا من « الفزارى ») .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٣٥ — ١٤٢ وليس بمذكور فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى خزانة الأدب [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٣) راجع كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٤٩ — ١٥٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ٤ ص ٩٥ [والمؤتلف للآمدى ص ١٦١] وأبيات له مروية فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧ و ١١٨ — ١٢٠ و ١٧١ و ج ٢ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٤) حماسة أبى تمام ص ٥٣٥ من طبعة ابن أوج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق .

والعبدُ لا يطلُب العَلاء ولا يُعْطيكَ شَيْئاً إلا إذا رَهِبا
مِثْلُ الحِمارِ المُوَقَّعِ السَوْء لا يُحْسِنُ مَشْياً إلا إذا ضُرِبا

ويروى أنّ «الشعراء اجتمعوا إلى الحجّاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجّاج إنما شعر ابن عبدل كلّه هجاء وشعر سخيف فقال له قد سمعتَ قولهم فاستمعْ منّى قال هات[1]» فانشده قصيدة مرويّة فى كتاب أمالى القالى[2] وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقةً من الشوق إلى المكارم والمعالى منها :

وإنّى لَأَسْتَغْنى فما أَبْطَرُ الغِنَى وأَعْرِضُ مَيْسُورى لِمَنْ يبتغى عِرْضى
وأَعْسِرُ أَحْياناً فتَشْتَدُّ عُسْرَتى فأُدْرِكُ مَيْسورَ الغِنى ومعى عِرْضِى
وما نالَنى حتى تَجَلَّتْ فأَسْفَرَتْ أَخُو ثِقَةٍ فيها بقَرْضٍ ولا فَرْضِ
ولكنَّهُ سَيْبُ الإلهِ وحِرْفَتى وشَدِّى حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالغَرْضِ
لأُكْرِمَ نَفْسى أَنْ أُرَى مُتَخَشِّعاً لِذِى مِنَّةٍ يُعْطِى القَلِيلَ على النَّحْضِ

وآخرها :

ولستُ بذى وجهَيْن فيمن عرفته ولا البُخْلُ فاعْلَمْ مِنْ سَمائى ولا أَرْضى

إنّ كلّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيّين يليق به أن يوصَف بهذا القول : « شاعر خليع ماجن منهمك فى شرْب الخمر » فنذكر الآن من كان عن الخمر عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله الليثىّ[3] من أهل الكوفة الذى كان فى عصر

---

(١) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأمالى للقالى (المتوفى سنة ٣٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [او ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٣) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١١ ص ٣٩—٤٤ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٦١٧ — ٦١٨ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢—١٤٣ ومعجم المرزبانى ص ١٠٩—١١٠] وحماسة أبى تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠ و ١٤٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ج ١٧٤ و ٣٤٥ من طبعة ليدن او ص ١١٧ و ٢٣٨ عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

معاوية (٤١/٦٦١ — ٦٠/٦٨٠) وابنه يزيد (٦٠/٦٨٠ — ٦٤/٦٨٣) فصاغ فى مدحهما عدّة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضاً عمّن هجاه ولم يفعل ذلك إلا كارها كما يظهر من قوله[١] :

نَدِمْتُ على شَتْمِى العشيرة بَعْدَ ما تَغَنى بها عُودٌ وحَنٌ يمانِى

قَلَبْتُ لهمْ ظَهْرَ المِجَنِّ ولَيْتَنِى رجعتُ بفضْلٍ من يدى ولسانى

على أنّنى لم أَرْمِ فى الشعر مُسْلِماً ولم أَهْجُ إلّا من روى وهجانى

ومثل هذا الكلام لعمرى نادر فى ذلك العصر . وممّا يدلّ أيضاً على رقّة عواطفهِ الشعر اللطيف الذى قاله فى امرأته أمّ بكر وصف فيه قدر هواه لها[٢] . وله أبيات فى الحِكَم منها[٣] :

لَسْنَا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ يوماً على الأحْسابِ نتَّكِلُ

نَبْنِى كما كانت أوائلُنا تَبْنِى ونَفْعَلُ مثلَ ما فعلوا

ومنها أيضاً[٤] :

إنّى إذا ما الخليلُ أحْدَثَ لى صُرْماً ومَلَّ الصَّفاءَ أوْ قَطَعا

لا أحْتَسِى ماءَهُ على رَنَقٍ ولا يَرانى لِبَيْنِهِ جَزِعا

أهْجُرُهُ ثم يَنْقَضِى غُبَّرُ الـ ـهِجْرانِ عَنّا ولَمْ أقُلْ قَذَعا

اِحْذَرْ وِصالَ اللئيمِ إنّ لَهُ عَضْهًا إذا حَبْلُ وَصْلِهِ انقطَعا

ثمّ من شعراء الكوفة المشهورين الرَّمّاد بن أبْرَد (وقيل يزيد) من بنى مرّة

---

(١) كتاب الاغانى ج ١١ ص٤٢ وراجع حماسة البحترى ص٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .
وقلب له ظهر المجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٣) حماسة أبى تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن او ج ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) حماسة أبى تمام ص ٥٢٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .

ابن عَوْف المعروف بابن ميّادة[١] كان فى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) وأدرك خلافة المنصور العباسى (١٣٦/٧٥٤ — ١٥٨/٧٧٥) . وأشعاره فى الهجاء والمديح والنسيب فقيل إنه كان متعرّضًا للشرّ طالبًا لمهاجاة الناس ومُسابّة الشعراء وكان مع ذلك فصيحًا يحتج أهل اللغة بشعره . ومدح بنى أمية لا سيّما الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان والى المدينة .

ومن شعره فى الوليد بن يزيد[٢] :

همِمت بقولٍ صادقٍ أن أقولَهُ ... وإنى على رَغْم العدو لَقائِلُهْ
رأيتُ الوليد بن اليزيدِ مباركًا ... شديدًا بأحْناء الخلافة كاهِلُهْ
أضاء سراجُ المُلْك فوق جبينه ... غــداة تُناجِى بالنجاح قوابلُهْ

ومن جيّد شعره فى الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد[٣] :

ألا لَيْتَ شِعْرِى هل أبيتَنّ ليلةً ... بحَرّةِ لَيْلَى حيثُ رَبّتْنِى أهْلِى
بلادٌ بهـــا نيطَتْ علىّ تمائمى ... وقُطِّعْنَ عنّى حين أدركنى عقلى
وهل أسْمَعَنّ الدّهْرَ أصواتَ هَجْمَةٍ ... تَطالَعُ من هَجْلٍ خصيبٍ إلى هَجْلِ
فإن كنتَ عن تلك المواطن حابِسِى ... فأفْشِ علىّ الرِّزْقَ واجْمَعْ إذًا شَمْلِى

ومن ساكنى الكوفة أيضًا أبو كَلَدة بن عُبَيْد اليشكُرى[٤] كان أولا من أخصّ الناس بالحجّاج بن يوسف ثمّ ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديدَ

---

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ٨٨ — ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٤ — ٤٨٥ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ و ٣٢٧ — ٣٢٨ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ من طبعة بولاق — أما البيت الثانى فهو الشاهد فى أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام — أحناء جمع حنو وهو الجانب والجهة وقيل هو هنا بمعنى السرج والقتب كنى به عن أمور الخلافة .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .

(٤) راجع ترجمته فى كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١١٠ — ١٢٠ ولم يذكر فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى خزانة الأدب [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام] .

التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كلدة مدّة بمدن وقرى شتّى من بلاد العجم مثل سِجِسْتان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقرًا للخمر . فقال فى آخِر إحدى خمرياته[١] :

سأركُض فى التقوى وفى العلم بعد ما ... ركضتُ إلى أمر الغوىّ المشهَّرِ

وبالله حَوْلى واحتيالى وقُوّتى ... ومن عندهِ عرْفى الكثيرُ ومُنْكَرى

وفى نفس بلاد العجم التى أقام أبو كَلَدة بها أعنى خراسان وسجستان عاش شاعر عربىّ مطبوع آخر لا أعرِف أهو كوفىّ الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهِنْدىّ[٢] الذى مات بسجستان فى أوائل الدولة العبّاسيّة . قال فيه صاحب كتاب الاغانى[٣] « كان جزْل الشعر حَسَن الألفاظ لطيف المعانى وإنما أخمله وأمات ذكره بُعْدُه من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان وشغفُهُ بالشراب ومعاقرتُهُ إيّاه وفسْقُهُ وما كان يُتَّهَمُ به من فساد الدين واستفرغ شعرَهُ بصفة الخمر » . ومن قوله[٤] :

إذا ما ألحّ البَرْدُ فاجْعلْ دِثارَهُ ... إذا ٱلتحَفَ الأقوامُ دُكْنَ المطارفِ

ثلاثةَ أرطالٍ نبيذًا مُعسّلاً ... تَكُنْ آمنًا منه له غيْرَ خائفِ

فإنّ التحاف المرء فى جَوْف بطنهِ ... أشدُّ وأدْفَا من جيادِ المَلاحِفِ

وهو أيضاً القائل[٥] :

ٱجْعَلوا إن مُتُّ يوماً كَفَنِى ... وَرَقَ الكَرْمِ وقبرى مَعْصَرَهْ

إنّنى أرجو من الله غدًا ... بَعْدَ شُرْب الراح حُسْنَ المَغْفِرَهْ

(١) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١١٩ .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ — ٤٣٠ من طبعة ليدن واسمه غالب بن عبد القدوس فى كتاب الأغانى وعبد المؤمن بن عبد القدوس فى كتاب الشعر .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٩ وحلبة الكميت للنواجى ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩ (فى الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

فلنتكلم الآن فى شعر أهل الحضر بالشام فى أيّام بنى أُميّة .

إنّ قدر نبوغ الشعر العربىّ فى الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلاطين والأمراء وأكابر الناس إلى استماع الأشعار وأحوالُ البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق والتقلُّبات السياسية . أمّا ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنْكَر فتشهَد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نعثُر عليها فى كتب الأدب والتاريخ . تأمّلوا مثلاً حال معاوية مؤسّسِ الدولة الأموية وجدتم أن والده أى أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى فى الشعر فضلاً عن التجارة والسياسة فترُوَى مقطعات من أشعاره فى سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغانى وغيرهما . أما هند بنت عُتْبة أم معاوية فهى أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معاظَمتُها الخنساء بمصائبها[(١)] . وكان معاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محبّاً لسماع إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافيًا بمن أتاه من أهل الشعر كما يتّضح أيضاً ممّا جاء فى كتاب العقد الفريد[(٢)] من ذكر الوافدات عليه واكثرهنّ شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهنّ . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدْرِج الأبيات فى مكاتباته الرسمية ويتمثّلها فى محاورته حسبما يلوح ممّا يروى منها فى كتب الأدب والتاريخ[(٣)] . أمّا يزيد بن معاوية فكان شاعراً[(٤)] مولَعًا بالمنادمة على

---

(١) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلساء فى ديوان الخنساء ص ٥٨ — ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل فى ص ٥٨ : «وجعلت تعاظم العرب فى مصيبتها وتقول: أنا أعظم العرب مصيبة . وتبكيهم [يعنى أباها وأخويها] فى شعرها حتى عرفت العرب ذلك منها» .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ — ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur... Mo'âwia Ier*, p. 255 ومحاورة معاوية فى كتاب العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ — يروي له أبيات فى الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٣٠ — ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغانى ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات فى كتاب الأغانى ج ١ ص ١٠٤ و ج ٢ ص ١٣٦ و ج ٧ ص ١٧٨ و ج ١٣ ص ٦٤ و ١٥٤ و ج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ و ج ١٦ ص ٣٣ و ٨٨ وفى الباب الثانى والتسعين من

الشراب ومصاحبة الشعراء فصِلَتُهُ بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عِظَم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويّين وجليل خَطْبهِ في قلوبهم لا سيّما عبد الملك ابن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزةً كما كان من سليقة أغلب العرب الصميم .

ولتحنّيهم هذا على الشعر دواعٍ أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعيّ إليه . قد تقدّم غير مرّة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر في سياسة العرب في الجاهلية والقرن الأوّل للهجرة فشبّهْنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة في الأقطار المتكلّمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بيّناه عند الكلام في الصنف السادس من الشعر في أيّام بني أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غَرْوَى إذًا أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجليلة والصلات الجزيلة لينتفعوا بهم ويتّخذوهم دفاعًا عن أغراضهم بالمديح ومضادّةً للأخصام بالهجاء . فترون أحيانًا واليًا من الولاة ذاهبًا إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنهم من مستعمَليهِ ومعاونيه في أمور ولايته . وفي الحقيقة ربّما استخدمت أربابُ الدولة الشعراء وأبياتَهُم لتغيير الرأي العامّ حسب أغراضهم الخاصّة وحملِ الناس على ما كانوا في أوّل الأمر يكرَهونه فمثال ذلك مسألة بَيْعة يزيد في أيّام والده معاوية . لا يخفى عليكم أنّ العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بتوارث الخلافة كابرًا عن كابر لمضادّته سُنَنَهم القديمة المألوفة في اختيار سادة أقوامهم فلمّا أراد معاوية إيثار ابنهِ بالعهد دون من سواه أظهر قوم في المجلس شدّة كراهتهم لذلك وبعد

مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ — ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان الى « بعض شعراء الشام » في الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٨) وديوان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ « وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منحول » (LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'âwia Ier*, p. 419)

[وراجع أيضاً: LAMMENS, *Le Califat de Yazid Ier*, Beyrouth 1921, p. 453; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur-und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, p. 28-72; G. LEVI DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I*, (*Islamica*, II, 1926, p. 373-379)] .

ما غلب فى الوفد الرأى بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لا سيما فى العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء فى كتاب الأغانى ما نصّه[١] : « كان يزيد بن معاوية يُؤثِر مسكيناً الدارمىّ ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البَيْعة ليزيد تهيَّب ذلك وخاف أن لا يمالئه عليه الناس لحُسْن البقية فيهم وكثرة من يُرَشَّح للخلافة وبلغه فى ذلك ذَرْوُ كلام[٢] بلغه كَرْهُهُ من سعيد بن العاص ومروان بن الحَكَم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ويُنْشِدها معاويةَ فى مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بنى أمية فلمّا اتّفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليْهِ وأشراف الناس فى مجلسه فمثُل بين يديه وأنشأ يقول » شعراً منه هذه الأبيات[٣] :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيدُ

بنى خُلَفاءِ الله مهلًا فإنّما يبوّئها الرحمن حيث يريدُ

إذا المنبرُ الغربىُّ خلاه ربُّهُ فإنّ أميرَ المؤمنين يزيدُ

ومن الشعراء الذين قالوا الشعر فى هـذه البيعة الأخطل[٤] العظيم الحظّ عند يزيد فـكثرة سماع مثل تلك الأبيات كانت تؤثّر فى نفوس الناس تأثيراً خفيًا وتعوّدهم شيئاً فشيئاً ما كانوا يُنكِرونه . — ومن هذا الباب أيضاً ما رواه أبو زكرياء يحيى التبريزىّ فى شرح الحماسة[٥] أنّ عبد الله بن همّام السَلُولىّ كان « مكيناً عند آل مروان وهو الذى بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية فى قوله » :

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٧١ .

(٢) قال الميدانى فى المثل « ذرى بما عندك يا ليغاء » : « الذرو الطرف والقليل من الكلام ... يقال سمعت ذروا من الخبر إذا لم تستقصه » .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٧١ . فراجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ .

(٤) ديوان الأخطل ص ٩٥ سطر ٦ .

(٥) حماسة أبى تمام ص ٥٠٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

تعزَّوْا يا بنى حرب بصبْرٍ فمَنْ هذا الذى يرجو الخُلودا
خلافةُ ربِّكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
تلقَّفها يزيد عن أبيه فخُذْها يا معاوىَ عن يزيدا

وجاء فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ(١) أنّ عِمْران بن عِصَام العرنى(٢) الشاعر الخطيب « هو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد ابن عبد الملك فى خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة » . فإليه لمح صاحب كتاب الأغانى(٣) فى رواية أوردها بحروفها : « قال الحجّاج يوماً لأهل ثقته من جلسائه : ما من أحد من بنى أمية أشدّ نَصْبًا لى من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيّام إلاّ وأنا أتخوّف أن تأتينى منه قارعة فهل من رجل تدلّونى عليه له لسان وشعر وجَلَد ؟ قالوا نعم عمران بن عِصام العنزىّ . فدعاه فأخلاه ثمّ قال له اخرج بكتابى هذا إلى أمير المؤمنين فاقدَح فى قلبه من ابنـه شيئاً فى الولاية . فقال له عمران : دُسَّ أيها الأمير إلىّ دسًّا . فقال له الحجّاج : إن العَوانَ لا تعلَّمُ الخِمْرَةَ . فخرج بكتاب الحجّاج فلمّا دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجّاج وأمر العراق فاندفع يقول :

أميرَ المؤمنين إليك أُهْدى على الشَّحْطِ التحيةَ والسلاما
أميرُ من بنيك يكُنْ جوابى لهمْ أُكْرومةً ولنا نظاما
فلو أن الوليد أطاع فيه جعلتُ له الإمامة والذِماما »

---

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرنى بل هى العنزى فى كتاب الأغانى (ج ١٦ ص ٦٠) . ولم يذكر الشاعر فى خزانة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى حماستى أبى تمام والبحترى [ولا فى طبقات ابن سلام ولا فى المؤتلف للآمدى . فضبط العرنى بضم العين وفتح الراء فى كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٦٠ — عوان النصف فى سنها من كل شىء . قال الميدانى فى مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠) : « والخِمْرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس اسم للهيأة والحال أى أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار يضرب للرجل المجرب » .

فكفى بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحلّ إلى الشعراء .
وسبب آخر ما فى طبيعة أكثر الناس من حبّ الفخر والتقريظ والمدح فمن سليقتهم أن يَصْغَوْا إلى سماع كلام يملقهم لا سيّما إذا كان ذلك الكلامُ محبَّراً شديدَ الوقوع فى القلوب لرونقه وانسجامه . وإن راجت مدائح الشعراء عاد الرواج على الممدوحين بمنفعة لا تُنْكَر فلم تفُت الجاحظ[١] أهمية ذلك حيث قال : « ولولا أنّ دولة بنى العباس أعجمية خرسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية وفى أجناد شامية والعرب أوعى لما تسمع واحفظ لما تأتى ولها الأشعار التى تُقيِّد عليها مآثرَها وتخلّد لها محاسنها وجرت من ذلك فى إسلامها على مثل عادتها فى جاهليتها فبنت بذلك لبنى مروان شرَفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يُحْصَى ولو أن أهل خراسان حفِظوا على أنفسهم وقائعهم فى أهل الشام وتدبيرَ ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى فى ذلك من فوائد الكلام وشريف المعانى كان فيما قال المنصور وما فعل فى أيامه وأسّس لمن بعده ما يفى بجماعة ملوك بنى مروان » . فإن تأمّلنا ذلك ما استغربنا ما يروى فى كتاب الأغانى[٢] : « أتى نُصَيْب عبدَ الله ابن جعفر فحمله وأعطاه وكساه فقال له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبدَ الأسودِ هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض وإنّ شعره لعربىّ ولقد استحقّ بما قال أكثر ممّا نال وما ذاك إنّما هى رواحل تُنْضَى وثياب تُبْلَى ودراهم تُفْنى وثناء يبقى ومدائح تُرْوَى » .

إلّا أنّ المديح كان سبب هَيَجان طَمَع الشعراء فى المال وهِمّتهم الساقطة فقلّ عدد الذين لم يجعلوا الشعر مَتْجَراً وأَنِفوا من السؤال بالمدائح مثل جميل بن عبد الله بن مَعْمَر الذى يُحْكَى أنّه لم يمدَح أحداً قط سوى ذويه وأقاربه[٣] . أمّا أغلبهم فلم يستحوا

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٥٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١] .
(٢) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

من إظهار طمعهم أىّ إظهار وجعْل أنفسهم بمنزلة الفقراء السائلين كما قال نُصَيْب[١] :

لعبد العزيز على قومه وغيرِهم مِنَنٌ غامِرَهْ
فبابُكَ ألْيَنُ أبوابِهِمْ ودارُكَ مأهولةٌ عامِرهْ
وكلبُكَ آنَسُ بالمُعْتَفين من الأُمّ بابْنَتِها الزائرهْ
وكفُّكَ حين ترَى السائليـــن أنْدَى من الليلة الماطرهْ
فمنْكَ العطاء ومنّا الثَّناء بكلّ محبَّرةٍ سائرهْ

فألّف حاجب بن ذُبْيان المازنىّ قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلّب بخراسان فابتدأ قائلاً[٢] :

إليك امتطيتُ العِيسَ تسعين ليلةً أُرجّى نَدَى كفّيْك يا ابن المهلَّبِ
وأنت امرؤ جادت سماء يمينه على كلّ حىّ بين شرْق ومغربِ

ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسمعيل بن يسار فى قصيدة أنشدها بين يدى عبد الملك بن مروان[٣] :

إليك إمامَ الناس من بطن يثْرِبَ ونِعْمَ أخو ذى الحاجــة المتعمّدِ
رحلنا لأنّ الجودَ منك خليقةٌ وأنّك لم يذْمُمْ جنابَك مجتدِ

قد مرّ عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام فى الكوفيّين ذكرُ شعراء متعدّدين امتدحوا بنى أميّة فى بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة عالية فى الصناعة مثل كعب بن جُعَيْل والمتوكّل الليثىّ فى أيام معاوية والأخطل فى أيّام يزيد وهلمّ جرّاً وسنذكر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أنّنا نجد مع هؤلاء النوابغ عدداً غير يسير ممن

---

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١ ص ١٣٣ وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ١٤١ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب الأغانى ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

لم يعلُ أبداً عن رتبة الشُوَيعِر أو الشُعْرور واجتهد على ذلك فى نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية فى المديح وملأها ألفاظاً طنانة رنانة وتشابيه غريبة وبالغ فى إطرائه أىّ مبالغة مثل قول طُرَيح بن إسمعيل الثقفىّ من أهل الطائف فى الوليد ابن يزيد بن عبد الملك[1] :

أنت ابنُ مُسْلَنْطِحِ البطاحِ ولم تُعْطَفْ عليك الحُنِىُّ والوَلَجُ
لو قُلْتَ للسَّيل دَعْ طريقك والـ ـمَوْجُ عليه كالهَضْب يَعْتَلِجُ
لارتدَّ أو سَاخَ أو لكان له فى سائر الأرض عنك مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات التى لا يستحسنها من له الذوق السليم ومثل هذه التشابيه المُضْحِكة لم تندُر عند أصاغر المُدّاح فيروى[2] أنّ عبد الملك بن مروان قال يوماً : « يا معشر الشعراء تشبّهوننا مرّةً بالأسد الأبْخَر ومرّةً بالجبل الأوْعَر ومرّةً بالبحر الأُجاج ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خرَيْم فى بنى هاشم » (الأبيات المرويّة ص ٢٥٢) .

فخلاصة القول أنّ أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام فى أيام بنى أميّة خمسة :

(١) ما هو مغروز فى قلوب العرب الصميم من الولوع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويّين إلى الشعر وتعطّفهُمْ على قائليه بل كونُ كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرُها فيما يتّصل بالأمور السياسيّة .

---

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع فى كتاب الأغانى ج ٤ ص٧٦ — ٨٦ ترجمة طريح بن إسمعيل الثقفى الذى (ص٧٧) « نشأ فى دولة بنى أمية واستفرغ شعره فى الوليد بن يزيد وأدرك دولة بنى العباس ومات فى أيام المهدى وقيل الهدى » وتروى الأبيات المذكورة فى كتاب الأغانى ج ٤ ص٨٠ — ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه إن طريح قالها فى أبى جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغانى فى الموضع المذكور وكتاب العقد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً فى كتاب الأغانى ج ١٣ ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه أبياتاً لكعب الأشقرى .

(٤) حُظْوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواء لمجرّد استلذاذهم الملَق أم لانتفاعهم بالمدائح السائرة فى الأقطار .

(٥) زيادة الترّف والرفاهية التى يزيد بها نَفاقُ أسواق الآداب .

ومما يُستغرَب بادئ نظر قلّةُ الشعراء الشاميّين من أهل الحضر فى خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بيّنا فيما سبق (ص ١٠١ — ١١٦) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريّين الحجازيّين حتّى نكاد لا نعثر عندهم على غيره من فنون الشعر مدّة القرن الأوّل (بعد خلافة عمر بن الخطّاب) وفى أوائل القرن الثانى . وأوضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرونق الشعرُ فى الغزل والخمريّات فى مدن العراق الجنوبيّة فى ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتّصل بأغراض الأحزاب والفِرق . فمن أين خمولُ الشعر ذلك عند الحضر بالشام ومن أين فتورهم فى الاعتناء بنسج القريض ؟ ولِمَ امتنعوا مدّة عن الغزل والخمريّات على الأسلوب المُحْدَث بالحجاز والعراق كأنّهم لم يعرفوا إلّا القصائد على منوال القدماء وأهل البادية .

إنّ لذلك أسباباً . تفكّروا أوّلاً فيما تقدّم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعنى أنّ الذين انتقلوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلاميّ و بعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفُهم أو أكثر كانوا يمنيّين أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أنّ هؤلاء المتنقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألِفوا عِيشة المدن إلّا شيئاً فشيئاً بعد مدّة غير قليلة فمكثوا يأنفون سُكْنى المدن يحِنّون إلى التعرّب أى الرجوع إلى براريهم المتّسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذاتُ الخلفاء الأمويّين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصدون البادية وقصورهم فى أرض البلقاء كلّما لم يمنعهم عن الخروج إليها مانع مهمّ . — أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط بل توجّهت إليها واستقرّت فيها جملة من حضريّى الحجاز لمّا نقل علىّ بن أبى

طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثمّ فى أيّام ذهاب الحسن بن علىّ وآل الزبير إلى نواحى السواد .

ثمّ تأمّلوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب فى العراق وأحوالهم فى الشام قبيل ظهور الإسلام . من المشهور أنّ المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا فى الجنوبيّة حضريّين من العرب وهم قسم من سكّان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتّخذوا جزءا من الحضارة العجميّة . فرأينا أنّ الخمريّاتِ التى اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة فى أيّام بنى أميّة إنّما كانت من جنس الخمريّات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها فى عهد الجاهليّة كأنّها بأسرها مذهب شعرىّ واحد متواتر لم يزل فى تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيّام الدولة العبّاسيّة . فواضح أيضاً أنّ وجود أولئك العرب الحضريّين فى العراق سهّل وعجّل اختلاط المحتلّين الإسلاميّين بمن جاورهم من العجم هناك . — أمّا فى الشام فالأمر خلاف ذلك . كانت اللخميّون فى العراق فى القرن السابق للهجرة من أهل الحضر أمّا بنو غسّان بالشام فلم يزالوا متوسّطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يُقيمون تارةً بمساكن ثابتة بالبناء والمدر وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان لدفاع غاراتِ قبائل الأعراب المستقلّة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلّاتهم مثل جِلّق والجابية قارنة بين صفات المعسكر المتنقّل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواصّ الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أنّ الجيوش الإسلاميّة لمّا فتحوا بلاد الشام ما وجدوا فى مدنها وقراها سكّاناً من العرب خلافاً لما اتّفق لهم فى العراق فأعدمهم مَنْ يكون واسطة بينهم و بين الأهالى . ولكون أغلب المحتلّين من أهل البادية الكارهين القرار فى الأمصار تمادى بالشام البون الكبير بين العرب و بين سكّان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عامّ بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلّا نحو أواخر القرن الأوّل . فبتأخّر الاختلاط تأخّر انتقال معظم المتغلّبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخّر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المألوف للحضر .

ثمّ لبقاء الشعر فى الشام على منوال قصائد النوابغ من عهد الجاهليّة سببان آخران أعنى ميل الخلفاء الأوّلين من بنى أميّة إلى ذلك النوع من الشعر وشدّة سُلْطة معاوية فى بلاد الشام. يروى فى كتاب العقد الفريد لابن عبدربه[١] أنّ هذا الخليفة الأجلّ قال مرّة لعبد الرحمن بن الحكم : « يا ابن أخى إنّك شُهِرْتَ بالشعر فإيّاك والتشبيب بالنساء فإنّك تَعُرّ الشريفة فى قومها والعفيفة فى نفسها والهجاء فانّك لاتعدو أن تُعادِىَ كريماً أو تستثير به لئيماً ولـكن افخَرْ ببيت قومك وقُلْ من الأمثال ما توقّر به نفسك وتؤدّب به غيرك » . فلا شكّ أنّ هذا القول ولو لم تصحّ راويته على هذه الصفة هو ترجمان فكر معاوية فى الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار . وحرّم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغِناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز فيروى على صفة استثناء أنّ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية فى دار عياله ولم يرَ به بأساً أن يغنَّى ليلة فى تلك الدار[٢] . ونفذ ذلك التحريمُ بالشام مدّة القرن الأوّل على غرام بعض الخلفاء بسماع الالحان . ويروى فى موضع من كتاب الأغانى[٣] أنّ يزيد بن معاوية كان « أوّل من سنّ الملاهى[٤] فى الإسلام من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفَتْك وشرب الخمر . . . وكان يأتيه من المغنّين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلَع عليه ويصِله » . ولـكن إن راجعتم الأخبار عن يزيد والمغنّين وجدتم أنّه كان يلقاهم عادةً بالحجاز ولم يقبَلْهم بدمشق إلّا فى أندر النادر وسرًّا بمساعدة أصدقائه المدنيّين لا سيّما عبد الله بن جعفر[٥] . وسائب خاثر

---

(١) كتاب العقد ج ٣ ص ٩٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨٢ — ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ وراجع الحكاية فى كتاب الأغانى ج ٧ ص١٨٩ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٦ ص ٧٠ .

(٤) والملاهى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية .

(٥) ولعله لم يقبل شاعرا فى الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٠٣ — ١٠٤ و١٨٩ من طبعة بولاق) .

المذكور فيما تقدّم إنّما كان من ساكنى المدينة(١) . أمّا أوّل الأمويّين الذى أدخل المغنين فى الشام فالوليد بن يزيد (١٠١/٧٢٠ — ١٠٥/٧٢٤) وهو أراد أوّلا أن يُدخِلهم خِفْيةً مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغانى(٢) : « إنّ الوليد ابن يزيد لمّا ولى الخلافة بعث إلى المغنّين بالمدينة ومكّة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرّقوا ولا يدخلوا نهاراً لئلا يُعْرَفوا وكان إذ ذاك يتستّر فى أمره ولا يُظْهِره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهاراً وشُهِر أمرهُ فحبسه الوليد وأمر به فقُيِّد وأَذِن للمغنّين وفيهم مَعْبَد فدخلوا عليه دخلاتٍ ثمّ إنّه جمعهم ليلةً فغنّوْا له حتّى طرِب وطاب نفسه إلخ » .

لعلّكم تسألون لماذا هذا الكلام فى صناعة الغِناء وإدخالها فى بلاد الشام ؟ ألم نكن نبحَث عن صناعة الشعر لا غير ، أقول إنّ بين الصناعتين صلةً قويمة لا يجوز إهمالُ الفحص عنها لمن يريد بيان سيْر الشعر وتقلّباتهِ فى أيّام بنى أميّة . لمّا تكلّمتُ عن الغزل الحقيقىّ بمدن الحجاز أثناء القرن الأوّل أوضحتُ تعلقه بتقلّب الأحوال الاجتماعيّة والاقتصادية فى الحرمين وزيادة الترَف والرّفَه بعد الفتوحات الإسلاميّة الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرّقاب وأشرتُ إلى الاتّفاق الواقع بين قدوم المغنّين والمغنّيات من الموالى بمكّة والمدينة و بين أوائل انتشار الشعر الغزلىّ فيهما . وذكرتُ أنّ أولئك الموالى كانوا فى بدء الأمر يغنّون بالرومىّ أو الفارسىّ ثم عدلوا إلى الغناء بالعربىّ فأصبحوا من أشدّ العوامل فى إهمال نسج القصائد على منوال المعلّقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدّبين . إنّ الالحان التى دخل بها الموالى والمماليك فى المدن الحجازيّة كانت من الأنواع المُسِرّة والمُطرِبة وهى ممّا اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام ترويحاً للنفوس وتسلية للقلوب لا سيّما فى أيّام العيد والفرح أو عند المنادمة والمجالسة فما صلُحتْ لها الأعاريض الطويلة الثقيلة ولا أشعار مدارها

(١) قتل سائب خاثر فى سنة ٦٣/٦٨٣ يوم الحرة (راجع آنفا ص ١٠٥ حاشية ٢)

(٢) كتاب الأغانى ج ٤ ص ٨١ — ٨٢ من طبعة بولاق فراجع كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ (وفيه محمد بن أبى عائشة بدلا من محمد بن عائشة) .

على وصف أعضاء الناقه ومخاوف الفيافى ومتاعب السفر فى الرمال وغروات القبائل إذ لا يُنْكَر الارتباط الواقع بين نوع النَّغْمة والغناء المُتقَن الصنعة و بين عروض الشعر ونحواه . وزيدوا على ذلك أنّ أولئك المغنين لأصلهم من العجم والحضر استصعبوا فَهْم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحُّش المعنى . فإن تأمّلتم أيضاً أن الشعراء من حضريّى العراق والحجاز وجدوا الشعرَ أسراعَ رواجاً وأواسعَ شُهْرةً وألذَّ للنفوس وأوقعَ فى قلوب الناس إذا غُنِّىَ على آلات السماع تمكّنتم من تقدير ما كان لصناعة الغناء والألحان من التأثير فى تقلّب أفانين الشعر.— فالمحتمل عندى أنّه لولا منْع الغناء المُتقَن والسماع إلى أواخر القرن الأوّل فى بلاد الشام لما تأخّر نبوغ الغزل والخمريّات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدّة طويلة .

فلجملة هذه الأسباب قلَّتْ بالشام الشعراء من الحضر[1] إلى أواخر القرن الأوّل فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنيّة من رقّة العواطف ولينة الألفاظ وعذوبة الكلام لم يزل متوسّطاً بين الشعر الجاهلىّ و بين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق. أمّا الخمريّات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأوّل وما ذكروا الخمر إلّا لمجرّد وصفها أو للتشبيه بها مثل قول عدىّ بن الرِّقاع[2] :

أميدُ كأنّى شاربٌ لَعِبَتْ به   عُقارٌ ثَوَتْ فى سِجْنِها حِجَجاً سَبْعَا

---

(١) لا أعد فى شعراء الشام من الحضر عبد الرحمن بن الحكم أخا الخليفة مروان بن الحكم ($\frac{٦٤}{٦٨٣}$ — $\frac{٦٥}{٦٨٥}$) لأنه أقام بالحجاز مدة أطول من إقامته بالشام بل لم يزل فى بلاد الحرمين حتى نفاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بنى أمية . وكان « متوسط الحال فى شعراء زمانه وكان يهاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » (كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره القريب من نوع الخمريات والخلاعة الأبيات الثلاثة المروية له فى كتاب الكامل للمبرد (ص ٧٢ من طبعة ليبسك او ج ١ ص ٦٠ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٧٢ — ٧٦

(٢) كتاب معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٥٨٩ من طبعة ليبسك . يروى البيت الأول والثانى فى لسان العرب ج ٤ ص ٤١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكرت شربها » وبهذه الرواية صار الشاعر شارب خمر .

مَقدِيَّةٌ صهباء تُشْخِنُ شَرْبَها إذا ما أرادوا أنْ يراحوا بها صَرْعَى
عُصارةُ كرم من حُدَيْجاء لم يكن منابتها مُسْتَحْدثات ولا قُرْعَا

أو مثل قوله[1] :

كُمَيْتٌ إذا شُجَّتْ وفى الكاس وَرْدَةٌ لها فى عِظام الشاربين دبيبُ
تُريك القَذَى من دونها وهْى دونه لوَجْهِ أخيها فى الإناء قُطوبُ

فيروى أنّ سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ — ٩٩/٧١٧) لمّا سمع هذين البيتين قال لعدىّ بن الرقاع : شرِبْتَها وربّ الكعبة . قال عدىّ واللّه يا أمير المؤمنين لئن رابَكَ وَصْفى لها قد رابنى معرفتُك بها . فتضاحكا وأخذا فى الحديث . — فنفس هذه الحكاية تدلّ على ما أردنا بيانه أى ندرة شرب الخمر عند أهل الحضر بالشام وإمساك شعرائهم عن الخمريّات أثناء القرن الأوّل خلافاً لحضر العراق . وما هو مشهور من انهماك الأخطل فى الشراب وأشعاره فيه لا يدحَض قولى إذ كان الأخطل بدويّاً عراقيّاً نصرانيّاً .

كان عدىّ بن الرقاع[2] السابق ذكره من أقدام شعراء الحضر بالشام مدّاحاً لبنى أميّة كثير الحظّ عندهم لا سيّما الوليد بن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ — ٩٦/٧١٥) ومنزله بدمشق وهو من المُجيدين فى المديح والنسيب الرقيق اللطيف الخالى عن تغزُّل شعراء الحجاز والعراق. ومن أبياته التى ذكر فيها عنايته بإتقان بِنْيةِ شعرِه وخِبْرَتَهُ بأحوال الحياة[3] :

وقَصيدةٍ قد بِتُّ أجمعُ بَيْنَها حَتّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنادَها
نَظَرَ المثقِّفُ فى كُعُوبِ قَناتِهِ حَتّى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنْآدَها

(١) كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٧٩ — ١٨٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٩١ — ٣٩٣ (وص ١٧) من طبعة ليدن وتروى له أبيات فى الكامل للمبرد ص ٨٥ من طبعة ليبسك او ج ١ ص ٧١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٤ — ١٤٥] .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٩٢ من طبعة ليدن .

أَوَمَا تَرَى شَيْبًا تَفَشَّغَ لِمَّتِى ‏ ‏ حَتَّى عَلَا وَضَحٌ يَلُوحُ سَوَادَهَا

فَلَقَدْ تَبِيتُ يَدُ الفَتَاةِ وِسَادَةً ‏ ‏ لِى جَاعِلًا إِحْدَى يَدَىَّ وِسَادَهَا

وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ المَعِيشَةِ لَذَّةً ‏ ‏ وَلَقِيتُ مِن شَظَفِ الخُطُوبِ شِدَادَهَا

وَعَمِرْتُ حَتَّى لَسْتُ أَسْأَلُ عَالِمًا ‏ ‏ عَن حَرْفِ وَاحِدَةٍ لِكَىْ أَزْدَادَهَا

صَلَّى المَلِيكُ عَلَى امْرِئٍ وَدَّعْتُهُ ‏ ‏ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا

ومن لطيف شعره[1] :

وَمِمَّا شَجَانِى أَنَّنِى كُنْتُ نَائِمًا ‏ ‏ أُعَلَّلُ مِن بَرْدِ الكَرَى بِالتَّنَسُّمِ

إِلَى أَنْ بَكَتْ وَرْقَاءُ فِى غُصْنِ أَيْكَةٍ ‏ ‏ تُرَدِّدُ مَبْكَاهَا بِحُسْنِ التَّرَنُّمِ

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ‏ ‏ بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِى فَهَاجَ لِى البُكَا ‏ ‏ بُكَاهَا فَقُلْتُ الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

ومن نصّ وارد فى كتاب الاغانى[2] ومما نقلته آنفاً من كتاب العقد الفريد يستنتج أنه أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومن معاصرى عدىّ بن الرقاع المشهورين شاعر ليس أصله من العرب وهو أوّل من قال الشعر الجيّد اللطيف بالعربىّ من السود أعنى به نُصَيْب بن رباح[3] مولى عبد العزيز بن مروان . واختلفوا فى أصله فلو صحّت رواية من قال إنه من أهل وَدّان[4] وعبد لرجل من بنى كنانة الساكنين هناك إشتراه عبد العزيز لكان من

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٠٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ ويروى البيتان الأخيران أيضا فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ١ ص١٢٩ — ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٢ — ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع U. RIZZITANO, *Abû Miḥgan Nuṣayb ibn Rabâḥ* (*Rivista degli Studi Orientali*, XX, Roma 1943, p. 421-472; XXII, 1947, p. 23-35.

(٤) وعلى الأرجح ليست ودان نصيب المدينة المشهورة فى أفريقية بل هى موضع بين مكة والمدينة المنورة يذكره نصيب فى أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليبسك)

المغاربة. والمحتمل إذا أنّ عبد العزيز[١] اشتراه فى أيّام ولايته مصر فى خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كلّ حال عاش نصيب بالشام وبها قال أكثر شعره فيُعَدُّ من المقدّمين عند خلفاء بنى أميّة الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة[٢] وهو أجاد المديح والمراثى والنسيب ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنّه لم ينسب قط إلاّ بامرأته . وتجدون عدّة أشعاره فى كتاب الأغانى فأقتصر على ذكر بيتين له مرويَّيْن فى حماسة أبى تمام[٣] معناهما كثير الشّبه بمعنى أبيات عدىّ بن الرقاع المذكورة آنفاً :

لقد هَتَفَتْ فى جِنْحِ لَيلٍ حمامةٌ ... على فَنَنٍ وَهْنًا وإنّى لَنائمُ
كذَبْتُ وبيتِ اللهِ لو كنتُ عاشقاً ... لمَا سبَقَتْنى بالبكاءِ الحمائمُ

وما وقفتُ على سنة وفاتهِ فالواضح عمّا جاء فى كتاب الأغانى[٤] أنّه كان فى قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة ٨٥/٧٠٤ .

كفى ما تقدّم دليلاً على قدر الفرق بين شعر الحضر بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز فى القرن الأوّل غير أنّ هذا الفرق اضمحلّ بعد أوائل القرن الثانى بقليل إذا تقلّبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدّة الخلفاء فى حكومتهم وأخذهم فى تقليد أبّهة قدماء الملوك من بنى ساسان بالمدائن وفخامة ملوك الروم بالقسطنطينيّة فى اللباس والطعام والأوانى وجميع أنواع الترف . وجُلبت الخِصْيان من بلاد الروم وأُدخلت فى دمشق المغنّون والمغنّيات عَلَناً فى أيام الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤) حسبما شرحته فيما تقدم وأظهر شربُ الخمر وفسُدت الأخلاق

---

(١) توفى عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥/٧٠٤ .

(٢) انظر الأبيات المروية له سابقا ص ٢٦٣ .

(٣) كتاب الحماسة لأبى تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغانى ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بولاق .

ودبّت فى عرب المدن الخلاعة . فبتقلُّب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين الشعر فعمّت الشام الأشعار فى الخمر والغزل .

ورئيس هؤلاء الشعراء الذين ذهبوا بدمشق المذهب الجديد الوليد بن يزيد[١] الذى وصفه صاحب الأغانى قائلاً[٢] : « وكان من فتيان بنى أميّة وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدّائهم وكان فاسقاً خليعاً متّهماً فى دينهِ مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتّى أنكره الناس فقُتل وله أشعار كثيرة تدلّ على خُبثه وكُفْره ومن الناس من ينفى ذلك عنه ويُنكِره ويقول إنّه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك » . وقال بعض الرواة إنّ الذى أضلّه مؤدّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينهِ[٣] . — فلو جمعنا ما يُعْزَى إلى الوليد من الأشعار وما يُرْوَى فى حقّه من الأخبار وما يُنْسَب إليه من الكلام الكثير الوَقاحة والدّناءة لاستغربناه كلّ الاستغراب وتعجّبنا منه بتقليده منصِبَ الإمامة ولو مدّةً يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطّلع عليه فى بعض الكتب[٤] :

أنا الإمامُ الوليدُ مفتخراً أجُرُّ بُرْدِى وأسمعُ الغزَلَا
أسْحَبُ ذَيْلى إلى منازلها ولا أبالى مَن لامَ أو عَذَلا

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٠١ — ١٤١ وج ٨ ص ١٦١ — ١٦٢ من طبعة بولاق وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفى باب الحادى بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٥ — ١١ من طبعة باريس ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [— ١٣٢٥] ويروى له بيتان « فى المجازات بالخير والشر مثلا بمثل » فى حماسة البحترى ص ٢٣٧ من طبعة ليدن أو ص ١٦١ عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walîd ibn Yazîd, il califfo e il poeta* (*Rivista degli Studi Orientali*, XV, 1934, pp.1-64)]

(٢) كتاب الأغانى ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الغفران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ — ١٣٢٥ .

ما العيشُ إلّا سماعَ مُحْسِنةٍ وقهوةً تتركُ الفتى ثمِلا

لا أرتجى الحورَ فى الخلود وهل يأمُلُ حورَ الجنانِ مَن عقَلا

إذا حبَتْكَ الوصالَ غانيةٌ فجازِها بذلَها كمَنْ وصلا

ويقال إنه لمّا أُحيطَ به دخل القصر وأغلق بابه وقال[1] :

دَعوا لِيَ هِندًا والرَّبابَ وفرتَنَى ومُسْمِعَةً حَسْبِي بِذلكَ مالا

خُذوا مُلْكَكُم لا ثبّتَ اللهُ مُلْكَكُم فَلَيس يُساوِى بعد ذاكَ عِقالا

وخلّوا سَبيلى قَبل عَيْرٍ وما جَرى ولا تحسُدونى أن أموتَ هُزالا

غير أن الحكْمُ المُنصِف فى الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأمّلنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويّين . فُقدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سِيَر بنى أمية منقول من مؤلّفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا فى تسويد معاوية ويزيد لما جرى بينهما وبين علىّ بن أبى طالب وآله . أما المتعصبون ببنى العباس فاجتهدوا فى تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بنى أمية لما وقع من العداوة بينهم وبين بنى هاشم . ثم تفكّروا فى أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أنّ الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا فى قبول روايات الحاقدين على بنى أمية بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهواءهم فنتيجة كل ذلك أن المؤرخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبى الفداء اغترّوا وضلّوا أىّ ضلال فى بعض ما رووْه من أخبار الأمويّين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأول من وضع الأحاديث بُغْضًا لبنى أمية وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى النبى القول بأن سيقوم فى بنى ثقيف كاذب ومُبير فإنّهم فسّروا هذا الحديث

---

(١) رسالة الغفران ص ١٤٦ وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

قائلين بأن الكاذب مختار بن أبي عبيد والمُبير الحجّاج بن يوسف (١) . وفى حديث آخر مختلَق كالسابق يُظهِر النبي وهو مُشرِف على الموت كراهته لثلاثٍ من قبائل العرب أى بنى ثقيف و بنى حنيفة و بنى أمية (٢) . وكذلك نُسِبَ إلى النبيّ أنّه لقى رجلاً قد سمّى ابنه الوليد فقال له : أنتم تسمّون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنّه سيقوم رجل اسمُهُ الوليد يضرُّ أمتى أكثر مما ضَرَّ فِرْعونُ شعبَه (٣) . فلو راجعتم الأحاديث الموضوعة من باب الفتن والملاحم والمهدى (٤) عثرتم على مثل ذلك مما زُوِّر لتسويد أغراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية . وفى وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض فى القرن الثانى والثالث دلالة على التقلّب العظيم الذى حدث فى ذلك العصر فى هيئة المسلمين الاجتماعية . إنّ العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصامهم وشتْمهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأن الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم . أما الشعوب الإسلامية غيرُ العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح فى تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجؤوا إلى المصنّفات المنثورة على كثرة أنواعها . ومنها الأحاديث الموضوعة . فمن يريد البحث العميق فى تاريخ الأمم الإسلامية لا بد له من الاطّلاع على تلك الأحاديث المختلَقة المزوَّرة لأنها فى الحقيقة خزانة آراء الفِرَق وأغراض الأحزاب التى كثيراً لا تتضح من الكتب المؤلَّفة فى العلوم التاريخية فتشبه منزلتُها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثانى .

---

(١) رواه Goldziher فى كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصابيح السنة للبغوى وابن بدرون .

(٢) راجع الموضع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بنى حنيفة لم يذكروا فى هذا الحديث إلا لكون نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة منهم .

(٣) راجع GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110 .

(٤) انظر مثلا الترمذى وأبا داود وراجع GOLDZIHER, *Muhammedanische Studien*, II. p. 127

و بعد هذا الاستطراد أرجعُ إلى سياق الكلام فأقول إنّ الوليد برىء على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخبار والأشعار . ولكن ولو سلّمنا ورود التزوير فيها والافتراء فى حقّه لا ريب أنّه تمادى فى الشرْب واللذات وأفرط وإنّ كثيراً مما يُرْوَى من غزليّاته وخمرياته صحيحُ الرواية موثوق به . ولعل غرامهُ سماع أشعار القدماء الذين عاشوا فى مملكة الحيرة لا سيما عدى بن زيد العبادى أثّر فى أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أن أثّر فى شعر الحضر من العراقيين أثناء القرن الأوّل والثانى للهجرة . فواضح أن منظوماتِ شعراء الكوفة وشعراء دمشق فى أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين فى أيام بنى العباس .

٨ — فعلينا الآن أن ننتقل إلى الصنف الثامن من الشعر فى أيّام بنى أميّة وهو الذى سمّيته الشعر القَصَصِىّ اليَمَنِىّ .

لمّا تكلمت عن شعر النصارى فى زمن الجاهليّة أومأتُ إلى ما جاء به عدىّ ابن زيد العِبادىّ فى بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكرُ عبرةً للمعتبرين برهاناً على زوال الأرضيّات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد نصيحةً لأولى الألباب لئلا يُغرّوا بِطيب العيش وأُبّهة المُلْك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حائيّة مشهورة منسوبة إلى نصرانىّ آخر من أيّام الجاهليّة أعنى قُسّ ابن ساعدة الإيادىّ يَذْكُرُ فيها بعضَ من هلك من ملوك حِمْيَر الكبار ليتفكّرَ الإنسانُ فى فناء جميع ما ربّما يبغيه و ينافِس فيه من السودد والمال واللذّات[1] .

ومن المشهور أنّ بعض المتأخّرين سلكوا هذا المسلك من الزُّهْديّات لنظم ما يُشْبِه مختصر تاريخ الدول منهم عبد المجيد بن عبدون المتوفّى سنة ٥٢٩ ناظم القصيدة الطويلة المسمّاة بالبشّامة ألّفها عند انقراض دولة بنى الأَفْطَس بمدينة يابُرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ فلمّح فيها إلى أحوال جميع دول الأندلس منذ الفتح الإسلامىّ

---

(١) راجع مثلا شعراء النصرانية ص ٢١٧ — ٢١٨ وأيضاً VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

فبادرت العلماء إلى شرحها بشروح مطوّلة أصبحت كتباً تاريخيّة لا غير[١] . ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتّخذوا الزهديّات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول نَشْوان ابن سعيد الحِمْيَرِىّ المتوفى سنة ٥٧٣ صاحب القصيدة الحميريّة[٢] المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلى صفة سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير . وهى قصيدة حائيّة مثل القصيدة المنسوبة إلى قُسّ بن ساعدة وأوّلها :

الأَمْرُ جِدٌّ وَهْوَ غَيْرُ مُزاحِ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صالِحًا يا صاحِ
كَيْفَ البَقاءُ مَعَ اخْتِلافِ طَبائِعَ وَكَرِّ لَيْلٍ دائِمٍ وَصَباحِ

و بعد المطلَع المحتوى على تسعة أبيات فى الزهد يبتدئ الشاعر يقول :

أفأَيْنَ هُودٌ ذو التُّقى وَوَصِيَّةٍ قَحْطانُ زَرْعُ نُبُوَّةٍ وَصِلاحِ
أَمْ أَيْنَ يَعْرُبُ وَهْوَ أَوَّلُ مُعْرِبٍ فى النّاسِ أَبْدَى النُّطْقَ بالإفْصاحِ

ثمّ ألّف نشوان شرحاً مطوّلا على قصيدته ليفصّل بيان الأخبار الملمَح إليها فى النظم وأدرج فى الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير القدماء وملوكهم فتُعْزَى أبيات إلى الحارث الرائش أوّل التبابعة على رأى أصحاب الكتب فى السِّيَر والتواريخ من العرب وتُعزَى أبيات أخرى إلى أسعد تُبَع والتُّبَع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عمّا يُنْسَب إلى الشعراء غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهل حِمْيَر ومفاخرهم وقصورهم المشيّدة ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد فى أقاصى الأرض مثل فارس والهند والصين من جهة الشرق وطنجة وكانَنْبو من جهة الغرب و بلاد السودان . فمثال هذا الشعر ما يُنْسَب إلى التُّبَع الأكبر[٣] (من بحر الطويل) :

---

(١) فليراجع مثلا شرح ابن بدرون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [و بمصر سنة ١٣٤٠] .
(٢) اعتنى المستشرق A. von Kremer بنشر من القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية (A. VON KREMER, *Die himjarische Kasideh*, Leipzig 1865).
(٣) طبع المتن فى A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, No. 13, p. 17-18 والنقل فى VON KREMER, *Ueber die südarabische Sage*, Leipzig, 1866, p. 75-76.

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله فى الزمن الخالى
ملكناهم قهراً وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار ترمى بأبطال
وكلَّ عباد الله قد وطئت لنا خيولا لعمرى غير نكس وأعزال
فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
وعطّل منها كل حصن ممنّع ونقّل منها ما حوته من المال
وتلك (تروع) الأرض منها وطاءها إلى الصين والأتراك حالا على حال
فأبنا جميعاً فى السبايا وكلّنا على كل محبوك من الخيل صهّال
بكلّ فتاة لم ترَ الشمس وجهها أسيلة مجرى الدمع بيضاء مكسال
صموت البرى غرثى الوشاح كأنّها من الحسن بدر زال عن غيم هطّال

و بعض أبيات التبابعة المرويّة فى شرح نشوان قد جاءت أيضاً فى كتاب المعارف لابن قُتَيْبة[١] المتوفّى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التى نُقِلت عنها وقليل منها وارد أيضاً فى كتب غيره. — ومن المشهور القصيدة الظريفة لعَلْقمة ذى جَدَن الحِمْيَرىّ[٢] الشاعر الذى وصف فيها ما ذاق من اللذات سابقاً وما كان لقصر غُمْدان من الفخامة قبل كرّ الدهور عليه وذكر هلاك ذى نواس آخر ملوك حِمْيَر وهى قصيدة تُرْوَى فى سيرة الرسول لابن هشام[٣] وتاريخ الطبرىّ[٤] وغيرهما. ويروى

(١) كتاب المعارف ص ٣٠٤ — ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ — ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٠٠.

(٢) تروى له قصيدة أخرى فى جمهرة أشعار العرب فى باب أصحاب المراثى ص ١٣٧ — ١٣٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ وفى نيل الأرب فى قصائد العرب ص ٧٠ — ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ ولها ستة وعشرون بيتا وقيل فى جمهرة أشعار العرب إن اسمه علقمة وقيل فى كتاب الأغانى (ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ من طبعة بولاق) إنه علس. أما ذوجدن فهو قوم شريف فى اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische Frage*, Leipzig 1909, p. 324-325.

(٣) سيرة الرسول ص ٣٦ — ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨.

(٤) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ من طبعة ليدن.

لذى رُعَيْن الحميرىّ الشاعر أبيات مشهورة متعلّقة بأحوال اليمن القديمة[١] :

ألا مَنْ يشترى يَوْماً بدهرٍ   قليلاً ما يبيت قرير عَيْنِ
أَبَيْنا الغَدْر إذ رغِبَتْ إليه   مَقاوِلُنا فأمسوا رَهْنَ حَيْنِ
فإنْ تكُ حِمْيَرٌ غدرَتْ وخانَتْ   فمعذِرةُ الاله لذى رُعَيْنِ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتصلة بأخبار اليمن ومفاخرها فى زمان الجاهليّة المتداوَلة فى القرن الأوّل للهجرة حسبما نبيّنه عن قريب هى الذى سمّيْتُهُ الشعر القَصَصِىّ اليمنىّ مستنداً فى اختيار لفظ القَصَصِىّ إلى اصطلاح كَتَبَة العرب فى القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل استطراد .

لمّا نُقلت كتب أرسطوطاليس فى صناعة الشعر إلى العربيّة اشتد تحيُّر المترجمين فى تعريب الموضوع والاصطلاحات لعدم موافقة أنواع الشعر عند اليونان لأنواعه عند العرب . ومن الأنواع المجهولة عند الناطقين بالضاد المسمّى باليونانيّة epiké وهو لفظ معناه الأصلىّ قَصَصىّ (من قَصص القِصَص) غير أنّ اليونان اصطلحوا به على جنس من الشعر ليس له مقابل فى الآداب العربيّة . فلمّا قام ابن رشد الأندلسىّ بتلخيص كتاب أرسطوطاليس فى صناعة الشعر استعمل لفظ القصصىّ و بيّنه بياناً يُظْهِر أنّه لم يكن يُحيط بذلك النوع من الشعر اليونانىّ علماً يقيناً ولا رصّنه معرفةً فقال[٢] : « الأشعار القصصيّة سبيلُها فى الأجزاء التى هى المَبْدأ والوَسَطُ والنهاية سبيلُ أجزاء صناعة المديح وكذلك فى المحاكاة إلّا أن المحاكاة ليس تكون للأفعال فيها و إنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعالُ وذلك أنه إنّما يُحاكَى فى هذه كيف

(١) تروى الأبيات فى سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

(٢) تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر لأبى الوليد بن رشد ص ٤٠ — ٤١ من طبعة فيرنسة سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخو ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e poesia araba nell' interpretazione della Poetica Aristotelica*...(*Rivista degli Studi Orientali*, XII, 1929-1930), p.294 n.2, pp. 322-324.

كانت أحوالُ المتقدّم مع أحوال المتأخر وكيف تُنقل الدُوَلُ والممالك والأيام . ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل فى لسان العرب وهو كثير فى الكتب الشرعية . وذكر مُجيدين فى هذا الصنف من شعرائهم وأثنى ثناء عامّا على أوميرُشَ . ومن جيّد ما فى هذا المعنى للعرب قول الأسْوَد بن يَعْفُر :

ماذا أؤمِّلُ بعد آل مُحَرِّق ترَكوا منازِلَهم وبعد إياد

أرضِ الخَوَرنقِ والسَدِير وبارق والقصر ذى الشُرُفات من سِنْداد

نزلوا بأنْقِرَة يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

جَرَتِ الرياحُ على محلّ ديارِهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فأرَى النَعِيمَ وكل ما يُلْهى به يوما يصير إلى بِلًى ونَفادِ[(١)] »

فتتضح من هذا النصّ أن ابن رشد لعدم دراية له بشىء من الآداب اليونانيّة لم يتوصّل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أنّ الأشعار القصصيّة هي الأشعار المتوسّطة بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرتُ إليه من قصائد عدىّ بن زيد وقُسّ بن ساعدة . — وفى كتاب حديث وهو « تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو » تأليف المَقْدِسىّ[(٢)] سمّى ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسىّ وهو تعريب بعيد جدًّا يدلّ على قلّة المعرفة بآداب الغرب. فقال المؤلّف إنّ ذلك الشعر « رواية الوقائع العجيبة التى يقوم بها الشُجْعان » وإنّ « موضوعه الوقائع الملفّقة المشتملة على غرائب الشّجاعة ونوادر الفروسيّة » ثمّ إنّ الشعر العربىّ « يوجد فيه أيضاً من الشعر الحماسىّ وهو الذى رُوى فيه أخبار الحروب وأُطْنِب بشجاعة الشّجْعان » وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف

---

(١) الأبيات مروية فى شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغانى ج ١١ ص ١٣٤ — ١٣٥ من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١٧١ و ٢٣١ من طبعة ليدن ١٨٨٤ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٣ ص ١٦٥ من طبعة ليبسك .

(٢) طبع فى مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ .

إليها « كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبى تمام » . فالواضح أنّ المقدسىّ اغترّ فى وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذى اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إن الشعرَ القَصَصِىَّ المرادَ فى كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيدَ طويلةٍ جدًّا مشتملةٍ على ألوف أبيات لم يصُغها الشاعر للتعبير عمّا فى صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعاينه وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هى العادة فى أشعار العرب التى لا تلمّح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو الهجاء أو الاعتبار الزهدي بل نسجها الشاعر القصصىّ متكلماً عن لسان أمّة بأسرها راوياً ما حدَث لـكلّها من الحوادث العظمى فى عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر اتُّخِذَ كالبطل الممثِّل لجلالة جميع الأمة وعمرانها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأمّة وأميالها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلاً عن جيل وهى آثار نظمها الشاعر بعد مدّة طويلة وزيّنها وحلّاها بسحر البيان وجعلها مُتَّصلةً بعضَها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتّى ليس لها صلة ضروريّة بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لتداخل الآلهة والجنّ والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة المجيدة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحثُّ على الشجاعة وأنواع الـكرَم . فيَسهلْ عليكم تصوُّر ماهيّة تلك الأناشيد إذا اطّلعتم على الوحيدة منها التى نُقلت إلى العربية أعنى إلياذة هميرس ترجمها حديثاً سليمان البستانى بما له من طول الباع فى اللغتين اليونانية والعربية وبما له من الحظ الوافر فى صناعة القريض[1] . —

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيتم أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصىّ تامّاً فحملنى هذا الوفاق على

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياء الدين بن الأثير الجزرى فليراجع ما قاله فى آخر كتاب المثل السائر ص ٥٠٣ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

انتخاب هذا الاصطلاح . فيبقى علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقة وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى التبابعة و بين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدلّ دليل على أن الأشعار مختلقة . ولكن ولو لم نكتشف فى السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصّل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ هو من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية و إنّما استعملوا السبئيّة أو الحميرية فليست رواية أبيات التبابعة أصحّ من رواية الآبيات العربية التى تعزى فى بعض الكتب إلى سيّدنا آدم . — هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

أمّا الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذى جَدَن و إلى ذى رُعَيْنَ المتأخرة عن موت ذى نواس فيلوح من بعض عباراتها أنّ أصحابها مسلمون . فليس من المُحال أنّ علقمة ذا جدن وذا رعين شاعران عاشا فى أوائل الإسلام . غير أن وجودَها لا تخلو عن ريب فيه كما يتّضح مما يتلو من كلامى .

يُستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة فى كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبرى وغيرهم على روايتها الوسعى فى شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصليّ لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين [١] لعبيد [٢] بن شَرْيَة الجُرْهُميّ الذى أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية ابن أبى سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من ألسنة أهل صنعاء ومن مقدرته على اختلاق الأخبار مثال فى كتاب ابن خلكان فى ترجمة الشريف الرضى [٣] . وتعرفون أيضاً أن القُصّاص من اليمن كثيرون فى القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه

(١) [راجع ما قاله فى هذا الكتاب وعنوانه الصحيح فى C. Brockelmann *Geschichte der arabischen Litteratur*, Erster Supplementband, p. 100] .

(٢) واسمه عبيد بضم العين وفتح الباء وبعدها الياء مسكنة راجع حواشى Goldziher ص ٢٩ — ٣٠ من كتاب المعمرين للسجستانى عدد ٣٩ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وراجع أيضاً VON KREMER, *Südarabische Sage*, p. 47-49.

(٣) عدد ٦٧٨ من طبعة غوتنجن أو ٦٣٩ من الطبعات المصرية .

(المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الأسرائيليات وغيرها من الكتب التى هى أقرب إلى الخرفات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن المزوّرين المعاصرين لعبيد بن شرية يزيد بن مفرّغ الحميرىّ المتوفى سنة ٦٩ الذى سبق ذكره فى الشعراء الصنف السادس قيل فى حقه فى كتاب الأغانى[1] : « قال [أبو العيناء] : سئل الأصمعى عن شعر تبّع وقصته ومن وضعها فقال ابن مفرّغ وذلك أنّ يزيد بن معاوية لما سيّره إلى الشام وتخلّصه من عبّاد بن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تبّع وأشعاره » .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهى ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحبّ كلّ شعب للافتخار باجداده وسيّما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان فى القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار فى أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وحطّ عرب نزار الذين لم يكن لهم مآثر تقابل مآثر أهل اليمن فى قديم الزمان . وهى الطريق التى سلكها سائر الأمم الإسلامية فى مثل ذلك كما شرحته فى دروس السنة الفائتة[2] لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أو بالحرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط وهى أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها فى الكتب وهو أيضاً الداعى الذى حمل الشاعرين الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المسماة بشاهنامه . غير أنّ الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة البهلوية فى السير والتواريخ فما اضطُرّوا إلى تلفيق ما وصلت إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أنّ المزوّرين اليمنيين لئلا يُظهروا غرضهم بل لتنال أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبياتاً للحارث الرائش أول التبابعة تنبّىء مجىء

(١) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ٥٢ .
(٢) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى لكرلو نلينو ص ٢٠٨ — ٢١٠] .

النبى بعد قرون[(١)] ورووْا أن أسعد كاملاً « كان مؤمناً وآمن بالنبى صلعم قبل مبعثه بسبعمائة سنة وقال :

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله بارئ النَّسَم

فلو مُدَّ عُمْرى إلى عمره لكنت وزيراً له وابنَ عَم[(٢)] »

فستروا غِشَّهم بإظهار التُقَى[(٣)] :

٩ — وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المرثية وإننا نجد فى معظم شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثى ولكن هذا النوع نفسه إنما خصت به النساء فإنهن لم يأخذن يقلن الشعر فى غير هذا الجنس إلا فى عصر بنى العباس ومما يعجّبنا عند قراءة مراثى العصر الأموى مشابهتها لمراثى الجاهلية ولذلك أسباب شتى منها قلة التنوع الشعورى والإلهام الشعرى عند العرب القدماء وعادتهم أن ينسجوا على منوال الأولين وأخيراً اختصاص النساء بهذا النوع وهُنّ محافظات لسنّة السلف دون غيرهن .

(١) كتاب مروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس ج ١ ص ١٣٣ من طبعة باريس .

(٢) يشير إلى ذلك von Kremer فى كتابه *Ueber die südarabische Sage*, p. 63

(٣) [انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المسودة التى كتبها أبى باللغة الإيطالية] .

فهرست الأعلام

(١) فى ص ١١١ س ١ خالد بن أيوب خطأ فاقرأ : خالد بن أبى أيوب

فهرست

صفحة

تصحيح أغلاط

ص ١١١ س ١ اقرأ : وخالد بن أبي أيوب

ص ١٨٨ س ٧ من الحاشية الرابعة اقرأ : أما دكين بن رجاء الفقيمي فقال ياقوت . . . إنه

